

مَدْخَلٌ

إِلَى

نَظَرِيتِ الْإِسْلَامِ

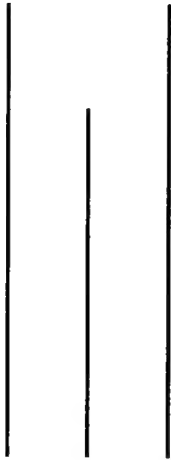
تَأْلِيفُ

الدُّكْتُورِ عَمَادِ الدِّينِ خَلِيلٍ

دارُ الزُّكَيْرِ

دمشق - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مَدْخَلٌ

إِلَى

نَظَرٍ تِلْكَ لَآبِئَابَ إِسْمَاعِيلَ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

الرقم الدولي:

الموضوع: أدب

العنوان: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي

التأليف: الدكتور عماد الدين خليل

نوع الورق: أبيض

ألوان الطباعة: لون واحد

عدد الصفحات: 240

القياس: 15×22

نوع التجليد: غلاف

الوزن: 0.3 كغ

## جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق  
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل  
المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق  
إلا بإذن خطي من

# دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

تصميم الغلاف: سامو برس - بيروت

التنفيذ الطباعي: مطبعة بشار الحلبي - دمشق

التجليد: مؤسسة حسين عبيدي للتجليد - دمشق

دمشق - حلب - بانياس - جادة ابن مسعود - بناء الجاهلي

ص.ب: 311 - هاتف: 2225877 - 2228450 - فاكس: 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دهبس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب: 113/6318 - تليفاكس: 01/817857 - جوال: 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com





## المقدمة

هذه محاولة في رسم خطوط عريضة فحسب لنظرية في الأدب الإسلامي . .

فعلى كثرة ما كتب عن هذا الأدب، وعلى تزايد المعطيات النقدية الإسلامية في العقدين الأخيرين بخاصة . . فإن المكتبة الأدبية الإسلامية تكاد تخلو من دراسات ذات طابع شمولي، تستهدف تقديم صورة متكاملة، أو غير متكاملة لنظرية الأدب من زاوية الرؤية الإسلامية.

وإذا كان أدباء ونقاد المدرسة المادية ، وغير المادية، قد طرحوا نظرياتهم بهذا الخصوص . . أفلا يتحتم على الأدباء الإسلاميين أن يدلوا بدلهم فيه، لا سيما وأن (رؤيتهم) تمتد لكي تضم العالم كله، وتفتح لكي تظل بجناحيها آفاق السموات وساحات الكون والحياة ؟

وإذا كانت معطياتنا الأدبية ليست - لحد الآن - كفاء لهذه الرؤية الواسعة، فإن هذا ليس عذراً في النكوص عن اقتحام الميدان، وإثبات الوجود . . على العكس . . إن أية محاولة في هذا الاتجاه سوف تكون بمثابة المشجع، والدليل في الوقت نفسه، لمعطيات الأدب الإسلامي في شتى آفاقها وأنواعها . .

ولن يكون بمقدور أحد الادعاء بقدرته على رسم صورة نهائية لنظرية الأدب الإسلامي، ما دام أننا لا زلنا في مرحلة التمهض والصيرورة والعطاء.

لذا جاءت (المحاولة) تحت عنوان (مدخل) إلى نظرية الأدب الإسلامي.. وهي بحق لا تعدو أن تكون مدخلاً، قد تتسع أبوابه فيما بعد، وقد يتم تدارك ما يتضمنه من نقص هنا وخلل هناك.

المهم أن نحاول.. أن نطرح مشاريع (مفتوحة)، قد تتكامل فيما بعد. وقد جاءت (المحاولة) موزعة وفق أربعة فصول، تضمن أولها تحليلاً للأسس الجمالية في الإسلام، واستعرض ثانيها الأركان والعناصر الأساسية للعمل الأدبي والإسلامي، وناقش ثالثها «الإسلامية» مقارنة بالمذاهب الوضعية على مستويي الشكل والمضمون.. أما رابعها فقد عرض للمنظور النقدي، بما فيه مسألة تاريخ الأدب وما تطرحه من معضلات وتحديات.

وليمنحني القارئ عذره إن وجد في هذا الكتاب الذي بين يديه قطعات واسعة مما ورد في أعمال الأدبية التي سبق نشرها، فما هي هناك إلا أشتات مما يمس النظرية الأدبية وردت في سياق آخر غير هذا السياق، أما ها هنا فقد أردت أن أجمعها، وأنسقها، وأقابل بينها، لكي ترفد المجرى العام لمعطيات الكتاب على مستوى المنهج والموضوع.

وإذا كان هذا الكتاب لا يعدو أن يكون بمثابة محفز لأعمال أخرى أكثر تكاملاً ونضجاً، فإنني اعتبره قد أدى مهمته المرتجاة.

وإلا فهو الأجر الواحد الذي ينتظره كل اجتهد قد لا يحالفه التوفيق.. وإلى الله وحده نتوجه بالأعمال..

الموصل: عماد الدين خليل



# الفصل الأول

## الأسس الجمالية

## ١

إن الكون صدور عن الله سبحانه، ومن ثم فهو في تكوينه، وأبعاده، ونواميسه وأشكاله، يتضمن قيماً جمالية بدءاً بجوانبه التي لا تراها العيون، وانتهاءً بالعالم والطبيعة التي تتحرك عليها الحياة، ويتواصل معها الإنسان.

والله سبحانه (جميل) يحب (الجمال) كما يحدثنا الرسول ﷺ، ولقد عبرت) جلت قدرته عن هذه (الجمالية) في صفحات الكون التي لا يلمها كتاب.. وفي أقطار العالم الأربعة.. وعبر معطيات الطبيعة التي لا تكف عن التمخض والعطاء.

إن هذه القيم الجمالية تبدو في أكثر من جانب من تصميم الكون وبنية العالم والطبيعة: في إحكام الصنعة، وتوزيع المساحات والأبعاد، وتشكيل الكتل، وضبط السنن والنواميس.. كما أنها تبدو في التدفق الدائم والتجدد المستمر، والانبعاث الأبدي، والعطاء النامي، والاتساع الذي لا تحده حدود. وتبدو كذلك، وبشكل أكثر مباشرة في المقياس الجمالي، في (التزيين) الذي عوملت به عناصر الكون والعالم والطبيعة.. والديكورات الأنيقة التي ركبت على الواجهات، والألوان، والصيغ، والتراكيب المدهشة التي بثت هنا وهناك..

إن خلق الله سبحانه مهرجان جميل، منذ لحظات مسيرة الإبداع الطويلة الأولى، وإلى أن يشاء الله فيطوي السموات والأرض كطي السجل للكتب ويعيد الخلق كما بدأه أول مرة..

إن (الجميل) هو ذلك الإبداع الذي يتضمن قدراً من التناسب والتناظر والإحكام والإثارة.. والذي يبعث في النفس الدهشة والتجاوب والإعجاب والانسجام، ويمنحها قدراً من التوحد والتناغم والامتلاء، ويمكنها من



التحقق بالتجاوز الذي يرفعها فوق مستويات الحزن، والقهر، والألم،  
والتعاسة، والقبح، والتمزق، والشقاء..

والجميل هو الإبداع الذي يكسر قشرة الإلف والاعتیاد والركون والملل  
التي يعاني منها الإنسان بين الحين والحين، فيدفعه إلى الدهشة والتجدد  
والحركة والفرح والغبطة..

والجميل هو الإبداع الذي يتعامل مع الإنسان من خلال مكوناته جميعاً،  
عقلاً وروحاً وحساً وجسداً ووجداناً.. فيمنحها المزيد من الحيوية، ويهبها  
القدرة على (الأخذ) الذي يزيدها غنى وعطاء.

ومن ثم، فإن الخلق الجمالي في الكون والعالم والطبيعة ليس هدفاً بحدّ  
ذاته، وإنما هو وسيلة، أريد بها تمكين الإنسان من التحقق بعلاقة أكثر  
حيوية وتدفقاً وصميمية بالكون.. الأمر الذي يقوده إلى خالق الكون، من  
خلال أشد نقاط الارتكاز في شخصيته قدرة على التواصل والفاعلية..

من هنا نعرف لماذا أكد القرآن الكريم على الرؤية الجمالية للكون  
والعالم والطبيعة.. لماذا تردد نداء التوجه إلى الخلق المعجز في جنبات  
كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.. ولماذا تجاوبت أصدأؤه عبر السور  
والمقاطع والآيات والأحاديث.. ولماذا اتسع واتسع حتى أصبح تياراً هادراً  
يكاد يجري على صفحات الكتاب الكريم من بدئها حتى المنتهى!!

والقرآن الكريم لا يكتفي بالتأكيد على هذا التوجه الشمولي صوب الكون  
ذي الحبكة المحكمة.. الجميلة.. ولكنه يتوقف أحياناً لكي يشير بالحرف  
الواحد إلى الجمال كشهادة منظورة للمبدأ العام.. إنه يطرح بعض النماذج  
والجزئيات المنبثة حوالينا، ويشير إلى جماليتها المقصودة لكي نمضي بعد

ذلك فنبحث عن الجمال، ونتواصل معه، ونتحقق بمعناه ومغزاه عبر تجوالنا اليومي في العالم والطبيعة، وعبر تفكرنا الدائم في الكون والحياة..

من الجزء المنظور إلى الكل الجميل.. تلك هي الرحلة التي يريد كتاب الله أن نقوم بها كل يوم، لكي نبعث ونتجدد، ولكي لا تنضب في نفوسنا وعقولنا وأرواحنا وحواسنا شلالات الدهشة والإعجاب والانفعال والحركة واليقين.

ومن خلال جولة شاملة عبر هذه الإشارات (المحددة)، نلتقي بالجمال المنبث في كل زاوية من زوايا الكون، ومنعطف من منعطفات الطبيعة.. ونلتقي به كذلك من خلال الحياة في تدفقها الأبدي.. ومن خلال النبات والحيوان.. ثم من خلال الإنسان نفسه، سيد المخلوقات الذي خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم، والذي صورته فأحسن صورته!!

الجمال في صميم الكون والطبيعة، وفي قلب الحياة والأحياء، وفي تركيب المخلوقات، وفي جسد الإنسان، وملامح وجهه!!

والجمال في العلاقات المتناسبة، والتوزيع الفذ، والمساحات المتناظرة بين الأشياء، بعضها والبعض الآخر، وبين المخلوقات بعضها والبعض الآخر.. بدءاً بتركيب الذرة، وانتهاءً بالعقل والروح وقوة الإرادة..

والجمال في القيم المنضبطة، الموزونة التي يتحرك الإنسان بهديها، وعلى ضوئها وإلزامها..

إننا نقرأ في كتاب الله عن (تزيين) السماء بالمصابيح الزرق، (وتجميلها) بالضوء الشفيف ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ

(١) الصافات ٦.

(٢) الملك ٥.

وَجَفْظًا<sup>(١)</sup>، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ<sup>(٢)</sup>﴾، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا<sup>(٣)</sup>﴾.

ونقرأ عن تزيين الأرض بالخضرة الواعدة، وعن البهجة الجميلة التي يهبها الشجر، والزرع، والزهر... للإنسان في هذا العالم ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا<sup>(٤)</sup>﴾، ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ<sup>(٥)</sup>﴾، ﴿وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ<sup>(٦)</sup>﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَنَعْوَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ<sup>(٧)</sup>﴾، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ<sup>(٨)</sup>﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً<sup>(٩)</sup>﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ<sup>(١٠)</sup>﴾، ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا<sup>(١١)</sup>﴾.

(١) فصلت ١٢.

(٢) الحجر ١٦.

(٣) ق ٦.

(٤) النمل ٦٠.

(٥) الحج ٥.

(٦) ق ٧.

(٧) الأنعام ٩٩.

(٨) يس ٨٠.

(٩) الحج ٦٣.

(١٠) فصلت ٣٩.

(١١) الروم ٥٠.

ونقرأ في مقابل (النبات) شيئاً عن عالم (الحيوان) (الجميل)، حيث التركيب المدهش، والألوان المثيرة، والوظائف البديعة، والغرائز المحكمة، والحركة التي تأخذ ألف إيقاع وإيقاع، ﴿وَالْأَنفَعُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالزَّيْلُ وَالْبَعَالُ وَالْحَمِيرُ لِرَبِّكُم بِرِزْقِهَا وَرِيشٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ .. ﴿إِنَّمَا بِقَرَّةٍ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النُّظُورَ﴾ (٩) ..

ونقرأ عن الإنسان نفسه سيد المخلوقات، كيف خلقه الله في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ جسداً وعقلاً وروحاً، وكيف صورته فأحسن صورته .. وفي الحاليتين نلتقي بالإحسان والتجميل، حتى ليكون (المصور) واحداً من أسماء الله الحسنى! ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ (٣) .. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (٤) ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٥) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٦) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ (٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (٨) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٩) ﴿يَتَأَيَّأُ الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

(١) النحل ٥-٨.

(٢) البقرة ٦٩.

(٣) التين ٤.

(٤) غافر ٦٤.

(٥) التغابن ٣.

(٦) السجدة ٧.

(٧) الحشر ١٤.

(٨) الأعراف ١١.

(٩) آل عمران ٦.

الْكُورِ ۝ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ ۝ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ (١)  
﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ (١١) إِلَىٰ رَبِّهَا قَاظِرَةٌ ۝ (١٢)﴾ (٢).

ونقرأ عن (المرأة)، إحدى بدائع خلق الله وآياته الجميلة في العالم، وعن زينتها التي يتوجب ألا ترخص وتبتذل لكل رائج وغاد، كما ترخص وتبتذل في قرننا هذا، وأن تظل مصونة، عزيزة، كيلا تذبل بمس الأيدي المتعاقبة، وتنسحق من وطء الأقدام، وكيلا يكون جمال المرأة مجرد أداة حسية لإشباع رغبات الجسد، وإطفاء شهواته، بينما هنالك (طبقات) أخرى من العلاقات بين الرجل والمرأة يمكن أن يرفدها الجمال المصون ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ (٣) ﴿فِيهِنَّ حَيْرَتٌ حَسَانٌ﴾ (٤) ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوبِ أَلَمْ يَكُونِ﴾ (٥).

ونقرأ حتى عن الملابس البديعة والحلي والأثاث الجميل ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ (٦) ﴿وَلْيَلْبَسُوا ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (٧)، ﴿مُتَكِبِينَ عَلَىٰ رَقَفٍ خَضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَانٍ﴾ (٨).

(١) الانفطار ٦-٨.

(٢) القيامة ٢٢-٢٣.

(٣) النور ٣١.

(٤) الرحمن ٧٠.

(٥) الواقعة ٢٢ - ٢٣.

(٦) الإنسان ٢١.

(٧) الكهف ٧١.

(٨) الرحمن ٧٦.

وصعوداً باتجاه الخالق المبدع، جل وعلا، حيث (الجمال) المطلق الذي ليس من سبيل إلى (معرفته) أو (وصفه) إلا بما حدثنا به القرآن الكريم نفسه، في تلك الآية الباهرة، التي تشع نورانية ورقة وصفاء.. وحيث تستخدم فيها كلمات مدهشة تنثّ جمالاً: (النور) (المصباح) (الزجاجة) (الكوكب الدري) (شجرة الزيتون) (الزيت المضيء الذي لم تمسه نار!!).. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

## ٣

هذا على مستوى الآيات التي تشير (بالحرف) إلى (الجمال) ومرادفاته.. وأما المعطيات القرآنية التي تصل إلى الهدف نفسه بتعابير وصيغ غير مباشرة، فهي واسعة، متشعبة، منبثة في نسيج كتاب الله كله، وإنها لتمثل - كما قلنا - تياراً كبيراً، تتضارب أمواجه وتتجاوب أصداؤه.. ينبع عند بدايات الكتاب، ولا يكف عن التمحض والخفقان حتى يختتم الإنسان على آخر سورة فيه.

فلنعين هذه المعطيات، لكي نتلمس جانباً من أبعادها (الجمالية):

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بِهِ مَوْثِقًا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) النور ٣٥.

(٢) البقرة ١٦٤.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوْثِ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي تَوَفَّوْكَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعِدٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾<sup>(١)</sup>.

﴿يَلْبِظُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَاعِمِهِ ﴿٩٩﴾ أَنَا صَبَاً أَلَمَّا صَبَاً ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ شَفَقَا الْأَرْضَ شَفَاً ﴿١٠١﴾ فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا ﴿١٠٢﴾ وَعَبَاً وَقَضَاً ﴿١٠٣﴾ وَزَيَّنَّا وَغَلَاً ﴿١٠٤﴾ وَحَدَائِقَ غَلَاً ﴿١٠٥﴾ وَفَكَهَهَا وَأَنَّا ﴿١٠٦﴾ مَنَّاعَا لَكُمْ وَلَآتَعِمَكُمُ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿لَا أُقِيمُ بِالْحَسَنِ ﴿١٠٨﴾ لِمَجَورٍ الْكَفِّسِ ﴿١٠٩﴾ وَالْبَلِيلُ إِذَا عَسَعَسَ ﴿١١٠﴾ وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾<sup>(٦)</sup>!!

(١) الأنعام ٩٥-٩٨.

(٢) عبس ٢٤-٣٢.

(٣) الأنبياء ٣١.

(٤) يونس ٥.

(٥) النحل ١٤-١٦.

(٦) التكوين ١٥-١٨.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ وَيَقْضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظُلُمَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونًا﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾<sup>(٥)</sup>.

إن هذا الوجود يقول (سيد قطب) في تفسيره لهذه الآية ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾<sup>(٦)</sup>: «مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول، وخالقه المبدع. والنجم والشجر نموذجان منه، يدلان على اتجاهه كله، والكون خليفة حية ذات روح، روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن، ولكنها في حقيقتها واحدة، ولقد أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله، وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه، أدركها بالإلهام الذي فيه، ولكنها كانت تغيم عليه وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها، بعقله المقيد بتجارب الحواس! ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة في بناء الكون، ولكنه لا يزال

(١) الملك ١٩.

(٢) النحل ٨١.

(٣) الحجر ١٩.

(٤) فصلت ١٠.

(٥) الرعد ١٥.

(٦) الرحمن ٦.



بعيداً عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق. والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هي وحدة بناء الكون، وأنها في حقيقتها مجرد إشعاع، وأن الحركة هي قاعدة الكون، والخاصية المشتركة بين جميع أفرادها، فالإي أين يتجه الكون بحركته التي هي قاعدته وخاصيته؟ القرآن يقول: إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه - وهي الحركة الأصلية، فحركة ظاهره لا تكون إلا تعبيراً عن حركة روحه - وهي الحركة التي تمثلها في القرآن آيات كثيرة منها هذه، ومنها ﴿نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ومنها ﴿أَلَمْ نَرَأَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَارُ صَبَّحَتْ كُلُّ فِدَمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾. وتأمل هذه الحقيقة، ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه، مما يمنح القلب البشري متاعاً عجبياً، وهو يشعر بكل ما حوله يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه، وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها، وهي تدب فيها جميعاً وتحيلها إخواناً له ورفقاء...»<sup>(١)</sup>.

من أجل ذلك، ومن خلال الرؤية الشمولية، النافذة، الشفافة، المترعة تعاطفاً ووجداناً، يحدثنا الرسول ﷺ عن جبل أحد الذي (يحبنا ونحبه)! ويقف حانياً على نبتة خضراء في قلب الصحراء، فيقبلها قائلاً: (ليتي شجرة تعضد)!!

يقول سيد قطب وهو يتمعن في هذه الآية: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾<sup>(٢)</sup>: «... الذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والذهول، ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم، فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل،

(١) في ظلال القرآن ١١٣/٧-١١٤.

(٢) تبارك ٣.

فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح ويستشرف، ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي، قبل أن يعلم بفكره وبإرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب، ومن ثم يكل القرآن إلى الناس النظر في هذا الكون، وتلمي مشاهده وعجائبه، ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً، وفي كل عصر.. والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال، بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة، فالكمال يبلغ درجة الجمال. ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظر إلى كمالها ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ومشهد النجوم في السماء جميل، ما في هذا شك، جميل جمالاً يأخذ القلوب، وهو جمال متجدد بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمرء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب، بل إنه ليختلف من ساعة لساعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية.. وكله جمال، وكله يأخذ بالألباب، هذه النجمة الفريدة التي توصف هناك، وكأنها عين جميلة تلتهم بالمحبة والنداء! وهاتان النجمتان المفردتان هناك وقد طلعتا من الزحام تتناجيان! وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك، وكأنها في حفلة سمر في مهرجان السماء، وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان! وهذا القمر الحالم، الساهي ليلة، والزاهي المزهو ليلة، والمنكسر الخفيض ليلة، والوليد المتفتح للحياة ليلة، والغافي الذي يدلف إلى الفناء ليلة، وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده، ولا يبلغ البصر أماده، إنه الجمال، الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه، ولكنه لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات، والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله، لأن إدراك جمال الوجود، هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن

يلبغه، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهياً فيها للحياة الخالدة في عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية، وإن أسعد لحظات القلب البشري لهي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون، ذلك لأنها هي اللحظات التي تهينه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه<sup>(١)</sup>.

ويشير (محمد قطب) في تفسيره الفني الآية ﴿وَاللَّهُمَّ خَلِّهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ<sup>(٣)</sup> إلى مجموعة حقائق عن علاقة الإنسان بالجمال، منها: «أن توجيه نظر الإنسان إلى (الجمال) في الأنعام ذات (المنافع) المتعددة، له دلالاته فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في التصور الإسلامي، فهو مخلوق واسع الأفق، متعدد الجوانب، ومن جوانبه الحسي الذي يرى منافع الأشياء، والمعنوي الذي يدرك من هذه الأشياء ما فيها من جمال، وهو مطالب ألا تستغرق حسه المنافع، وألا يقضي حياته بجانب واحد من نفسه، ويهمل بقية الجوانب، فكما أن الحياة فيها منافع وجمال، فكذلك نفسه فيها القدرة على استيعاب المنفعة، والقدرة على التفتح للجمال، فينبغي أن يأخذ الحياة هكذا بكلّياتها، ويتلقاها بنفسه كلها، عاملاً فيها بجميع طاقاته، ليصبح جديراً بمكانه الكريم عند الله»<sup>(٣)</sup>.

وحقائق (طبيعية) و(جمالية) أخرى في تفسيره لآية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup> حيث يقول: «إن صلة

(١) في ظلال القرآن ٢٧/١٢-١٥.

(٢) النحل ٥-٦.

(٣) منهج الفن الإسلامي ص ٤٢-٤٣.

(٤) النور ٤٥.

القربى هنا ليست معنوية ووجدانية فحسب، إنها أصرح من ذلك وأقرب، إنها صلة (مادية) محسوسة، إنها الاشتراك الحقيقي - لا المجازي - في (مادة) واحدة خلقت منها الكائنات، ثم تعددت أنواعها بعد ذلك وتفرقت أشكالها، ولكنها جميعاً ترجع إلى هذا الأصل الواحد الذي نبتت منه جميعاً! إن الإنسان إذاً ليس واهماً ولا متخيلاً خيلاً شعرياً حين يحس بالرابطة الوثيقة بينه وبين الكائنات الحية في الوجود حوله، إنها (حقيقة) تفتح للقلب منافذ شتى، يطل منها على الحياة، فتتسع مساحتها في نفسه، وتعمق أصولها في حسه، ويجد فيها الشعر والفن منفذاً يصل إلى النفوس والكون في أوسع مداه، ولا يفوتنا هنا التعبير بكلمة (من) في الحديث عن الدواب بدلاً من (ما) القياسية في الحديث عما لا يعقل، فهو تعبير مقصود، ليصل بين وجدان الإنسان ووجدان هذه الكائنات، وهذه القربى التي ذكرتها الآية السالفة بين الإنسان ودواب الأرض تذهب بها آية أخرى إلى أبعد من ذلك، عن طريق الإيحاء على الأقل، إن لم يكن باللفظ الصريح ﴿وَاللَّهُ أَتَبْتَكُرُ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾<sup>(١)</sup>.. أي صلة عميقة وثيقة تربط الإنسان بالحياة في الكون! وأي سعة يحسها الإنسان في نفسه وفي الكون، حين يتعمق في حسه الشعور بالوشائج الحية، التي تربطه بالأحياء؟<sup>(٢)</sup>.

وفي كتابه الآخر «منهج التربية الإسلامية» يتحدث (محمد قطب) عن موقف القرآن من الطبيعة كوسيلة (لتربية) قدرات الإنسان الحسية، وجعلها تفتح أبوابها على مصاريعها من أجل أن يندمج الإنسان في الطبيعة حباً وشوقاً ودهشة وتمعناً وإعجاباً، فلا يلبث أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام قدرة الله المبدعة الخلاقة «والقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة،

(١) نوح ١٧.

(٢) منهج الفن الإسلامي ص ٤٥-٤٦.

في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس، ويوقظها من إلفها وعادتها، فتنتفتح للكون كأنه جديد، وحين يحدث هذا التفتح، فإنه يحدث أعجب الأثر في الكيان البشري، إنه يشبه - مع الفارق - ذلك النشاط الحي الذي يحس به الإنسان في أعضائه حين يخرج من الغرفة المقفلة الفاسدة الهواء، فيتلقى النسيم المنعش على صفحة وجهه، ويستنشقه إلى أعماقه.. إنه يتجدد.. يتجدد حقيقة.. حساً ومعنى.. وينطلق في خفة نشيط الحركات. والتفتح النفسي يشبه ذلك الأثر، ولكنه أعمق وأشمل وأروع، إنه يهز الكيان النفسي كله، ويوقظه وينشطه ويجدد حياته، كل فكرة تمر به جديدة، وكل إحساس يخطر له جديد، وكل تجربة يمر بها فهي حية، حية تطلق شحنة من النشاط و طاقة من الإشعاع، وما أعجب كل شيء يحدث لأول مرة! إنها تجربة نفسية رائعة حية.. كأنها لمسة رقيقة تلمس طرف عصب مكشوف، فيستفز ويتأثر، وينقل اللمسة إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها.. إنها عملية جميلة ممتعة.. تملأ الحياة ثراء وسعة ومتاعاً متجدداً على الدوام، ولو استطاع الإنسان أن يعيش كل شيء كأنما يحدث لأول مرة إذاً لاستطاع أن يحس بالشباب الدائم، الذي لا يدب إليه العجز ولا الشيخوخة ولا الفناء، ولكنها عملية عسيرة، فمطالب العيش الدائمة، وزحمة الحياة، وقصر العمر، ووفرة المشكلات، كلها تستنفذ الطاقة والاهتمام.

ومع ذلك فالقرآن يصنع هذه العجيبة! إن أسلوبه الساحر، وجوّه المشرق، وروحه الصافية لتنقل الإنسان نقلاً من إلفه وعادته، ونهزه ليستيقظ، تلمس - برفق - أعصابه المكشوفة! فتعطيه الشحنة كاملة، فينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها، ومن ثم يعيش الأشياء كأنما تحدث لأول مرة، ويستمتع بسحر هذه الجدة، ومتاعها العجيب.

والإنسان يعيش في القرآن مع الكون في لقاء دائم جميل حبيب، لقاء يلذ النفس، ويمتع الحس، ويطلق الروح.. نشيطة طليقة تسبح لله، والقرآن

في ذاته كتاب جميل ممتع، لا ينتهي منه قارئه حتى يحب أن يعود إليه من جديد، ومن ثم كان اللقاء متجدداً في داخل النفس، وفي صفحة الكون، لا ينفذ، ولا يسأم، ولا يزول»<sup>(١)</sup>.

ونعود إلى (منهج الفن) لنتملى مع المؤلف جمال اللوحة التي تنقلنا (بالوانها) إلى الطبيعة مباشرة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۚ وَهُنَا السَّيِّدَاتُ وَالْأَنْعَامُ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾<sup>(٢)</sup>.

«إن الحس يوجه هنا إلى ظاهرة معينة في قدرة الله هي تنوع (الألوان) في الخليفة، ولكنه لا يوجه إلى ذلك في صورة لفظية تجريدية، وإنما ترسم له - في تلك الألفاظ القليلة المحدودة - لوحة واسعة، فيها مخلوقات الأرض جميعاً، من جماد ونبات وحيوان وإنسان! النبات مختلف ألوانه.. وهذا ركن من اللوحة الواسعة أو وحدة من وحداتها، متناثرة على رقعة اللوحة تناثرها في الطبيعة الواسعة. والجبال ذات قمم بيض وحمرة وسود.. وهذه وحدة أخرى من وحدات اللوحة، تنتشر فيها الألوان هنا وهناك، لتتسجم مع ألوان النبات المتباينة في الأرض.. ثم.. ناس مختلفة الألوان، ودواب وأنعام مختلف ألوانها كذلك»<sup>(٣)</sup>.

ثم لننظر - أخيراً - إلى هاتين اللوحتين اللتين يرسمهما القرآن عن الكفار ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَحِمَتْ جُنُفُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾<sup>(٤)</sup> مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ ضُمُّ بَكْمٍ عَمَىٰ فَعَمَىٰ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ

(١) انظر بالتفصيل (منهج التربية الإسلامية) فصل (تربية الروح).

(٢) فاطر ٢٧-٢٨.

(٣) منهج الفن الإسلامي ص ٢١٨-٢١٩.

فِيهِ ظَلُمْتُ وَرَعْدٌ وَرَقٌّ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ  
بِالْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ  
قَامُوا ﴿١٧﴾ !!

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَلَّالًا إِذَا جَاءَهُمْ لُرُ  
يَحْدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي  
بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشِلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا  
أَخْرَجَ بِكَدِّهِمْ لُرُ يَكْدُ رِيثًا وَمَنْ لُرُ يَجْعَلِي اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢) !! «إنها  
صورة عجيبة، تهز النفس من أعماقها، وتستدرج الخيال بتتابع تفصيلاتها  
المتحركة المتتالية، فالصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.. منظر  
العاصفة مكتملاً بكل ما فيه من رعب وفزع، يجعلون أصابعهم في آذانهم  
من الصواعق حذر الموت.. الموقف واضح بتفصيلاته، والخيال يتملاه  
كانما يشاهد على شاشة الصور المتحركة بأروع (لقطاتها) المثيرة.. كلما  
أضاء لهم البرق مشوا خطوة، مذعورين مفجوتين، فإذا أظلم عليهم وقفوا  
حيث هم في حيرتهم.. أو كسراب بقية.. المنظر ممتد على آخر البصر،  
حيث يخایل السراب، كآمال الذين كفروا إلى ما لا نهاية، وهي كلها  
خداع، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ﴾.. والخيال يسير معه هذا (المشوار) الطويل  
الجاهد حتى يصل إلى مكان السراب: ﴿لُرُ يَحْدُهُ شَيْئًا﴾ روعة المفاجأة،  
حتى والإنسان يعلم من قبل أنه لا شيء هناك، ثم المفاجأة المذهلة الكبرى  
﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾.. ﴿فَوْقَهُ حِسَابُهُ﴾، والخيال يتخيل منظر المفاجأة  
المرعب المهول، ولا يملك الإنسان نفسه من هزة التأثير.. العميق.. أو..  
﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾.. إنها أروع لوحة من لوحات (الظلام) في مشاهد  
الطبيعة، يمكن أن ترسمها ريشة أو آلة مصورة. ومع أن المشهد لم يكن

(١) البقرة ١٦-٢٠.

(٢) النور ٣٩-٤٠.

معروضاً هنا لذاته، وإنما لتصوير حالة الظلام النفسي، الذي يورثه الكفر للنفوس، فإنه أمدنا بلوحة طبيعية رائعة، يتمناها الحس والخيال، ويعمل فيها الفن بحرية وانطلاق<sup>(١)</sup>.

نخلص من هذا إلى أن القرآن يطرح معطياته عن (الجمال) بالإشارة المحددة حيناً، وبالصيغ الضمنية غير المباشرة حيناً آخر.. وهنا نلتقي بتأكيد متزايد على جمالية الخلق الكوني، ووضع الإنسان في حالة تقابل فعال معه.. كما نلتقي بعروض قرآنية تعتمد (الكلمة) لتقديم لوحات مبدعة غنية بقيمها ودلالاتها الجمالية.

## ٤

ولا يقف الأمر في المنظور الإسلامي عن حد تقرير، أو تأكيد الحقيقة الجمالية في تركيب الكون والعالم والطبيعة، وفي خلق الإنسان، وإنما يتعداه إلى (الدعوة) لاعتماد (التزيين) و(التجمل) في ممارسات المسلم، والإفادة من قوانينه ومعطياته، بل الأمر بها!! ﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت هذه الدعوة، أو هذا النداء الأمر بعبارة أدق، يطلب من الإنسان التزيين والتجمل، وهو يتوجه لممارسة أخص ما يتعلق بشؤونه الروحية وهي الصلاة.. فإن (المسلم) لم يفهمها على هذا النطاق الضيق المحدود.. وإنما وسع مدى الرؤية، كما هو الأمر في كل توجيه قرآني، أو نبوي، لكي تمتد إلى كل مساحة، وتغطي كل ممارسة.. إن حياة المسلم

(١) منهج الفن الإسلامي ص ٢٢٥-٢٢٦. (للتوسع في موقف القرآن والطبيعة انظر: المرجع السابق، موضوع (مشاهد الطبيعة في القرآن) ص ٢١٢-٢٢٨).

(٢) الأعراف ٣١.



كلها، في مساربها كافة، وعبر منعطفاتها جميعاً، يتوجب أن تكون أنيقة، جميلة، نظيفة، متزينة.. في العبادة.. في العمل.. في المعاملات.. في العلاقات.. في الآداب.. في الأخلاق.. في كل تفاصيل السلوك اليومي، الروحية والمادية على السواء: في ملابسنا، في دورنا، في أزقتنا وشوارعنا.. في دوائرنا ومؤسساتنا.. وحتى في تسريح شعرنا وتمشيط لحانا، ونثّ العطور الفواحة على رؤوسنا ووجوهنا!!

خذوا زيتكم عند كل مسجد.. وفي كل مكان..

خذوا زيتكم.. في كل فعل ولدى كل ممارسة..

لقد فهم المسلمون هذا جيداً، فعرفوا كيف يزينون حياتهم ويجميلونها.. فكان ذلك المهرجان المعماري الرائع من الجوامع والمساجد.. وكانت تلك المدن الجميلة.. وكان ذلك التفنن في المأكّل والملبس.. وكانت تلك القصائد والزخارف والخطوط والألوان!!

إن القرآن الكريم يمضي خطوة أخرى في هذه الطريق، فيندد بالذين يقفون في وجه تجميل الحياة وتزيينها، يصرخ في وجوههم، لكي يردوا للعالم وجهها الأنيق الذي أراده الله سبحانه يوم خلق الحياة والأحياء ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

إن الله سبحانه قد أخرج لنا (الجمال) بالصيغ والمواصفات الدقيقة المحسوبة، وإن على الإنسان أن يتلقى هذه الهبة الكريمة بعقل مدرك، ووجدان مفتوح.. بالعين التي تعرف كيف ترى، والأذن التي تعرف كيف تسمع، واليد التي تعرف كيف تتحسس، والشم الذي يعرف كيف يفرق بين

العطر والريحان، والذوق الذي يعرف كيف يميز بين طعم العسل، والمن.. والرحيق!!

ويتساءل المرء: لم خلق الله سبحانه هذه القيم الجمالية ووزعها في بستان الكون والعالم والحياة؟ ولم أبدع أجهزة الاستقبال الحسية المعجزة في كيان الإنسان، من سمع وبصر ولمس وشم وذوق.. إن لم تكن من وراء ذلك حكمة ومنفعة تحتمل على الإنسان التعامل مع (الجمال) والتكيف بقيمه، وتزيين الحياة الدنيا بمعطياته التي مالها من نفاد؟!

ويعرف عند ذاك لماذا نادى القرآن بأعلى نبرة ﴿يَبْنَى مَادَمَ حُدُوا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ولماذا نعى - بالنبرة القوية نفسها - على الذين يحرمون زينة الله التي أخرج لعباده!!



إن القرآن الكريم نفسه يعتمد (الجمالية) في الأداء لكي يؤدي وظيفته في الحدود القصوى؛ التي أرادها له الله سبحانه..

والقرآن الكريم هو كتاب الله المنزل، والمدرسة التي يتوجب أن يتعلم منها المؤمنون في كل صغيرة وكبيرة..

وها هنا، بصدد الحديث عن (الجمالية)، نلتقي بصيغ معجزة فذة في التعامل الإلهي مع الجمال، يمكن أن يعيننا في البحث عن الأسس الجمالية لنظرية الأدب الإسلامي من جهة، وفي تصميم معطياتنا الأدبية، بأنواعها كافة، من جهة أخرى..

إن التعامل القرآني مع (الجمال) يأخذ اتجاهين.. فأما أولهما فيقوم على المضامين الجمالية التي يطرحها كتاب الله، بدءاً من حديثه عن خلق الكون والعالم والطبيعة والحياة والخلائق والإنسان.. مروراً بلفت الأنظار

والأسماع إلى حشود الجماليات التي تنتشر في أمداء السموات والأرض، وانتهاءً بالتأكيد على (الجمال) و(الزينة) كعناصر ضرورية، متممة لتجربة الحياة المؤمنة المستقيمة.. وقد تحدثنا عن هذا بإيجاز في المقاطع السابقة.

وأما الاتجاه الثاني فيقوم على (الأسلوب) ..

وقد قيل في معجزة القرآن (الأسلوبية) الكثير، وكتب الكثير، وهي مسألة تحتل المزيد من القول .. والكتابة .. والعطاء .. فإن كتاب الله، كما قال رسول الله ﷺ: (لا تنقضي عجائبه، ولا يبلى على كثرة الرد) ..

وبإيجاز شديد ويقدر ما يتعلق الأمر بالموضوع الذي بين أيدينا، فإننا نلاحظ كيف تعامل القرآن الكريم مع (الحرف) العربي، وكيف صاغ من (الكلمة) تعابيره الفذة وآياته البينات .. وكيف فجر أقصى ما تتضمنه الكلمات من قدرات تعبيرية، وكيف اعتمد (الجملة المكتوبة) لتقديم صورته الفنية، وتعميق ملامح شخوصه، وعرض (التجربة) كما لو كانت حية معيشة تتخلق وتتحرك أمام أنظارنا .. وكيف أنه (خيل) و(جسد) بالحرف مواقف ما كان بمقدور الريشات والأزاميل أن تجسدها .. كما أننا نلاحظ كيف بنى القرآن الكريم على تقطيع الأصوات وجرس الأحرف وإيقاع الكلمات الكثير من القيم التعبيرية، التي تعرف كيف تتعامل مع الحس والوجدان، وكيف تقيم عمرائها الجمالي من التقطيع والجرس والإيقاع<sup>(١)</sup>.

ما من قدرة (تعبيرية) للحرف والكلمة إلا وفجرها كتاب الله، وبنى عليها معماره المتناسق الجميل ..

(١) يمكن الرجوع في هذا المجال إلى عدد من الدراسات القيمة أهمها ولا شك (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب و(الفاصلة في القرآن) لمحمد الحساوي.

وهو بهذا يعلمنا، كما علم خطأ طويلاً من الأجيال التي سبقتنا، أن (الكلمة) لهي واحدة من أبرع الأدوات الجمالية في هذا العالم، وأن بمقدورها ليس فقط التعبير عن الجمال كما هو في (الموضوع)، ولكن أن تضيف إليه وتزيده تركيباً وتعقيداً، بل أن تصنع بنفسها جمالياتها الخاصة التي تبهر العقول والأبصار..

## ٦

فإذا ما انتقلنا إلى الإسلام نفسه، كعقيدة شاملة، فإننا نجده في توجهاته الشمولية بمثابة (حركة) صوب التناغم (الجمالي) بين الموجودات..

إن الإنسان - هندسياً - إما أن يكون في اصطراع مع السنن والنواميس الكونية، و(تنافر) معها، وارتطام بمقولاتها، وإما أن يكون في وفاق وتناظر وتناسق وانسجام.. إن هذا (الوضع) الذي يريده الإسلام ويسعى إلى التحقق به، لا يمكن الإنسان من تكثيف معطياته الإبداعية والحضارية عموماً فحسب، بل إنه - كذلك - يضعه في الموضع (الجميل) الذي يليق به، ابناً باراً لهذا العالم، وخليفة فيه، وسيداً على الخلائق والعالمين.

إننا نلمح البعد الجمالي في حركة السدم والكواكب والأجرام في مساراتها الكبرى.. ونلمح البعد الجمالي في حركة الجزيئات والذرات في مداراتها الصغرى.. ونلمح البعد الجمالي في الحركة الموزونة (المدرونة) المنضبطة في كل شيء حي، وفي كل جماد: ﴿وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوْسَى وَأَبْنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿فَالنَّفَى أَلَمَاءٌ عَلَى أَمْرِ قَدِّ

(١) الحجر ١٩.

(٢) الرحمن ٧-٩.

﴿قَدِرَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ  
الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ  
يُقَدِّرُ﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٦١﴾ إِلَٰك قَدِيرٌ مَّعْلُومٌ﴾<sup>(٦)</sup>.

إن رحلة النبتة المرسومة منذ انبعاثها من قلب التربة، حتى استوائها على  
سوقها واخضرارها، وتفتح أزهارها، ونضج ثمارها.. فهي رحلة جمالية  
بمعنى من المعاني..

وهي ذات الرحلة التي يقوم بها القمر في السماء القريبة: هلالاً..  
فبدراً.. فقمرأ.. فعرجوناً..

وهي ذات الرحلة التي تقوم بها الشمس والكواكب والنجوم..

وهي ذات الرحلة التي تقوم بها قطرة الماء، تبخراً من البحار المالحة،  
واندفاعاً في مجال الرياح وتكاثفاً في الأعالي، وإسطاراً على الأرض  
العطشى، وتجمعاً في الروافد والجداول لكي تصير نهراً، ولكي يصب النهر  
- ثانية - في البحر الكبير..

إن الإنسان نفسه.. حويناً.. فنطفة.. فعلقة.. فجنيناً.. فمولوداً..  
فطفلاً.. فصبياً.. فشاباً.. فرجلاً.. فكهنلاً.. ليعبر بالإيقاع الجميل  
المتناسق نفسه، عن دورة الحياة والموت، وعن تعاقب الانبعاث والفناء.

كل شيء في الطبيعة والعالم يؤدي دوره المرسوم، وغايته المحسوبة في  
مساق متناظر جميل.. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ

(١) القمر ١٢.

(٢) يس ٣٩.

(٣) المزمّل ٢٠.

(٤) الرعد ٨.

(٥) القمر ٤٩.

(٦) الرسائل ٢١-٢٢.

يَسْبَحُونَ<sup>(١)</sup>، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ<sup>(٢)</sup>﴾، ﴿وَاللَّيْلِ نَسْطًا ﴿٤٠﴾ وَالنَّجْمِ حَتَّىٰ مَبْعَا<sup>(٣)</sup>﴾ فَالْمَنِيَّاتِ سَبْقًا<sup>(٣)</sup> .

وعلى الإنسان الذي منح حرية المسير في هذا الدرب أو ذاك أن يختار.. ولن يخرج اختياره عن إحدى اثنتين في مدى الحرية التي منحه الله إياها، إما التساوق والتناظر والانسجام، وإما التضارب والخلل والتفكك.. والمحصلة النهائية - كما قلنا - هي أن نختار الموضوع الجميل اللائق، أو أن نتشبث بمواقع القبح والتنافر والدماة.

ولن نتصور هذا إلا إذا استحضرننا في خيالنا وشعورنا خلائق الله جميعاً، في الحياة والجماد، وهي تسبح بإيقاع متفرد عجيب صوب الهدف الواحد.. وتصورنا الإنسان وهو يخترق هذا السياق، ويسبح على غير هدى، فيثير الفوضى في المسيرة الجميلة، ويحدث نوازاً في الصوت المنغم، ويجرح العين والإحساس بضربات فرشاته العمياء على لوحة الوجود الجميل..

إننا نقرأ في مواضع شتى من كتاب الله آيات ومقاطع، تحدثنا عن الوثام والانسجام الذي يسود الكون والعالم، وعن التوجه المتوحد للخلائق صوب خالقها الذي أبدعها ومنحها نعمة الوجود.. ومن خلال حركة (التسبيح) الجماعية تتحول أرضية الكون إلى مسرح كبير ينشد أبناؤه جميعاً نشيد الحمد، ويؤدون جميعاً صلاة الشكر والعرفان ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) الأنبياء ٣٣.

(٢) يس ٣٨-٤٠.

(٣) النازعات ٢-٤.

وَهُوَ الْقَرِيبُ الْكَرِيمُ<sup>(١)</sup>، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿وَأَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفْتًا﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرُ﴾<sup>(٦)</sup>، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾<sup>(٧)</sup>، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِظِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾<sup>(٨)</sup>.

ولقد جاء الإسلام يحمل اسمه: التسليم لرب العالمين، والعودة بالإنسان إلى التوافق والانسجام مع نسيج الكون والخلائق وإيقاع الوجود والحياة.. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾<sup>(٩)</sup>، وإلا فإن الإنسان لن يظلم إلا نفسه، فيتعثر ويتشتت ويرتطم.. بينما العالم والخلائق ماضية في حركتها الأبدية الموزونة صوب خالقها العظيم ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا قَالُوا لَيْزَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾<sup>(١٠)</sup>.

ولن يعني هذا أن الإسلام يدعو إلى (الاستسلام) والكف عن (الصراع).. بالعكس إن الإسلام في الجانب الآخر للصورة الواحدة، حركة أبدية مسلحة، وجهاد دائم، وثورة مستمرة، حتى تتحقق كلمته في العالم،

(١) الحديد ١.

(٢) الإسراء ٤٤.

(٣) الرعد ١٣.

(٤) الإسراء ٤٤.

(٥) النور ٤١.

(٦) الأنبياء ٧٩.

(٧) ص ١٨.

(٨) الزمر ٧٥.

(٩) الحديد ٢٥.

(١٠) فصلت ٣٨.

وَيَكُونُ الدِّينَ لِلَّهِ، ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾<sup>(١)</sup> . . «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة» كما يقول الرسول ﷺ.

إن تحقيق الوفاق المرتجى مع الناموس ليس أمراً سهلاً، ولن يتم بكلمات تقال، فإن ألف طاغوت وطاغوت يقفون في الطريق، وإن ألف مصلحة ومصلحة تعترض دعوة كهذه، وإن حشوداً من الطبقات والفئات والوضاعين والمنفعيين ستقف في الطريق، ولا بد من السلاح . . لا بد من القتال من أجل ألا تلتطخ الإرادات الشاذة صفحة العالم بالبشاعة والقبح والدمامة، ومن أجل أن يعود إلى الوجود وجهه الجميل!!

### ٧

والجمال في المنظور الإسلامي ليس هدفاً بحد ذاته - كما قد يتبادر إلى الأذهان - وما ثمة في الإسلام (برتاسية) تدعو إلى مذهب (الفن للفن)، أو (الجمال للجمال)، وإنما هو وسيلة حيوية مؤثرة لتحقيق أهداف أخرى لصالح الإنسان.

الجمال في الإسلام جمال (قيمي) . . فما يقود إلى قيم إيجابية تبشيراً وتحقيقاً وتعزيزاً هو الجمال المطلوب، وما يقود إلى قيم سلبية هو الجمال المخادع، المرفوض . .

والإسلام، بخلاف العديد من المذاهب الوضعية، واقعي في أحكامه الجمالية، كما هو واقعي في مواقفه كافة، إنه لا يسم بالقبح والبشاعة ما هو جميل بذاته، ولكنه يذهب إلى ما وراء الوجه الجميل، ويتجاوز (الديكور) الخارجي للشيء المتزين، بحثاً عن الهدف الذي يؤول إليه . . وكثيراً ما يؤول الجميل المتزين إلى الخراب والتفكك والضياع . . كثيراً ما يكون أداة



بيد الشر يسوق بها المعجبين إلى حنوفهم، ومصبدة يحتال بها على الذين تخدعهم ظواهر الأشياء.. إنه جمال.. نعم.. ولكنه جمال مخادع، لا يتعدى الواجهات الخارجية، حيث يكمن في الداخل العفن والفساد.

إن المرأة التي تضع المساحيق على وجهها، تتجمل وتزين حقاً، وقد تتجاوز ملامحها القبيحة، ما في هذا شك، وإنها لتحمل آنذاك قدراً من الجمال.. ولكنه ليس جمالاً أبدياً، ولا جمالاً حقيقياً.. إنه (حيلة) تطلي بها مواضع القبح والدماثة لتطلي حقيقة الوجوه على الآخرين.

إن القرآن الكريم يقف طويلاً عند هذه المسألة التي تهمنا في الحديث عن الجمال.. إنه يريد أن يحذّر الإنسان من الجمال المخادع، والزينة التي تقود إلى البوار، كي لا يكون الإنسان عرضة للسقوط، وكي يكون كل مسلم ناقداً حقيقياً يفرق جيداً الذهب الأصيل عن الذهب المغشوش، ويعرف تماماً أن ما كل ذي لمعان وبريق هو ذهب بالضرورة..

ومنذ لحظات الخلق الأولى أدرك إبليس ما يمكن أن تلعبه الزينة في الاستدراج والسقوط فأقسم ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(١)</sup> وانبثت ذريته في أرجاء العالم لكي تلعب الدور الموعود ﴿وَفَيَضُنَّا لَهُمْ قُرَآنًا فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾<sup>(٣)</sup> ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئَةِ وَالْحَئِيلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْحَرَبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا

(١) الحجر ٣٩.

(٢) فصلت ٢٥.

(٣) البقرة ٢١٢.

(٤) آل عمران ١٤.

يَعْمَلُونَ ﴿١﴾، ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)، ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ  
كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ (٣)، ﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ  
السَّبِيلِ﴾ (٤)، ﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مَن زَيْنَ لَمَّ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ (٥)، ﴿وَزَيْنَ  
ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنِّي التَّوَهُُّ﴾ (٦).

إن الجمال وهذا هو اسمه الحقيقي في المنظور الإسلامي - إنما هو  
أداة اختبار لقدرة الإنسان على الفحص والتمحيص.. على تجاوز الشكل  
الخارجي للأشياء وصولاً إلى الجوهر.. على عدم السكون عند الواجهات  
الجميلة، وتجاوزها إلى الداخل لمعرفة طبيعة البضاعة هناك.. على القدرة  
على التحرر من الإغراء، والخضوع للزينة، لكي يكون الإنسان، وهو يمتلك  
حريته تلك، أكثر فاعلية وعطاء، وأعمق - بتجرده هذا - ارتباطاً بأسباب  
السماء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧)،  
﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٨)، ﴿أَلَمَّا وَالْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٩)، ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ  
الدُّنْيَا لُغِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةُ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ (١٠)، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ (١١).

(١) الأنعام ١٢٢.

(٢) يونس ١٢.

(٣) الرعد ٣٣.

(٤) غافر ٣٧.

(٥) محمد ١٤.

(٦) الفتح ١٢.

(٧) الكهف ٧.

(٨) الكهف ٢٨.

(٩) الكهف ٤٦.

(١٠) الحديد ٢٠.

(١١) القصص ٦٠.

وحتى على المستوى العام، المستوى الحضاري، عندما تضع حضارة ما، تعاني من التفكك والفساد، قناعاً جميلاً على وجهها، وتزين، فإن هذا لن ينقذها من الدمار، لأنها فيما وراء الديكور الجميل، ليس ثمة أي جميل على الإطلاق ﴿حَتَّىٰ إِنَّا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَآ أَمْرًا نَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾<sup>(١)</sup>.

٨

فهو - إذا - الارتباط الوثيق بين الشكل والفعل، بين الأسلوب والعمل، بين الظاهر والباطن، وبين المظهر والجوهر.. فما ليس في جوهره جميلاً لا يمكن بحال أن يقود إلى قيمة إيجابية، بل لا يمكن أن يقدم إضافة حقيقية للتجربة، في إطارها الفردي أو الحضاري.. على العكس، إنه سيكون بمثابة الغطاء المضلل على ضرورها وآثامها وشروخها، وسيحجب عن الأنظار الوضع الحقيقي للتجربة، ويصيب بالشلل القدرة على وقف انهيارها وحمايتها من الدمار ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوُّ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>.

إن القرآن الكريم يصف بالجمال والحسن كل عمل حسن وقيمة حسنة، وليس صدفة أن تجيء مرادفات الكلمة مشتقة من (الحسن) الذي هو صنو الجمال ﴿وَحَسَنَ أَوْلَٰئِكَ رَٰزِقًا﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿خَلَدِيكَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُّسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿قَالَ مَعَاذَ

(١) يونس ٢٤.

(٢) فاطر ٨.

(٣) النساء ٦٩.

(٤) الفرقان ٧٦.

(٥) الأنعام ١٥٤.

اللَّهُ إِنَّهُ رَزَقَ أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ<sup>(١)</sup>، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا<sup>(٢)</sup>، وَلَا نُنْكَرُ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ<sup>(٣)</sup>، إِنَّا أَحْسَنَتْ أَحْسَنَتْ لِنَفْسِكَ وَإِنْ أَسَأَأْتُمْ فَلَهَا<sup>(٤)</sup>﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ<sup>(٥)</sup>، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ<sup>(٦)</sup>، وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ<sup>(٧)</sup>، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ<sup>(٨)</sup>، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ<sup>(٩)</sup>، وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا<sup>(١٠)</sup>، وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ<sup>(١١)</sup>، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ<sup>(١٢)</sup>، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْرِجْنَ السَّيِّئَاتِ<sup>(١٣)</sup>، وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى<sup>(١٤)</sup>، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى<sup>(١٥)</sup>، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ وَجْهَهُ اللَّهُ وَهُوَ صِبْغَةُ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ<sup>(١٦)</sup>،

(١) يوسف ٢٣.

(٢) الكهف ٣٠.

(٣) القصص ٧٧.

(٤) الإسراء ٧.

(٥) آل عمران ١٧٢.

(٦) النحل ٣٠.

(٧) القصص ٧٧.

(٨) البقرة ١٩٥.

(٩) البقرة ٨٣.

(١٠) الشورى ٢٣.

(١١) الرعد ٦.

(١٢) الأحزاب ٢١.

(١٣) هود ١١٤.

(١٤) الكهف ٨٨.

(١٥) طه ٨.

(١٦) البقرة ١٣٨.

مُحْسِنٌ<sup>(١)</sup>؟، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَتَكْمُرُونَ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتِبَاغٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾<sup>(٦)</sup>، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾<sup>(٧)</sup>، ﴿بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾<sup>(٨)</sup>.

ويجب أن نلاحظ أن مدرج الالتزام الإسلامي ذي الدرجات الأربع يبدأ بالإسلام فالإيمان، فالتقوى، وينتهي بالإحسان: المرتبة - القمة التي هي أقصى درجات الالتزام الإيماني.. هنالك حيث لا يمارس الإنسان أية صغيرة أو كبيرة إلا وهو يجد نفسه إزاء الله سبحانه.. إن (الإحسان) هو بلوغ الإنسان مرحلة الإحساس الكامل بالحضور الإلهي الذي لا يند عنه شيء في السموات والأرض.. وإن اشتقاق هذا المصطلح الإسلامي من (الحسن) صنو (الجمال) ليحمل دلالة فيما نحن بصدد.. لقد كان هدف الإسلام دائماً تعزيز العلاقات الجمالية الصميمية في هذا الكون.. ويوم يصل الإنسان المسلم مرحلة (الإحسان) بعد تمرس طويل بالجهد على كافة الجبهات، يكون في الوقت نفسه قد عزز قيم الجمال في العالم وتحقق بها.

(١) النساء ١٢٥.

(٢) يوسف ٣.

(٣) النحل ١٢٥.

(٤) الملك ٢.

(٥) الزمر ١٨.

(٦) البقرة ١٧٨.

(٧) الأعراف ١٤٥.

(٨) البقرة ١١٢ (ويجب أن نلاحظ أن مشتقات الفعل حسن ترد في كتاب الله فيما يقرب من مئتي موضع).

ونحن نتحدث عن (العمل) الجميل، يتوجب ألا نغفل لحظة عن الصيغ الجميلة التي يقدم بها.. عن الأشكال والطرائق والأساليب التي يتحقق بها ومن خلالها.. فليس ثمة عمل معلق في الفضاء.. والنيات والأفكار التي تدور في ذهن لا تعد عملاً بحال من الأحوال ما لم تتحقق في الواقع المنظور، وتحققها هذا لن يكون إلا باعتماد أسلوب أو صيغة منظورة.. وإذا كان (الحسن) مطلوباً في العمل، فإنه مطلوب بالضرورة في الأسلوب كذلك، هنالك حيث ترتبط الجواهر بالأشكال، وحيث لا تنفصل - في المنظور الإسلامي - الأسباب عن المسببات.. والرسول الكريم ﷺ يقولها بصراحة: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»، ولن يتحقق الإتقان إلا من خلال الإحسان والتجميل للمبنى والمعنى معاً.. للعمل نفسه، وللطرائق التي يتحقق بها في الوقت ذاته!!

## ٩

مرة أخرى.. إن الإسلام واقعي حينما يسمي - حتى ما لا يرضاه - زينة أو جمالاً.. ولكنه يفرق بين الجمال الذي يقود إلى الحق، والجمال الذي يقود إلى الباطل.. بين الجمال الذي يشبع حاجات إنسانية أصيلة، وبين الجمال الذي يشبع لأجزاء وتفاريق يستدرج من خلالها الإنسان إلى مواقع القبح والرذيلة.. إن الحلال والحرام والمباح والمندوب والمكروه.. إلى آخره - في الإسلام - تنسحب على المعطيات الجمالية، كما تنسحب على أي شيء أو أية ممارسة في هذه الحياة.. فهناك الجمال الذي يدخل دائرة الحل، بل يغدو أمراً واجباً، وهناك الجمال الذي يدخل دائرة الحرمة، ويغدو أمراً مردوفاً.. وإذا كانت المذاهب الوضعية تصنف الجماليات وفق منظورها الفكري أو العقيدي، فتحبذ أنماطاً من الجمال، وترفض أخرى وإذا كانت (الماركسية) تبلغ في ذلك الحد الأقصى، فتحلل أنماطاً وتحرم

أخرى.. وتدعو إلى أصناف من الجمال، وتحارب أخرى.. فإنه في المنظور الإسلامي يجب أن نلاحظ هذا التوجه المرسوم بعناية إزاء الجمال، وألا نخلط بين أنماط الجمال كافة، ونتعامل معها كمن هو مصاب بعمى الألوان.

وإذا كان الإسلام يسمي الجميل جميلاً حتى لو نذ عن مقولاته وعن رؤيته النقية للأشياء، فهو - بالمقابل - لا يسمح بتجميل القبيح ورفعته إلى درجة المشروعية في الرؤية والتعامل والإعجاب.. لأن عملاً كهذا لا يعدو أن يكون تزيفاً للواقع، وكذباً على الحقيقة، ومحاولة لوضع الطلاء المبهرج على ما هو بطبيعته مستهجن مردول.. بل إن هذا ليقود أحياناً إلى الوقوع في الحرام، حيث يلتبس الحق بالباطل، من خلال تحول الممارسة المحرمة إلى فعل مقبول ﴿يُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللهُ زَيْنًا لَهُمْ سُوْءُ أَعْمَالِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وإنه لملمح أصيل يميز بين الجمالية الإسلامية وبين سائر المذاهب والمواقف الجمالية التي انبثقت عنها أنماط شتى من الآداب والفنون.. إن (الواقعية) و (الطبيعية) بصفة خاصة تبالغان في تجميل القبيح وإلقاء رداء الكلمة الحلوة والفن الجميل على جسده البشع.. ولشدة التأكيد على ممارسة فنية كهذه، يتجاوز القبيح دمامته في نظر الناس، ويتحول بكل ما يحمل من قيم لا أخلاقية، وتراكيب دميمة، إلى قيمة مطلوبة وشيء جميل.

إن الجمالية الإسلامية ترفض هذه الخديعة، بل تحرّمها وتقطع دابرها.. وتسم بالكذب والمروق أولئك الذين يسعون إلى تزيف الحياة، مستخدمين الأدوات الجمالية التي وهبهم الله إياها، وكان الأحرى ألا تستخدم إلا في تعزيز مواقع الجمال الأصيل، والكشف عن صيغ القبح والبشاعة لتجاوزها واستئصالها من ساحة العالم وأمداء الحياة.

والله سبحانه الذي أنقذ كل شيء... يضع قبالة المعطيات الجمالية في الكون والعالم والطبيعة والحياة، أجهزة الاستقبال التي تعرف كي تتلقاها وتعامل معها، فتنقل الإنسان إلى مراحل أكثر نضجاً واكتمالاً على مستوى السوية الفردية، والإبداع الحضاري، ويكون الجمال قد حقق وظيفته!!

إن السمع والبصر واللمس والذوق والشم... فهي تلك الأجهزة التي (تتلقى) فتنقل معطياتها إلى العقل، لكي يفرز ويمحص، وإلى القلب والوجدان، لكي تنفعل وتتأثر... ومن وراء هذا وذاك تكون الدهشة والإعجاب، ثم يكون (التعبير) الذي يبدع فيهز العقل والقلب والوجدان.

والذي يطالع كتاب الله يأخذه العجب!!

ما هذه الحشود التي تتدفق كالتيار مشيرة إلى السمع والبصر والفؤاد، مؤكدة ضرورة (تشغيلها) باستمرار، منددة بكل من يسعى إلى وقفها عن العمل أو تجميدها عن الفاعلية والتلقي؟

ولكن عجبه ما يلبث أن يزول، وأن يحظى بالقناعة الكاملة، لتردد هذا الصدى في كتاب الله من أقصاه إلى أقصاه..

فضلاً عن كون الأجهزة الحسية والعقلية تمثل واحدة من أشد صيغ الإعجاز الإلهي في الخلق (ولنتذكر - على سبيل المثال - الملايين الثلاثة من الأوتار الصوتية التي ركبت في قناة أوستاكي لتنظيم السمع وضبطه، والتركيب المذهل للعين، ذلك الذي علق عليه (دارون) بقوله: كلما تذكرت الوقت الذي فكرت فيه بتركيب العين هزتني قشعريرة، أنا لا أعتقد بعدم وجود الإله!!)..

فضلاً عن كون هذه الأجهزة وسائل لتحقيق العلاقة المتبادلة بين الإنسان وبين العالم وما يتضمنه من طاقات، ويقوم عليه من سنن ونواميس،



لكي يبني عليها الإنسان مهمته خليفة في الأرض، ويحقق وظيفته في إعمار هذا العالم وتطويره..

فضلاً عن هذا وذاك، فإن هذه الأجهزة تعمل عملها على مستوى التبادل الجمالي بين الإنسان وبين آلاء الله وآياته المبدعة المنبثة في كل مكان.. فمن خلال ذلك تحدث (الهزة) الوجدانية التي قد تفوق التفكير المجرد، وتتجاوز حدود مملكة العقل والمنطق في منح الإنسان يقيناً أعمق، وإيماناً أشد حيوية بخالق الكون البديع الجميل.

ولنطالع بعضاً من نداءات القرآن الكريم لإعمال الحواس في صفحة الكون الجميل، ولتمرينها على التواصل المستمر مع الطبيعة والعالم لكي تزيد من رصيد الإنسان على كل المستويات الإيمانية، والعملية، والجمالية:

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾<sup>(١)</sup>، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَقَى أَنْفُسَكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿فَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾<sup>(٧)</sup>، ﴿فَنَخْرِجْ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾<sup>(٨)</sup>، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا

(١) الأنعام ١٠٤.

(٢) القصص ٧٢.

(٣) الذاريات ٢١.

(٤) البقرة ١٧.

(٥) الأعراف ١٧٩.

(٦) يونس ٤٣.

(٧) هود ٢٠.

(٨) السجدة ٢٧.

يَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup>، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾<sup>(٦)</sup>، ﴿فَإَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾<sup>(٧)</sup> ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ<sup>(٨)</sup>، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(٩)</sup>، ﴿فَإِنَّمَا لَا نَعْمَىٰ الْأَبْصَرُ وَلَكِن نَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾<sup>(١٠)</sup>، ﴿يَقُلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾<sup>(١١)</sup>، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾<sup>(١٢)</sup>، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾<sup>(١٣)</sup>، ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١٤)</sup>.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾<sup>(١٥)</sup> أَنَا صَبَا الْمَاءِ صَبَا<sup>(١٦)</sup> ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا<sup>(١٧)</sup> فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا<sup>(١٨)</sup> وَعَبْنَا وَقَصَبًا<sup>(١٩)</sup> وَزَيَّنَّا وَخَلَا<sup>(٢٠)</sup> وَحَدَّاقِ عَلَا<sup>(٢١)</sup> وَفَكَهَمَ

(١) المائدة ٧١.

(٢) الأنعام ٥٠.

(٣) هود ٢٤.

(٤) الإنسان ٢.

(٥) الأنعام ١٠٤.

(٦) الإسراء ٣٦.

(٧) الملك ٤-٣.

(٨) النحل ٧٨.

(٩) الحج ٤٦.

(١٠) النور ٤٤.

(١١) الأنعام ٤٦.

(١٢) النحل ١٠٨.

(١٣) البقرة ٧.

وَأَنَّا ﴿١﴾، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣﴾﴾، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيَناها وَرَزَقَناها ﴿٤﴾﴾، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٥﴾﴾، ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى هَٰئِثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ﴿٦﴾﴾، ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴿٧﴾﴾، ﴿قُلِ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٨﴾﴾، ﴿قُلِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴿٩﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّها لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠﴾﴾.

هذا بعض ما قدمه القرآن الكريم عن حاسة البصر.. فماذا عن حاسة (السمع)؟ الضربات تتوالى بالغزارة نفسها، مؤكدة على ضرورة اعتماد هذه الحاسة للتواصل الأعظم، والأذكى مع الكون والطبيعة والحياة، وصولاً إلى حقيقة الخلق، وتفرد الخالق، والصدق المطلق للدين الذي بعث به أنبياءه الكرام، منددة بأولئك الذين لم يعرفوا كيف تقود نعمة السمع إلى المكانة التي تليق بالإنسان: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا رَبَّكُمْ فَءَامَنَّا ﴿١١﴾﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٢﴾﴾، ﴿مَنْ

(١) عبس ٢٤-٣١.

(٢) الطارق ٥-٦.

(٣) الأعراف ١٨٥.

(٤) ق ٦.

(٥) الغاشية ١٧.

(٦) الروم ٥٠.

(٧) الأنعام ٩٩.

(٨) يونس ١٠١.

(٩) العنكبوت ٢٠.

(١٠) الحجر ١٦.

(١١) آل عمران ١٩٣.

(١٢) الأنفال ٢١.

إِلَّهِ عَزَّ اللَّهُ بِأَيْتِكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ<sup>(١)</sup> ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ يَمًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَبِدَاءَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّوْتَ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾<sup>(٦)</sup> ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَعْتَمِدُ اللَّهُ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿وَنَطْعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿وَلَمْ أَعِني لَا يُصِرُّونَ بِهَا وَلَمْ يَأْمُرُوا لََّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾<sup>(٩)</sup> ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١١)</sup> ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> ﴿مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مَن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾<sup>(١٤)</sup> ﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلٌ فَأَسْمِعُوا لَهُمْ﴾<sup>(١٥)</sup> ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١٦)</sup> ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن

(١) القصص ٧١.

(٢) الملك ١٠.

(٣) البقرة ١٧١.

(٤) الأنبياء ٤٥.

(٥) البقرة ٢٠.

(٦) الأعراف ١٩٨.

(٧) الأنعام ٣٦.

(٨) الأعراف ١٠٠.

(٩) الأعراف ١٧٩.

(١٠) يونس ٦٧.

(١١) الفرقان ٤٤.

(١٢) يونس ٤٢.

(١٣) الأنبياء ٢.

(١٤) الزمر ١٨.

(١٥) الحج ٧٣.

(١٦) النحل ٧٨.

رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَحَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غُشُوةً﴾ ﴿٣﴾.

ولنتذكر الصورة القائمة التي يطرحها القرآن مراراً عن أولئك الذين يفقدون اتصالهم الحسي والعقلي الفعال بالعالم.. يفقدونه لا لأنهم لا يملكون العقول والأجهزة الحسية، ولكن لأنهم أسدلوا عليها الستائر، ولم يعرفوا كيف يحفظونها على العمل، ويصقلون قدراتها على التواصل والنفاذ، ومن ثم غدوا كما يصفهم القرآن (صماً) و(عمياناً) وأصبحوا (لا يفقهون)!! وهي درجة ليس دونها درجة!!.

## ١١

إن الإنسان المسلم يتميز بكونه يعيش الحياة بقطاعيها الباطني والخارجي بتركيز أشد.. في الباطن يحرك الإسلام كل قوى الإنسان وفاعلياته وإمكاناته الذاتية العقلية والعاطفية والروحية والوجدانية.. ويسير بها صوب استجابة مكثفة مترعة إزاء كل ما يحركها ويهزها ويدفعها إلى مزيد من (الحياة) ومن ثم مزيد من المعطيات التعبيرية، وفي الخارج يدفع الإسلام الإنسان إلى أن ينمي ويوسع متع واستجابات حواسه المختلفة عن طريق ربط هذه المتع ربطاً نفسياً وذهنياً فذاً بتجربة الإيمان الكبرى، باعتبار أن هذه الطيبات جميعاً، وتلك المعطيات الجمالية الكونية التي لا بدء لها ولا انتهاء، أمور سخرها الله سبحانه لبني آدم، وأن عليهم - إذا ما أرادوا تقدير خلق الله حق قدره - أن يتمتعوا ويشكروا، وأن ينموا علاقاتهم الحسية

(١) السجدة ٩.

(٢) الجاثية ٢٣.

(٣) البقرة ٧.

الثرة، واستجاباتهم لكل ما يحيط بهم من قوى مذخورة، ومتع طيبة، وقيم جمالية.

والحوار الذي يفتحه الإسلام بين حواس الإنسان وبين أهدافها ومطامحها القريبة والبعيدة في الخارج، تتيح لهذه الحواس، من نظر وسمع ولمس وشم وذوق، تنمية دائمة لإمكاناتها وتوسيعاً لا يتوقف لآفاق نشاطها، وتهيئة لها لأن تكون قادرة فعلاً على الاستجابة لأكبر عدد ممكن من المؤثرات، والتناغم إلى أقصى حد ممكن إزاء ما يحيط بها من أشياء، وما يناديها من قيم بثها الله في كل مكان.

ومن خلال هذا الحوار الذي يفتحه الله سبحانه بين منافذ الإنسان الحسية والكون، يبلغ أولئك الذين يملكون إحساساً عميقاً، وتوفراً متصلاً، واستجابة مترعة.. يبلغون - في إطار تجربتهم الإسلامية - حداً عالياً مما يمكن أن نسميه (الحسية الفنية أو التعبيرية) تلك التي تحيل كل واحد منهم إلى ريشة سحرية ترسم بألوانها الفذة لوحات عن العالم المدهش الذي صنعه الله سبحانه، أو قلم يحترق ناراً لا تكف اليد التي تمسك به عن الخفقان..

إن الله سبحانه - وهو أدري بخلقه - رسم للإنسان الحدود القصوى لتجربة أحاسيسه واستجاباتها: ابتداءً من الطعام والشراب والجنس، وانتهاءً بالمشاهدة والتذوق والسمع.. الحدود التي إذا قصر الإنسان عن إدراكها، أو تجاوزها إلى وراء، عرض طاقاته الحسية للضمور والانكماش، أو للتشتت والدمار، وفي كلتا الحالتين لا بد وأن تصاب الأجهزة الحسية بما يعرضها للانحراف عن تأدية دورها كاملاً في الاستجابة والتلقي عما يحيط بها من معطيات وقيم وأشياء.

أما وقد (نظم) الإسلام مجالات الحس البشري وآفاقه، فيمكننا أن نقول مطمئنين: إن الإنسان المسلم قد أتيحت له الفرصة التي لم تتح للآخرين

بهذا القدر المتوازن من الانفتاح والضغط معاً.. وقد علمه وحي الله سبحانه وهديه الطريق الذي إذا ما سار فيه يوماً فسينتهي - وقد استكملت حواسه أسبابها - إلى أن يكون وجوده وتعبيره إبداعاً متواصلاً.. وما أروع القرآن الكريم، وهو يسأل باستنكاره المؤثر سؤاله ذاك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ وما أروع - مرة أخرى - عندما يحشد ذلك العدد الكبير من الآيات يطالب فيها الإنسان أن يفتح حواسه جميعاً لتلقي المؤثرات التي بثها الله في الكون، من أجل أن (يتمتع) عباده، و(يعبروا) عن شكرهم بضروب من الفعل والقول لا تعدو أن تكون حمداً وتسييحاً.

١٢

إن جماليات الكون والعالم والطبيعة والحياة لا تقف عند حدود إحداث الهزة الروحية والوجدانية في نفس (الأديب) أو (الفنان) عموماً فحسب، وتجعله يكتفي بالدهشة والإعجاب، ولكنها تدفعه دفعاً إلى تحويل تأمله وإدراكه وعيانه السلبي إلى فعل وحركة وجهد وإبداع.. فليس في تصور الفنان المسلم ثنائية أو ازدواج بين فن العيان والحدس السلبي، أو المشاركة الوجدانية في العالم، وبين فن الأداء والعمل والصناعة والإبداع.. لأن تلك خطوة إلى هذه، وهذه نتيجة محتمة لتلك. فمن ذا يستطيع أن يقول أن هزة الفرح أو الأسى التي تبعثها الطبيعة في نفس الإنسان ستظل محتبسة في جوانحه، وأنه سوف لا يحيلها إلى هذا النمط أو ذاك من الإبداع؟ أبداً.. إن هنالك ارتباطاً عضوياً باطنياً بين التقبل السالب للمؤثرات الطبيعية والكونية، التقبل الذي يتحقق عن طريق الحدس والتأمل والاستغراق، وبين التعبير الفعال عن معطيات ذلك التقبل الحدسي الهادئ العميق.

إن في أعماق كل فنان ما يمكن أن نسميه تقابلاً متغماً بين الهدوء والحركة، بين السلب والإيجاب بين الأخذ والعطاء، وبين التقبل والتعبير..

إن أعماق الفنان كالبحر الذي يضم في اللحظة الواحدة، هدوءاً حالماً وتمخضاً مخيفاً.. كالسيمفونية التي تحتوي على نغمتين متناقضتين، لكنهما في المدى البعيد متوافقتان موحدتان.. كالأضواء والظلال.. كالعتمة والنور.. إن أعماق الفنان، أو تكوينه الفذ، هما هكذا.. ومن ثم فإن أغلب الذين عاينوا الطبيعة والكون، وتأملوا فيهما، وحدسوهما، وتقبلوا عنهما الكثير من المعطيات.. عادوا فعبروا عن هذا كله بفنون من الإبداع لا تعد ولا تحصى.

وهنا نلاحظ أن العبادة في الإسلام يمكن أن تمتد لكي تحتضن كل مشاركة وجدانية مؤمنة في نسيج الإبداع الإلهي وفي العالم والكون. إن الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> تبين لنا كيف أن تأملهم وتمعنهم في الكون دفعهم، بعفوية وانسجام إلى أن يصلوا لله، وأن صلاتهم - بالمقابل - دفعتهم - بالعفوية والانسجام نفسه - إلى التفكير في خلق السموات والأرض للإيغال في سرها المعجز.. هذا يقود - بالضرورة - إلى ذاك.. التفكير في إبداعية الخلق الإلهي.. والصلاة التي تتوجه بالشكر والامتنان للخالق المبدع سبحانه.. والقلة القلة هم أولئك الذين كتبوا جوانحهم على ما تقبلوه عن عيائهم للطبيعة والعالم، فلم يصلوا للمنعم الذي أعطاهم هذا كله، ولم يتوجهوا إليه بالحمد والثناء، أو يحكوا للناس، بقوة الكلمة الجميلة، عن رحلتهم المؤثرة عبر المسالك الكونية التي قادهم إليها التأمل والعيان.

إن ما يقوله الفيلسوفان برغسون Bergson وشبنهور A.Schopenhauer رائع وجميل، لولا وقوفهما عند شطآن التقبل السلبي للطبيعة والعالم، والاندماج الصوفي في صورهما وأشكالهما وبحرهما العميق «فلو تهياً



للنفس - يقول برغسون - ألا تتعلق بالفعل بأي إدراك حسي من إدراكاتها، لكننا بإزاء نفس فنانة، لم يشهد لها العالم نظيراً من قبل. . (نفس) ترى الأشياء جميعها في صفاتها الأصلي، وتذكر أشكال العالم المادي وألوانه وأصواته كما تدرك أدق حركات الحياة الباطنة<sup>(١)</sup>، فليس الفنان في نظر برغسون بالرجل المبدع الذي يضع بين أيدينا منتجات خياله ومستحدثات ابتكاره، بل هو إنسان نافذ البصر، عميق الحدس، حاد البصيرة، يملك قدرة هائلة على إدراك ما يفوتنا في العادة إدراكه لأننا مشغولون بالعمل والتصرف، على حين أنه مستغرق في النظر والتأمل<sup>(٢)</sup>.

وما يقوله فيلسوف التربية الأمريكي جون ديوي Dewey رائع ومقبول لولا إلحاحه على ربط معطيات الفن بخبرات الناس العملية (البراغماتية) وبتجاربهم النفعية: «إن الإدراك الحسي المتسامي إلى درجة النشوة، أو إن شئت فقل التقدير الجمالي لهو في طبيعته كأي تلذذ آخر، نتذوق بمقتضاه أي موضوع عادي من موضوعات الحياة الاستهلاكية، فهو ثمرة لضرب من المهارة، أو الذكاء في طريقة تعاملنا مع الأشياء الطبيعية، بحيث نتمكن من زيادة ضروب الإشباع التي تحققها لنا تلك الأشياء تلقائياً، فنجعلها أشد وأنقى وأطول. . إن العنصر الجمالي - كما يقول ديوي - ليس عنصراً دخيلاً على التجربة البشرية، وكأنما هو مجرد أثر من آثار الترف أو الكسل أو اللهو أو الحدس أو المشاركة الصوفية أو التسامي الأخلاقي، بل هو مجرد ترقُّ (أظهر وأوضح) لتلك السمات التي تميز كل خبرة سوية مكتملة»<sup>(٣)</sup>.

وما يقوله ناقد الجمال المعاصران آلان Alian وبابير R.Bayer منطقي وورسين، لولا أن تأكيدهما المطلق على اعتبار الفن عملاً وجهداً وتكنيكاً

(١) د. زكريا إبراهيم: برجسون ص ٢٨٤ (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٦).

(٢) د. زكريا إبراهيم: مشكلة الفن ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) نفسه ص ٢٢٧.

وصنعة، وصراعاً ضد المادة، واستقلالاً أستطيقياً لدى مشاهدة العمل الفني وتذوقه، دفعهما إلى تناسي وإهمال الخلفيات التي يقوم عليها بناء العمل الفني وتذوقه، سواء كانت تلك الخلفيات في وجدان الإنسان أم في أعمال الطبيعة الفنانة «إن اهتمام الفنان - كما يقرر آلان - ليس منصرفاً في العادة إلى انفعالاته وعواطفه، بل هو منصرف أولاً وقبل كل شيء إلى (الموضوع) نفسه، وحتى إذا نسبنا إلى الفنان صفة (التأمل) فلا بد من أن نتذكر أن تأمله هو ملاحظة observation أكثر مما هو حلم يقظة Reverie، والحق أن الفنان يتأمل ما صنعه يده حتى يجد فيه مصدراً لما سوف يعمل على تحقيقه، وقاعدة لما سوف يقدم على عمله، ولهذا فإن الحرية الفنية لا بد من تقوم على دعامة من النظام المادي الصارم، وإلا فإنها لن تكون إلا فوضى خاوية لا معنى لها على الإطلاق! وقد يستسلم الفنان للإلهام، أو قد يقتصر على الخضوع لطبيعته الخاصة، ولكن مقاومة المادة، سرعان ما تجيء فتعصمه من الارتجال الأجوف، وتنقذه من التقلبات النفسية العارضة.. وعلى حين أن المخيلة المتسكعة لا تعرف سوى الأمل أو التمني أو الرجاء، نجد أن اليد الصانعة هي التي تقدم على (التنفيذ) فتصطدم بعوائق المادة، وتحاول في الوقت نفسه الإنصات إلى نداء (الموضوع)<sup>(١)</sup>.

الفنان في نظر آلان: صانع Artisan قبل أن يكون فناناً Artiste ومعنى هذا أن الفن ليس حلماً وتأملاً وتصورات فارغة، بل هو صناعة وتحقيق وتنفيذ.. ويمضي (آلان) إلى أبعد من ذلك، فيقرر أنه ليس لدى الفنان أفكار سابقة محددة، وإنما تجيئه (الأفكار) كلما أوغل في الإنتاج والعمل، إن لم نقل بأن هذه (الأفكار) نفسها لا تصبح واضحة محددة، اللهم إلا بعد أن يكون (العمل الفني) قد اكتمل<sup>(٢)</sup>. أما (بايير) فيؤكد على أن العمل الفني

(١) فلسفة الفن ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) نفسه ص ١٣٥.

«إنما هو (الموضوع الجمالي) الذي لا بد للعالم الاستطقي من أن يدرسه بوصفه شيئاً محسوساً واضحاً، وهنا لا يعتد إلا بما يترك أثراً، فلا يعد أي تعليق فني أستطقياً اللهم إلا إذا كان في وسعنا أن نلمس من ورائه عملية واقعية من عمليات الفنان، ومعنى هذا أن الفكرة التي لا تترك أثراً Trace ليست موجودة على الإطلاق، إذ إن من شأن كل حركة يقوم بها الفنان أن تتسجل على شكل (تأثير حسي) Effect Sensible وهذا الأثر هو المظهر الجمالي الأوحده الذي لا بد للعالم الأستطيقا أن يعمل له ألف حساب.

ومهما أمعن دعاة الصوفية والسلبية والتعمية في الحديث عن الحدس والإشراق والمشاهدة، فإن الموضوع الجمالي لا بد من أن يتحقق على شكل أثر فني، لأن الجميل لا يوجد إلا متحققاً.

وعبثاً يحاول بعض الفلاسفة أن يخلطوا بين الفن والتأمل الفلسفي، فإن سحر العمل الفني، الذي هو في صميمه ضربة قاضية على العدم، لا بد من أن يجيء فيكذب دعوى مثل هذه الأستطيقا السلبية الخالصة. . حقاً إن البعض قد يظن أنه ليس في (الموضوع الجمالي) سوى ما تنسبه إليه العين، وما يخلعه عليه الخيال، وما تضيفه عليه الذات، ولكن مهمة عالم الجمال أن يبين لنا كيف أن (الذات) ليست هي كل شيء في الحكم (الجمالي)، وكيف أن شيئاً يظل خارجاً عن الذات، إلا وهو ما في الموضوع الجمالي نفسه من توازن في صميم (بنائه الأستطقي). .

وقد نتوهم أن ثمة قوى غريبة في النفس، أو مناطق مظلمة في أعماق الذات، هي التي تحدد الصبغة الجمالية الخاصة بشتى حالاتنا النفسية، ولكن الحقيقة أن ما يحددها إنما هو (الشيء) المتأمل نفسه، بوصفه حاوياً في صميم ذاتيته لقانونه الخاص، الذي يتكفل بتفسير شتى مظاهره Aspects<sup>(١)</sup>.

(١) نفسه مقتطفات ص ٣٥٧-٣٥٨، ٣٦٠.

وهكذا، فأينما ذهبنا باحثين عن مذاهب الغربيين في الآداب والفنون، أو طرائقهم في الفكر والحياة، فإننا لا بد وأن نعثر على نوع من الثنائية، أو التقسيم التعسفي للإنسان والعالم.. وكأن تجربة آبائهم وأجدادهم إزاء الكون والطبيعة والعالم ألزمتهم بعبارة: «إما هذا أو ذاك!!» لأن الإنسان والطبيعة، الروح والمادة، الفكر والوجدان، التأمل والعمل، السكون والحركة، الاندماج والانفصال، التقبل والصراع. هي كلها وحدة واحدة، تسيرها نواميس واحدة، وتشرف عليها من أقطارها الأربعة إرادة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى..

إن تصور الفنان (المسلم) للفن، وموقفه من الطبيعة والكون ينبثق عن هذه القاعدة الكبيرة التي أتيح للإنسان والعالم أن يتحركا على مسرحها ذي الأبعاد اللامرئية.. الوحدة التي تضم كل الجزئيات والتناقضات الظاهرية والقيم المتعارضة في كيان واحد متماسك، أو عالم متناغم جميل. إن الأديان جميعاً جاءت لكي تشير إلى أن الإنسان - عالماً كان أم فناناً - وجب أن يسعى من أجل هذا المصير المتفرد: الوحدة والتوافق بين الإنسان والعالم والطبيعة والكون.. الوحدة التي ترفض الذوبان السالب والفناء، كما ترفض في الوقت نفسه التمزق والتبعثر والازدواج والعصيان. ومن ثم يجيء موقف الفنان المسلم من الطبيعة والكون حلقة رائعة من حلقات الكفاح البشري من أجل المصير. ذلك المصير الذي يضم جناحيه على كل القيم والخلائق والناوالميس، ويحركها جميعاً صوب الله والخلود.. كما يعطي الإنسان، في الوقت ذاته، إمكانات سعادته وتوحده وانسجابه مع ما يحيط به من أشياء وموجودات.

إننا لو تتبعنا مواقف الفن الإسلامي من الطبيعة والكون، في تاريخه الطويل، فإننا سنجد دوماً يعود - بعد تأرجح بين الفناء والانشقاق - إلى مجراه الأصيل صوب مصيره، على يد أولئك الفنانين، والأدباء الذين

أدركوا بعمق التصور الشامل المتوازن الذي يجب أن تصدر عنه معطيات الإنسان ومواقفه الفنية.

١٣

لا ريب أن التوتر الباطني يعد من العوامل الفعالة في نشوء التجربة والدافع للتعبير، التوتر الذي ينشأ عن الألم الذي ينبثق بدوره عن عدم الانسجام بين الإنسان والعالم، هذا التوتر الذي قد يدفع إلى (اللا انتماء) والذي قدم لتاريخ الآداب والفنون شخصيات على قدر كبير من الإبداع.. فهل يعني هذا أن أي نظام يحاول إزالة عدم الانسجام بين الإنسان والعالم سوف يقضي على عامل من أشد عوامل التوتر حيوية، ومن ثم يقلص الأعمال التعبيرية عمقاً ومساحة وعدداً، أو يجعلها على الأقل تفقد بعض أبعادها؟ هل أن الإسلام بتنظيمه الفذ لنسيج العلاقات بين الإنسان والله والطبيعة والمجتمع، قد قضى إلى الأبد على مأساة سوء التفاهم بين أطراف هذا النسيج، ومن ثم قضى على آلامه وتوتره وعذابه، الذي يشكل النبع الثر لمعطياته التعبيرية؟

الجواب هو النفي.. لأن الإسلام بقضائه على سوء التفاهم هذا.. الانفصال المحزن بين الإنسان والعالم، الكراهية، الضغط المسلط على الإنسان من خارج، قد قضى على عوامل السلب في وجود الإنسان المسلم، ومن ثم فتح الطريق أمامه - بعد أن حقق الوئام بينه وبين العالم - إلى أن يترك أبواباً أخرى، ويجتاز دروباً جديدة، ويتطلع ببصره النافذ إلى آفاق أبعد، ومساحات أرحب، ويعمق برؤيته التي فتحت أمامها الأبواب الموصدة مدى تجربته، ويزيد بشوقه العارم إلى الخالق والعالم والمجتمع تدفق مجاري وجدانه، ويفجر في أعماقه مئات من الينابيع الجديدة التي تنساب حباً وشوقاً وحناناً..

لقد قضى الإسلام على التوتر بصيغه التي قد تؤثر على السوية النفسية، وتقودها إلى الدمار، ولكنه خلق في أعماق المؤمنين توتراً من نوع جديد، يعرف هدفه معرفة يقينية.. ووضع أمامه غايات وأهدافاً تثير وجوده، وتبعث التوتر في كيانه.. وهذه الأهداف والغايات بعضها قريب يستريح إليه المتعبون سريعاً، وأخرى في منتصف الطريق لمن يستطيع أن يسير طويلاً.. وثالثة في المدى البعيد، وراء مجالات الرؤية المباشرة والحركة المحدودة بإطارات الزمان والمكان.. الطريق الذي ما قطعه إلى نهايته إلا نفر معدود، امتلكوا من التوتر الخلاق أقصاه، ومن الإرادة حدها الأبعد، ومن الشوق واليقين أعماقهما البعيدة.. فجاء تعبيرهم روائع خالدة في معطيات حضارة الإسلام.

فأية عقيدة أو رؤية للعالم والكون غير الإسلام، يمكن أن تهب الإنسان هذا الشوق والحب، وتبعث في أعماقه التوتر وتفجر في وجدانه التواجد والحنان؟

وإذاً فإن إزالة المرارة التي يحسها الإنسان في علاقاته بالعالم من خلال تمزق النسيج، وضرب النول على غير هدى، لن يفقد (المتحمي المسلم) الدافع الإبداعي للتعبير، بقدر ما يزيل عن طريقه الالتواءات والمنعطفات التي تحجب عنه الرؤية الشاملة، وتردم في أعماقه منابع الرغبة في الحركة الدائبة التي لا تستسلم للسكون.

هذا إلى أن الرؤية الإسلامية، بما أنها تبصير حيوي للإنسان بطبيعة وجوده في الكون، وأبعاد هذا الوجود، وحدود الحياة الدنيا، وزوال هذه الحياة، وكونها الفرصة الوحيدة التي أتيحت للإنسان لصياغة مصيره وتحقيق الانسجام بين مصيره وبين متطلبات وجوده الملحة.. تفجر في وجدان الفنان المسلم - أكثر من غيره - شعوراً حاداً بالزمن، وتدفعه إلى مزيد من

(التعبير) باعتباره عملاً يتقرب به إلى الله تعالى على الطريقة الإسلامية المتوحدة: يستجيب بالتعبير لمتطلبات ودوافع وجوده الحساس من جهة، ويصوغ مصيره من جهة أخرى.. فليس ثمة ازدواج وثنائية بين الوجود والمصير في الإسلام، أي بين دوافع الحياة الدنيا وأهداف الإنسان في الحياة الأخرى، وليس كالتعبير الإبداعي الذاتي (المسموع أو المقروء أو المنظور) جمعاً لهذا التوافق الفذ بين الوجود والمصير، لأنه ليس سوى انبثاق عفوي عن النفس المؤمنة، والبصيرة المسلمة، والوجود التواق إلى الله.. انبثاق يؤدي بتوحيد رائع هدفين اثنين: الاستجابة لحاجة الفنان الملحة إلى التعبير، والتقرب إلى الله.. لأن هذه الاستجابة بذاتها - كما مر بنا - ليست سوى حمد وتسييح للخلاق الذي أتاح للإنسان هذه المساحات التي لا تحدّها حدود من (الحوار) بين صفتين من خلائق الله: صف الطاقات الإنسانية العقلية والروحية والجسدية والعاطفية والوجدانية، وصف الصنائع الكونية والطبيعية التي وضعت لكي تستثير في الإنسان النداء، وتدفعه إلى التساؤل وتفتح منافذه تلك على ما يحيط به من ظواهر وأشياء.

#### ١٤

هل أن الأدب، والفن عموماً.. انعكاس للموضوع على الذات؟ أم أنه انعكاس للذات على الموضوع.. أي على العالم؟  
المذاهب المادية - وعلى رأسها الماركسية - اللينينية تقول بالأولى..  
والمذاهب المثالية تقول بالثانية..  
وكلاهما يقعان في مظنة الخطأ، من حيث إنهما يضعان نفسيهما في أسر النظرة أحادية الجانب، ويتشبثان بها، ويتشنان عليها..

وتلك هي، كما ذكرنا في أكثر من مكان، أزمة الفكر والمنهج الغربيين.. إنهم كانوا قد اتهموا العقل الشرقي - يوماً - بالتجزئ والتبعض

وعدم القدرة على الإدراك الشمولي والتصور الكلي ولم الجزيئات النوعية المبعثرة في كيان واحد.. ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر - أكثر وقوعاً في مظنة التجزيء هذه، وتجاوز النظرة الشمولية التي تحمل قدرة أكبر على الاستشراف الموضوعي وصولاً إلى الحقيقة.

إما هذا أو ذاك.. وكان ليس هناك بديل لهذه القاعدة التي تفرق ولا تجمع، وتعدد ولا توحد.. بينما البديل واضح بين: هذا وذاك، حيث تعاین الظواهر من جوانبها جميعاً، وتلم الحقائق بعضها إلى بعض، وتشمل النظرة الأطراف جميعاً..

والرؤية المادية للجمال تصل بنا في بعض التحليلات الصارمة إلى طرح نظرية في الميكانيك.. بينما تنجح الرؤية المثالية - أحياناً - فتطرح نظرية في التصوف والتحضير الروحي !!

فالإنسان بحواسه وعقله وروحه وطاقاته النفسية والعصبية ونزعاته الوجدانية والعاطفية ليس مرآة صقيلة، تعكس ما يأتيها من الخارج بكل بساطة وأمانة! إنه يتلقى عن العالم، عن الموضوع، ما يمكن اعتباره مادة أولية، ولكنه بالإمكانات التي وهب الله إياها يعيد تركيبها وصياغتها من جديد، و(يضيف) إليها.. نعم.. يضيف إليها بكل تأكيد ما يجعلها شيئاً جديداً..

لقد مارست المادية تبسيطاً أكثر مما يجب في تحليلها لعلاقة الذات بالموضوع، الأمر الذي ينسحب على النشاط الجمالي، فيجعل معطياتها في هذا الجانب أيضاً تعاني من التسطح وعدم الإقناع، رغم أنها تحاول أن تلقي التهمة نفسها على الجانب الآخر الذي تسميه الجانب البورجوازي..

إننا نقرأ في كتاب «موجز تاريخ النظريات الجمالية» هذا المقطع الذي تتردد نبرته في جل الأعمال النقدية التي صدرت عن المؤلفين الماركسيين، تلك النبذة التي توحى خطأ بأن الماركسية هي التي تمكنت من حل كافة



المعضلات المتعلقة بالمسألة الجمالية، بينما عجزت كافة المحاولات السابقة واللاحقة عن أداء المهمة..

«لقد بقيت أهم مسائل علم الجمال، ونظرية تاريخ الأدب والفن، قبل ماركس، معضلات بدون حل، فلم يستطع منظرو ومؤرخو الفن مثلاً توضيح لماذا يصل الفن أوج ازدهاره في هذه الفترة المحددة من التاريخ، بينما في فترات أخرى يكون في الحضيض؟ ولماذا تحل هذه الاتجاهات والأساليب الفنية محل تلك، وأين يكمن السبب الذي يجعل الفن يتغير على مستويين هما المحتوى والشكل؟ لأنهم نظروا إلى كل هذه الظواهر بمعزل عن الأسس الاقتصادية، وبمعزل عن الوجود الاجتماعي للناس، ويجب القول بأن علم الجمال البورجوازي المعاصر قد وصل إلى طريق مسدود، لأنه يحاول أن يفسر الفن انطلاقاً من القوانين الداخلية لتطوره فقط، ومهملاً علاقته بحياة الناس الاجتماعية. إن سلوك طريقة دراسة القوانين الداخلية المحضة لتطور الفن قد أوصل علم الجمال البورجوازي المعاصر إلى نتائج ذاتية، وإلى إنكار علني لقوانين تطور الفن الموضوعية، وهناك حيث ينتفي وجود القوانين الموضوعية تحل الأساطير وما شابهها من ترهات وصوفية محل العلم، ولقد أشار ماركس في (الأيديولوجية الألمانية) إلى أن الوعي لا يمكن إلا أن يكون الإدراك عن طريق الوجود، وبما أن الفن هو واحد من أشكال الوعي الاجتماعي، فإنه يجب البحث عن أسباب جميع تغيراته في الوجود الاجتماعي للناس، أي في القاعدة الاقتصادية للمجتمع، وهذه القاعدة لا تبقى ثابتة في مكانها»<sup>(١)</sup>.

في الطرف الآخر نقرأ لجان ماري جويو، فيلسوف الجمال الفرنسي الشهير، في كتابه «مسائل الفن المعاصرة» ما يمكن اعتباره نقيضاً للمقولة

(١) أوفسيانكوف وسمير نوبا - موجز تاريخ النظريات الجمالية ص ٤٢٩-٤٣٠.

الماركسية آنفة الذكر.. إنه ينطلق في تفسير العملية الإبداعية من الداخل، حيث تعجز البيئة والعلاقات الإنتاجية، والظروف الاقتصادية، والتركيب الاجتماعي عموماً، عن منحنا التفسير المقنع «ليس من الممكن - يقول جويو - أن يصبح الفن مسألة علم محض، لأنه نوع من الخلق، والعلم بالشيء غير خلق الشيء، ولا يمكن أن يحل العقل هنا محل الغريزة كما يحدث عند أولئك الأطفال الرياضيين، فوظائف الغريزة والعقل هنا متباينة كل التباين، فلا يمكن أن تتبادل الأعمال، ثم إن العلم نفسه لا يمكن أن يستغني عن العبقرية: إن سير الفكر لا يخلو من شيء من الغريزة واللاشعور حين يكون موضوعه غير محدد مقدماً، وهذا حال العلم في جزئه الأسمى، إنه في هذا الجزء الأسمى كالفن لا يعيش إلا بالاكتشاف المستمر، إنها ملكة واحدة تلك التي ألهمت نيوتن قوانين الكواكب، وألهمت شكسبير القوانين النفسية التي تخضع لها طباع أناس كهملت وعطيل، العالم كالشاعر يحتاج إلى أن يضع نفسه في موضع الطبيعة بالفكر، ويحتاج لكي يعرف كيف تعمل الطبيعة، إلى أن يتصور كيف يمكن أن تعمل لو غيرت ظروف عملها، ففن الشاعر والعالم كليهما هو أن يضعاً موجودات الطبيعة في ظروف جديدة، كشخصيات فاعلة، فكأنهما يجددان الطبيعة، ويخلقانها مرة أخرى على قدر الإمكان.. إن العلم يتصرف بإزاء المجهول تصرف الشعر في كثير من الوجوه، وإنه ليقضي نفس الغريزة الخلاقة التي يقتضيها الشعر..

ويمضي جويو إلى القول: «لقد أفرد تين الناقد الفرنسي - وهو أحد الأنصار المتطرفين لنظرية البيئات - أفرد كل كتابه تقريباً «فلسفة الفن» لتحليل الشروط التي يمكن أن تظهر فيها آثار أمثال رافائيل درينس، وكانت أهم هذه الشروط أخيراً هي العبقرية، والعبقرية يمكن أن توجد في أزمنة وأمكنة مختلفة أشد الاختلاف.. لماذا أنجبت هولندا عدداً من عظام الرسامين، وهي ما عرفنا بلد خشن وأجسام بدنية تخفيها ثياب ثقيلة وأذواق ليست على

جانب عظيم من الرهافة، بلد هو نقيض اليونان وحتى إيطاليا؟ ولماذا أتيح للفلاندر وحدها دون غيرها من دوقية برجونيا القديمة أن تحب الرسم في حين أن الرخاء التجاري والحفلات والأبهة والتجمل كانت شائعة هي نفسها في جزء كبير من الدوقية؟ لماذا أنجب الإسبانيون - هذا الشعب الذي يتصف بالصلابة وضيق الفكر - رسامين عظاماً بينهم رسام كموريلو - هذا الصوفي الذي كان كمن يرعبه العري -؟ هذه المسائل كلها لا يمكن أن تحل ما لم ندخل عامل العبقرية، (التي تهب أين تشاء) والتي قد تهب علينا مرة أخرى في يوم من الأيام.. لقد استطاع تين أن يشرح لنا (كيف) أن الرسم الإيطالي أو الفلاندري على النحو الذي كان عليه، بعد أن توفرت له العبقرية، ولكنه لا يقول (لماذا) كان ما كان. فالمسألة هنا ليست مسألة بيئة بل مسألة فطرة، مسألة ميول ورائية أوجدتها وأنمتها سلسلة من الأسباب المجهولة، هي من التعقيد بحيث لا يستطيع أن يحللها العلم، وهذه الأسباب المجهولة التي أثرت في شعب من الشعوب في لحظة معينة، ثم أثرت في أفراد ممتازين على وجه الخصوص، لا شيء يجعلنا نتنبأ بأنها لن تؤثر في شعب آخر في عصور أخرى.. وأكثر من هذا أن العباقرة يولدون مختصين: إنهم يخضعون لقانون داخلي يحدد اتجاههم<sup>(١)</sup>.

وقد ناقشنا في غير هذا المكان عناصر الخلل والاضطراب في المنظور المادي الذي مر بنا قبل قليل استناداً إلى معطيات العلماء التجريبيين؛ الذين أكدوا صعوبة فهم العملية العقلية، وطريقة تعاملها مع العالم، بل استحالتها أحياناً.. فليس في مقدور فيلسوف ورجل اقتصاد كماركس أو أنغلز، لم يدخلوا المختبر يوماً، أن يقطعا بما تردد العلم في القطع به، بل أعلن عجزه عنه: الطريقة التي تتعامل بها الذات مع العالم<sup>(٢)</sup>.

(١) جويو: مسائل الفن المعاصر ص ١٣٦-١٣٨.

(٢) انظر كتاب (العلم في مواجهة المادية) للمؤلف.

أما الموقف الآخر في تفسير النشاط الجمالي فيبعد عن خبرات العالم ومعطياته ويركز اهتمامه في ذات الإنسان.. هنالك حيث تطرح تفاصيل وصيغ عديدة لتفسير التألق الجمالي الذي يتميز به إنسان ما من دون مئات بل ألوف الناس.

وتلعب نظريات علم النفس دورها الواسع في هذا المجال، من خلال التأثيرات الوراثية والبيئية في تكوين الأديب أو الفنان، ولكن بعض التفاسير (الذاتية) تتجاوز - أحياناً - معطيات علم النفس، لكي تتجنى باتجاه الألغاز والمعميات غير المحددة علمياً كالإلهام والنبوءة والحاسة السادسة أو السابعة، والانجذاب الروحي.. إلى آخره.. الأمر الذي أعطى للمادية سلاحها ذاك، فنعت على أصحاب هذه التفاسير مثالياتهم وضبابيتهم واتهمتهم باللاعلمية.

وليس بمقدور أحد أن ينكر التعقيد الكبير الذي يلف النفس البشرية، والطبقات العديدة في تركيبها، وطبيعة عملها المتشعب، ودور الطاقات ما وراء الحسية أو ما وراء العقلية في النشاط الجمالي.. هنالك قوة الخيال الفائقة، وهنالك الحدس والاستلهام، هنالك - يقيناً - طاقات روحية أخرى (إضافية) تزيد من فاعلية الحواس، وتمنح العقل قدرة أكبر على الرؤية والشفافية.

ولكن المبالغة في الاتكاء على هذه القدرات الإضافية في تفسير النشاط الجمالي، وإهمال الدور الذي تلعبه المعطيات الموضوعية، يقود إلى خطأ لا يقل بعداً عن الحق، عن ذلك الخطأ الذي تسوق إليه المادية بإنكار قدرات الإنسان الباطنية هذه.

إن المنظور الإسلامي يرفض تفسير القدرة الفنية تفسيراً سحرياً، أو خرافياً، ولكنه يرفض في الوقت نفسه تحجيم الطاقة البشرية، وردها إلى أصول مادية وحسية صرفة.. لا ريب أن هنالك على مساحة الفطرة والنفس البشريتين،

طاقات وأصولاً تند عن المادية الحسية، ويجب أن تأخذ مكانها في تفسير القدرات الفنية، وخاصة إذا كان الفنان شفافاً إلى درجة غير اعتيادية.

كذلك بما أن الإسلام يرفض الادعاء بالغيب، أو رؤيته، فإنه بالتالي يتوجب رسم حدود معينة تقف فيها قدرات الفنان عن التنبؤ، وهنا نلتقي مع توجه عدد من المذاهب الوضعية الحديثة في رفض منح الفنان طاقات خارقة، تفوق وجوده الذاتي والاجتماعي بكثير.

إن الحل في نهاية الأمر واضح قريب: أن نجتمع الموضوع إلى الذات، وأن نقيم البرهان من معطياتهما معاً. . ألا ننشج تجاه هذا الاتجاه أو ذاك، وألا نعزل مساحات التجربة الجمالية بأسلاك شائكة من أوهامنا وغرورنا. . الإنسان في العالم، والعالم في الإنسان. . ومن خلال هذا التقابل الثنائي نتحقق الأعاجيب، وتخلق الآداب والفنون، وتنضج الأفكار. .

إن القرآن الكريم، بتأكيده المتزايد على العقل والحواس، فيما أشرنا إليه من قبل، إنما يمنح العالم، الموضوع، مساحته الحقيقية الكبيرة في النشاط الجمالي. . وهو - في المقابل - يمنح الذات المساحة نفسها. . فإن الإنسان، هذا الكائن الفذ المتفرد ليردد دوره في القرآن، وتسלט عليه الأضواء من كل مكان. . ثم - وهذا هو الأهم - هنالك قوة الروح، تلك المسلمة الدينية التي يمكن أن تكون مفتاح كل معضلة، والتي تهب العقل والحواس تلك القدرات الفائقة على الفعل والرؤية والتنفيذ.

إنها قوة الحياة التي يصعب إدراك كنهها وطبيعة عملها. . إن القرآن الكريم يتحدث عنها حقيقة مسلمة. . ولكنه لا يصفها ولا يحكي لنا عن طرائق عملها. . حتى إن الرسول ﷺ عندما يسأل عنها يكون جواب القرآن ﴿وَسَيَلْوَنكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(١)</sup>.

في الرؤية الإسلامية للنشاط الجمالي تقف الحواس والعقل والجسد جنباً إلى جنب، لكي تصنع الجمال وتفسره.. ويقف العالم بمعطياته الموضوعية لكي يصنع الجمال ويفسره.. ومن وراء هذا وذاك تقف الروح.. تلك الشعلة المتوهجة والمصدر الأساسي لقوة الحياة والعقل والحس والإرادة، لكي تشد هذا كله بعضه إلى بعض، ولكي تمنحنا تفسيراً مقنعاً للنشاط الذي عجزت سائر الخلائق الأدنى مرتبة عن الإتيان بمثله.. وتفرد به الإنسان!!.





# الفصل الثاني

## العناصر الأساسية

## ١

يمكن تعريف (الأدب الإسلامي) بإيجاز بالغ بأنه (تعبير جمالي مؤثر بالكلمة عن التصور الإسلامي للوجود). . . وستكون التجربة الإسلامية المنبثقة عن التصور الإسلامي مندرجة ضمناً في سياق هذا التعريف.

فنحن إذاً إزاء ركنين أساسيين، يتضمن كل منهما عناصر فرعية.

أولاً: التعبير الجمالي المؤثر بالكلمة. . . ولا بد - إذاً - أن يتحقق التعبير بالكلمة، وليس بأداة أخرى، وأن يملك جماليته الخاصة، وقدرته في الوقت نفسه على التأثير. . . على توصيل الشحنة الفنية إلى الآخرين، وإحداث الهزة المرجوة فيهم.

ثانياً: التصور الإسلامي للوجود. . . ولا بد - إذاً - أن يملك الأديب المسلم فلسفة، أو تصوراً، أو موقفاً شمولياً إزاء الكون والحياة والإنسان، وأن ينبثق هذا التصور، الذي يطبع التجربة الذاتية طويلاً وعرضاً وعمقاً، عن الإسلام المتميز، المتفرد، المبين. . .

وأي إغفال لواحد من هذين الركنين، وأي تجاهل لإحدى العناصر الفرعية التي يتضمنانها سوف يخرج بالعمل الأدبي - ولا ريب - عن كونه أدباً إسلامياً. إننا حينذاك سوف نلتقي بشروح (غير فنية) لهذا الجانب أو ذاك من الإسلام تصوراً أو سلوكاً (أي تجربة)، وهذا ليس أدباً إسلامياً بحال من الأحوال. وقد نلتقي بعرض فني جميل مؤثر، لكنه لا يصدر عن التصور الإسلامي، ولا يمس من قريب أو بعيد، فهو ليس أدباً إسلامياً بحال من الأحوال. وقد نلتقي بعمل يتضمن قدراً من المعطيات الجمالية المؤثرة بأداة أخرى غير الكلمة، كالريشة أو الآلة الموسيقية أو الإزميل، فهو - أيضاً - ليس أدباً إسلامياً، ولكنه قد يكون فناً إسلامياً. . . وقد نلتقي



بتعبير جميل عن الإسلام، ولكنه لا يملك القدرة على التوصيل أو التأثير، لأنه لا يتجاوز الشكل إلى المضمون، ولا يعدو أن يكون زخرفاً من القول، وليس أدباً إسلامياً.

ولا بد من وجود الركنين بكل عناصرهما الفرعية، لكي يتحقق مفهوم (الأدب الإسلامي).. لا بد من تحقق القدرة الإبداعية لدى الأديب المسلم من جهة.. ونقاء التصور الإسلامي وهيمنته على ما يصدر عنه فكراً وعملاً.. من جهة أخرى.

فأما الشرط الثاني فأمره واضح معروف.. وأما الشرط الأول فيحتاج إلى وقفة قصيرة، لأن كثيراً من (حملة القلم) الإسلامي يريدون أن يكونوا أدباء إسلاميين دون أن يملكو الحد الأدنى على الأقل من متطلبات هذا الشرط الأساسي.

## ٢

والقدرة الإبداعية ليست صيداً سهلاً، وأمرأً بسيطاً، ولكنها مسألة صعبة مركبة تتضمن أكثر من عنصر، معقدة شديدة التعقيد.. وهي ليست من المطالب التي يتمناها هذا الإنسان أو ذاك، فيحظى بها كما يشتهي ويريد..

إن المكونات الوراثية ذات الجذور البعيدة، والتأثيرات البيئية المحددة التي تمتد إلى مرحلة الطفولة والصبا والمراهقة والشباب الباكر.. والمؤثرات ذات الطابع العام: اجتماعية وسياسية وثقافية.. والأرضية الحضارية، تخلفاً أو نضجاً، وعدد وحجم الهزات النفسية التي تجابه الإنسان على مستوى العقل أو الشعور أو الروح أو الجسد أو العاطفة أو الوجدان.. والموارد المبكرة التي يتلقى الإنسان عن طريقها معرفته، والتوجه المدرسي الذي يسوقه إلى هذا التخصص أو ذاك.. ونوعية الكتب

التي يقرأها . . و(النموذج) الأدبي الذي ينتزع إعجابه ويشير دهشته ويهيمن عليه . . هذه جميعها تلعب دورها المعقد المتشابك في جعل هذا الإنسان أديباً - فناناً، وذلك الإنسان أبعد ما يكون عن التوجه الأدبي - الفني، رغم أنه قد يكون ممن يقرؤون في العام الواحد عشرات الكتب، ورغم أنه قد يكون ممن يؤلفون في شتى مناحي المعرفة العلمية أو الإنسانية.

إن عملية الإبداع الفني، التي نوقشت كثيراً ولا تزال، وطرحت حولها فلسفات ومواقف وتفسيرات ونظريات، والتي ألمنا بها في الفصل الأول لدى الحديث عن الأسس الجمالية . . فهي عملية غاية في التعقيد، وقد دفع تعقيدها هذا بعض النقاد والفلاسفة إلى المبالغة في التفسير والتحليل، حتى لقد تجاوزوا بها الحدود المعقولة إلى (الميتافيزيقا) فغدت من المسائل التي تستعصي على الفهم !!

ومهما يكن من أمر، فإن عملية كهذه، تحتاج إلى خليط مركب من العناصر - إذا صح التعبير - لا يمكن بدونها، أو بافتقار بعض عناصرها تلك، أن تتحقق السوية المطلوبة للإبداع.

إن انعدام فاصل الألم، أو تضاوله، ورهافة الإحساس، وتوفز الأعصاب، وقوة الخيال، وسرعة الاستجابة للمؤثرات الجمالية، وتوقد العقل، وتوهج الوجدان، وغنى التجربة العاطفية، وسعة المعرفة، وتنوع المكونات الثقافية بالقراءة المتواصلة المتمعنة . . والحضور التأثيري لأكبر عدد من الأعمال الأدبية الكبيرة، والقدرة الفذة على الإبداع والابتكار والتشكيل . . والرؤية الشفافة النافذة للظواهر والأشياء . . وغيرها . . فهي تلك العناصر التي يتوجب لقاءها، ليس بالصيغ الميكانيكية حيث يتجاوز بعضها مع البعض الآخر، ولكن بالأسلوب الحيوي الفعال الذي تتداخل من خلاله هذه المكونات جميعاً، لكي تنسج بخيوطها الدقيقة، المتينة نسيجاً

متوحداً تختفي فيه السدى واللحمة، ويصعب تمييز الخيوط ذات الملامح المتفردة، ولا يتبقى بعد ذلك كله سوى قطعة النسيج المحبوك تلك.

وأي إنسان يجد في نفسه نقصاً، أو عدم اكتمال في هذا الجانب أو ذاك من مكونات العمل الإبداعي.. أو يعاني من صعوبة ما، لهذا السبب أو ذاك، في تحقيق التوحد المطلوب في النسيج المتوحد في تجربته الإبداعية.. فإنه لن يكون أديباً في حال من الأحوال.. أو قد يكون أديباً ولكنه لن يستطيع أن يقدم أعمالاً كبيرة تفرض (حضورها) الأدبي في الزمن والمكان..

ويحسن هنا أن نشير إلى موقف (ويليك) من البطانة الفكرية أو الفلسفية للعمل الفني، وضرورة تحقيق قدر من التوازن والتداخل الفعال و(التمثل) بين (القيمة الفنية) و(الحقيقة الفلسفية).. وهو يضرب على ذلك عدداً من الأمثلة، ويتساءل «هل أن تلك الروايات والقصائد الفلسفية الشهيرة، كفاوست لغيته، والأخوة كارمازوف لديستوفسكي، أعمال فنية أرفع بسبب مدلولها الفلسفي؟ أولاً يجدر بنا أن نستنتج بدلاً من ذلك أن (الحقيقة الفلسفية) ليست بذات قيمة فنية مثلما بينا أن الحقيقة النفسية أو الاجتماعية ليست بذات قيمة فنية كذلك؟ لعل الفلسفة أو المضمون الأيديولوجي، في السياق المناسب، تزيد القيمة الفنية، لأنها تعزز قيمة فنية هامة متعددة: قيم التركيب والتلاحم. إن البصيرة في الأمور النظرية قد تزيد في عمق نفاذ الفنان وفي اتساع مداه، لكنها قد لا تكون كذلك، فقد يتشوش الفنان من الأيديولوجية الفاضة إذا ظلت بدون تمثيل، وقد زعم كروتشه أن (الكوميديا الإلهية) تتألف من فقرات من الشعر، تتناوب مع فقرات من اللاهوت الموزون لا العلم الزائف، ولا وراء في أن الجزء الثاني من (فاوست) يعاني من المبالغة في الذهنية، وهو باستمرار على حافة استعارة وعظية مكشوفة، وغالباً ما يشعر مع ديستوفسكي بالمناوحة بين نجاح الفنان وثقل الفكرة. إن زوسيم - الناطق بلسان

ديستوفسكي - شخصية أقل حيوية وواقعية من إيفان كارامازوف، وتوضح رواية (الجبل السحري) لتوماس مان، على مستوى أقل من السابق، التناقض ذاته، فالأجزاء الأولى، بما فيها من استحضار لعالم المصحح، أرفع فناً من الأجزاء الأخيرة ذات الادعاءات الفلسفية العريضة، وعلى كل حال تتوهج الأفكار أحياناً في تاريخ الأدب - ولنعترف أنها حالة نادرة - ولا يقتصر دور الأشخاص والمشاهد على التمثيل فقط، بل إنها تجسد الأفكار تجسداً عملياً، وعندها يحدث أن تتم المطابقة بين الفلسفة والفن، فتمسي الصورة مفهوماً، ويصبح المفهوم صورة.

ولكن هل هذه بالضرورة هي قمم الفن، كما يدعي العديد من النقاد ذوي الميول الفلسفية؟ لعل كروتشه على حق حين يجادل في مناقشته للجزء الثاني من (فاوست) بأن (الشعر حين يغدو أرفع بهذه الوسيلة، علينا أن نقول إنه يغدو أرفع من نفسه، فهو ينقص مرتبة من حيث هو شعر، ولذلك يجب أن يوصف عن جدارة بأنه أدنى، أي أنه يعاني نقص الشعر). من الواجب أن نسلم على الأقل بأن الشعر الفلسفي مهما كان متماسكاً ليس سوى نوع واحد من الشعر، وأن مركزه في الأدب ليس رئيسياً بالضرورة ما لم يعتقد المرء بنظرية شعرية تقول: إن الشعر عملية اكتشاف ذات طبيعة صوفية في جوهرها، ليس الشعر فلسفة بديلة، إن له مقوماته وأهدافه، إن شعر الأفكار مثل سائر الشعر، لا يجوز أن يحكم بقيمة مادته، بل بمدى تماسكه وقوته الفنية<sup>(١)</sup>.

إن الأسس الجمالية في التصور الإسلامي، تلك التي عرضنا لها في الفصل الأول من هذا البحث، لتفرش الأرض وتمهد الطريق أمام

(١) أوستن وأرين وريتبه ويليك : «نظرية الأدب» ص ١٥٨-١٥٩.

الإسلاميين لكي يزيد أديباؤهم نضجاً ويزدادوا عدداً.. إن لقاءهم (اليومي) بكتاب الله، ودعوتهم الدائمة لإمعان النظر في خلق الله وآياته المنبثة في ساحات الكون والعالم والحياة.. وتحققهم بالتوافق الفذ مع السنن والنواميس.. وتنفيذهم لأمر الله في تزيين حياتهم وتجميلها.. لهي جميعاً من العوامل والشروط الضرورية لإيجاد المناخ المناسب للإبداع..

ولقد شهد تاريخنا الإسلامي عبر رحلته الطويلة، عدداً جماً من الأدباء الذين قدموا أبداع الأعمال، في معظم المجالات الأدبية، وحققوا حضورهم الزمني والمكاني، وفرضوا معطياتهم على العالم كله.. إنهم أبناء مدرسة الإسلام، منها انطلقوا، وعلى ضوء قيمها ومعاييرها كتبوا وأبدعوا.. ولكننا في العصر الحديث نتساءل عن النضوب الذي تعانيه ساحة الأدب الإسلامي وعن الثغرات والمآخذ التي تحيط بأعماله الأدبية، وعن اختيار الأديب المسلم التراجع إلى الخط الثاني والثالث في عملية الإبداع.. بعد أن كان الآباء والأجداد يتبوؤون مركز الريادة.

إن علينا إذا ما أردنا - حقاً - استعادة مكانتنا الأدبية المتقدمة، وتجاوز مثلبة التبعية لأداب الشرق والغرب، أن نتحقق بالشروط الضرورية للإبداع، تلك التي ألمحنا إليها قبل قليل.. وبدونها.. فلن تجدي أية محاولة للوصول إلى المطلوب.. بل قد يخشى أن ينقلب سلاح الإبداع الأدبي، بسبب من سطحيته وعجلته، وعدم استكمال الأدوات الأساسية، إلى سلاح مضاد، نشهره ضد أنفسنا، بإعطاء الخصم فرصة الادعاء بأن الأدب الإسلامي لا يعدو أن يكون تقارير وخطباً، وإن الإسلام - بالتالي - ما استطاع أن يوجد المدرسة الأدبية التي تتلبس طابعه، وتستمد من رؤيته.

ها هنا تتوجب الإشارة إلى بعض المعضلات التي يعاني منها الأدب الإسلامي المعاصر، إذ إن التحقق بدائلها يمكن أن يعيننا على تحقيق الهدف المنشود..

وما من شك في أن أبرز تلك المعضلات خطورة هي قلة إقبال المثقف المسلم على القراءات الأدبية في حقولها المختلفة المتنوعة. . بل إن عدداً من الأدباء الإسلاميين أنفسهم، إذا جازت التسميات، يسعون بين الحين والحين لتقديم شيء ما للمكتبة الأدبية: قصة، أو أقصوصة، أو رواية، أو مسرحية، أو قصيدة، أو مقالة، أو عمل نقدي، ويسهمون في المناقشات والمحاولات والندوات الأدبية، دون أن يكونوا قد كلفوا أنفسهم عناء قراءة جادة لعدد من الأعمال الأدبية، قد تمنحهم القدرة على (الإحسان) فيما هم بصدد، بله تنفيذه وفق مطالب الفن ومقتضياته. . وقد علمنا رسولنا ومعلمنا عليه الصلاة والسلام أن الله يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه، وأنه سبحانه قد كتب الإحسان في كل شيء. .

لن ننتظر إبداعاً وإحساناً في نشاطاتنا الأدبية الإسلامية، بل لن ننتظر التزاماً بالقواعد والأصول الفنية المتفق عليها في هذا الشكل من العمل الأدبي أو ذاك، ما لم يتجاوز مثقفونا هذا الحاجز، ما لم يكسروه ويتحققوا بإقبال نهم لا يعرف شعباً ولا ارتواء على كل ما هو أدبي مما يصدر في شرق أو غرب. . أما المعنيون بالأدب من هؤلاء المثقفين على وجه الخصوص فإنهم إن لم يرفدوا قدراتهم الإبداعية ومواهبهم الجمالية، بمتابعات مستمرة في ميادين الآداب والفنون، فإنهم يقيناً سوف يصابون بالتحجر ويكفون عن الإبداع. إنهم في هذه الحالة سيضيفون كميات جديدة إلى المكتبة الأدبية الإسلامية، أما على مستوى النوع فليس ثمة شيء!! وأخشى ما يخشاه المرء أن ينطبق عليهم قول (العقاد) أنهم يكتبون أكثر مما يقرؤون.

من بين ألوف المتمرسين على لعبة كرة القدم في البرازيل، على سبيل المثال، يتم انتقاء فرق النوادي المتقدمة، ومن بين عشرات بل مئات من لاعبي هذه الفرق يتم انتقاء الفريق القومي الذي يعرف كيف يفوز بكأس العالم مرات ثلاث، وكيف يحتفظ به، وكيف ينال الإعجاب والانبهار. .

هذه القاعدة . . انتشار المهارات المتمرسه في حقل ما من حقول الحياة وفق إطارات بشرية واسعة، يمكن أن تنسحب على كل خبرة أو مهارة، وتمكن الأمم والجماعات والشعوب من تقديم أكبر عدد من المبدعين المتميزين في هذا الحقل أو ذاك.

أفتكون المجتمعات الإسلامية قادرة على فرض أدبها الخاص دون أن تنتشر في صفوف مثقفها قواعد واسعة من المعنيين بشؤون الأدب قراءة ومتابعة ودراسة واغترافاً؟ ذلك هو السؤال، وإن ألفاً من وسائل الدعم للحركة الأدبية الإسلامية غير قادرة على تحقيق الرجاء إن لم تعمل في أرضية مهيأة للعتاء . . ولن يكون العمل في الفراغ بقادر على أن يأتي بشيء .

إن كثيراً من المثقفين الإسلاميين يعتبرون (المسألة الجمالية) أمراً ثانوياً، وسيكون من قبيل التكرار وإضاعة الوقت لو حاولنا إثبات الأهمية البالغة؛ التي تحظى بها هذه المسألة في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وفي الرؤية الإسلامية عموماً. ليس الجمال نقيضاً للضرورة، ولكنه الوجه الآخر لها، ما دام أن الحياة البشرية تعلق بتجميل الضرورات على حياة المخلوقات الأدنى . . إنها عملة واحدة ذات وجهين، إذا صحت التعابير، ولن يكون بمقدور أحد أن يسليخ عن الخبرات البشرية وجهها الجميل، دون أن يكشف عن قبحها ودمايتها.

إن القرآن الكريم ينادينا أن نتزين عند كل مسجد، في أخص ما يهمننا في ممارساتنا الروحية . . أفلا يتوجب أن نتزين في كل ما نقوم به ونمارسه في مجرى الحياة؟ فلماذا هذا الجفاء للمسألة الجمالية، ودفعها إلى الخطوط الخلفية، لكي تفسح المجال لعمل الضرورات، الأمر الذي ينعكس - ولا ريب - على الموقف من الآداب والفنون عموماً، حيث تفقد الاحترام

المطلوب، والاهتمام الواجب، وحيث تكون مطالعة كتاب أدبي حجباً لقراءة كتاب فقهي، ووقوعاً في مظنة الإفراط أو التفريط؟

إن هذا يقودنا إلى ذلك الإحساس المبهط بالتأثم الذي يتتاب البعض من المثقفين إزاء قراءة الأعمال الأدبية (الغربية) على وجه الخصوص.. يتجاوزون اعتبارها ترفاً لا (ضرورة) له إلى التأثم من التعامل معها، وتضييع الوقت فيها، الأمر الذي يضيع على كثير من المثقفين فرصة طيبة قد تعينهم على تصعيد مواهبهم وإرهاقها، وتمنحهم رؤية أكثر عمقاً وشفافية ونفاذاً، وتعطيهم زاداً عزيزاً يمكنهم من مواصلة طريق الإبداع.

وكثيرون هم مثقفونا الذين ساقهم هذا الإحساس إزاء الأدب الغربي على وجه الخصوص إلى ردم منابع التجدد والعطاء في نفوسهم، وإلى أن ينحدروا في أعمالهم صوب المباشرة والتقريب والإرشاد.. أو تسطح التجربة على أقل تقدير.. إننا إذا أردنا ألا يكون أدباؤنا متضحلين، فعلينا أن نلزمهم من خلال مؤسساتنا وندواتنا بأن ينهلوا من الأدب العالمي ويتابعوا معطياته شهراً بشهر، ويوماً بيوم.

وثمة من يتوجس خيفة مما قد يؤول إليه التعامل مع المعطيات الأدبية عامة، والغربية منها على وجه الخصوص، من تدمير لمثلنا، وأخلاقنا وتخريب لبداياتنا وأفكارنا، وتشويش لتصوراتنا ورؤانا، بسبب ما تحمله مضامينها وأشكالها أحياناً، من قيم تخريبية مضادة على كل المستويات.

هذا صحيح إلى حد كبير، وبخاصة في دائرة مثقفينا الناشئين، ولا سيما أنه ما من مرآة كمرآة الأدب والفن، تنعكس عليها تصورات أمة ما من الأمم وقيمها وممارساتها، وإذا كان القوم هناك قد بلغوا حد الشذوذ والجنون والإغراق والتفكك والانحلال والدمار.. فإن العدوى قد ينقلها العمل الأدبي فيصيب بها قوماً أصحاء.



وبتركيز بالغ، فإن مجابهة هذه الاحتمالات قد تتحقق بمزيد من التحصن بعوامل الصحة والعافية والسلامة الفكرية والوضوح العقائدي.. . وحين ذاك لن يكون التوغل في معطيات الآخرين (المضادة) مما يخشى منه.. . على العكس إنه سيفيد مثقفينا في اثنتين، فأما أولاهما فهي ما نحن بصده من تعميق وعيهم الأدبي، وشحن طاقاتهم، ومنحهم قدرات أكثر مضاء في أعمالهم الإبداعية، وأما ثانيهما فهي الاطلاع من خلال أكثر المرايا وضوحاً على ما يعانيه القوم الذي شردوا عن هدى الله، من فوضى وتخبط وتناقض وتعاسة وشقاء وتحلل ودمار.. . الأمر الذي يزيدنا تشبهاً بموقفنا، واعتزازاً بهذا الدين الذي كرّمنا الله به، وأخرجنا بتعاليمه من الفوضى والتخبط والتناقض إلى الاستقرار والاستقامة والوئام، ومن التعاسة والشقاء إلى الفرح والسعادة، ومن التحلل والدمار إلى التماسك والاستمرار.

وثمة معضلة أخرى يعاني منها الأدب الإسلامي المعاصر، لا تقل خطورة، تلك هي عدم (انتشار) ولا أقول (وجود) حركة نقدية إسلامية تغطي بشكل مقنع ما يصدر من أعمال أدبية بين الحين والحين، وتشجعها وتسدد خطاها، وتضعها حيث يجب أن تكون.. . وتمنح أصحابها القدرة على المواصلة والاستمرار.

إن ضرورة أن تكون هنالك حركة نقدية متمرسة، تتابع جل ما يطرح من أعمال أدبية إسلامية، هي بشكل من الأشكال كضرورة أن يكون الأديب نفسه متمرساً في مجال عمله، ممتلكاً شروطه وأدواته.. . سواء بسواء.. . إن النقد بالنسبة للعمل الإبداعي هو كالماء والهواء بالنسبة للكائن الحي.

إن وجود وانتشار حركة نقدية إسلامية سيحقق ولا شك أكثر من هدف، فهو سيأخذ بيد الأدباء، وبخاصة الناشئين منهم، يشجعهم ويسد خطاهم، ويعينهم على مواصلة الطريق، كما أنه سيقول لهم أن عليهم أن يمروا من

هنا، وأن يتجاوزوا المرور من هناك، ويكشف لهم من خلال دراسة أعمالهم أنفسهم، ما لم يكونوا قد اكتشفوه، فيزيدهم إدراكاً لأنفسهم، وإماماً بهذه الأعمال، وهو من خلال عروضه المقارنة، ورؤيته الشمولية، سيغني إبداعهم، ويضيف إليه، ويمكنهم من التحقق بهذا الإغناء وتلك الإضافة.. كما أنه بمعاييره الخاصة، وضوابطه المتفق عليها، سيمنع نتاجهم من التبذل والمجانية والخروج على قواعد الفن الأصيل، ويعلمهم كيف يكون احترام الشروط الفنية لأي نمط من أنماط العمل الإبداعي.. وقد ينه الناقد إلى المساحات والتكوينات التي كان يتوجب على الأديب ألا يتجاهلها.. وربما أشار الناقد على الأديب بأن يرجع إلى هذا العمل أو ذاك الكتاب مما فاته أن يطلع عليه، فيكون بهذا قد منحه فرصة أوسع لتحسين إبداعه وتجاوز أكبر قدر من النقائص والعثرات.

وللحركة النقدية - فضلاً عن هذا كله - وظيفة أخرى ذات أهمية بالغة، تمثل ضرورة قصوى في حلقات الأدباء الإسلاميين على وجه الخصوص، إنها تحقيق التواصل بين هؤلاء الأدباء وتعميقه وإغناؤه، حيث تقيم الحواجز الجغرافية، وغير الجغرافية، بينهم سدوداً وحواجز يصعب عليهم اختراقها منفردين، لكي يسمع كل منهم صوته للآخر، ويرى عمله للآخر، ويسمع من الآخر صوته، ويرى أعماله.

إن الأدباء الإسلاميين مشتتون في مشارق الأرض ومغاربها، منقطعون بعضهم عن البعض الآخر، متباعدون، إلا في العواطف والرؤى والأحاسيس.. يصدر الواحد منهم عملاً، فلا يكاد الآخرون في قطر بعيد أو قريب، يسمعون أو يعرفون عنه شيئاً.. ويقول أشياء يتمنى لو تصل أسماع الآخرين فلا يصله إلا الصدى.. إنهم معزولون، ويزيدهم عزلة وقهراً غياب حركة النقد، أو انعدامها ربما، تلك التي كان بمقدورها أن تجعلهم يتجاوزون محنة تغربهم وانقطاعهم وتباعدهم وقتلهم بالصمت.

إنها لو وجدت فسوف تعرف بعضهم ببعض، وتصل بعضهم ببعض، وتنقل صوت بعضهم إلى البعض الآخر.. إنها ستلقي ضوءاً على كل ما يصدر هنا أو هناك، فيتسامع به الجميع، فيهرعون إليه ويقرؤونه. فيعرفون صاحبه، وقد يتاح لهم أن يقولوا له ما يشجعه ويقومه، ويمضي به صعداً على الطريق اللاحب الطويل.

إن (حضور) حركة نقدية إسلامية تنتشر على مدى العالم الإسلامي، وتتابع بوعي حريص ومنهجية جل ما يصدر عن أدباء المسلمين.. فهي بحق ضرورة من أهم ضرورات دعم الأدب الإسلامي.. وإن (غياب) هذه الحركة بالصيغة التي تتحقق معها التغطية المرجوة، فهي المعضلة التي يتوجب أن نتعاون جميعاً على التغلب عليها.

هنالك أيضاً معضلة ثالثة لا تقل سوءاً عن شقيقتيها.. إن كثيراً من المثقفين والأدباء الإسلاميين وغير الإسلاميين، يتصورون الأدب الإسلامي خطابة وتقريراً وإرشاداً.. دعوة للضلال والمارقين إلى التزام الطريق القويم، ومحاربة البدع والأهواء.. وتمكينهم من التغلب على وساوس الشياطين.. وحكم ونصائح أخلاقية وإرشادات دينية تصاغ في قالب قصيدة تعليمية، أو مسرحية تربوية، أو قصة توجيهية، أو مقالة تقريرية.. أو استلهم فجّ لبطولاتنا التاريخية.

إن هذا التصور القاصر الذي يصل حد اليقين لدى فئة من المثقفين، ليقف حجر عثرة في طريق فن إسلامي يتصدى لهذا التحجيم، ويكون عملاقاً شامخاً بمستوى العقيدة التي يعبر عنها، والرؤية التي ينفذها، والدعوة التي يستمد منها الزاد..

وهذا التصور الخاطئ يمارس تخريبه المتعمد أحياناً وغير المتعمد أحياناً باتجاهين اثنين:

فأما في الاتجاه الأول فهو يصد المثقفين الإسلاميين أنفسهم، ممن يملكون قدرة على الإبداع، عن صب طاقاتهم في هذا الحقل أو ذاك من حقول الأدب، معتقدين أن صيغ التنفيذ ذات الطابع التقريري المباشر لن تتيح لهم المجال للتعبير عن إبداعهم، فأحرى به ألا يكون.. طانين أن أية محاولة للخروج عن هذه المباشرة، قد تمس قناعتهم الإيمانية من قريب أو بعيد.

وأما في الاتجاه الثاني فهو يصد المثقفين غير الإسلاميين عن قراءة الأعمال الأدبية الإسلامية، والتواصل معها، والتأثر بمعطياتها، حيث هم يتصورون مسبقاً أن هذه القصيدة الإسلامية أو تلك القصة أو المسرحية ليست أدباً يستحق القراءة، فهي لا تعدو أن تكون نصائح وتلقيناً وإرشاداً.

والمنظور الإسلامي للأدب والفن والجمال عموماً ليس هكذا أبداً، ويتوجب ألا يكون هكذا أبداً.. لأن الله سبحانه كتب الإحسان في كل شيء، ورسولنا عليه السلام علمنا كيف أن الله يحب إذا عمل أحد منا عملاً أن يتقنه.. وتحويل الأدب الإسلامي إلى تعاليم وخطب وإرشادات ونصائح ليس إحساناً ولا إتقاناً، إنما هو اعتماد أقرب الطرق وأسهلها، إن على مستوى اللغة، أو على مستوى التقنية الفنية، أو المضامين، لطرح هذا التصور أو ذاك، وللدعوة إلى هذه القيمة أو تلك..

والإحسان والإتقان لا يتحققان إلا باعتماد أبعد الطرق وأصعبها وأغلاها، إن الالتزام الذي سنتحدث عنه بعد قليل سلاح ذو حدين.. فأما حده السهل القريب، فهو أن نحيل أدبنا الإسلامي إلى تقرير تعليمي رتيب، ومباشرة مملة تعرض المعاني كما هي دون أي قدر من الجهد والعناء لتحسينها وتجميلها والإبداع في طرائق عرضها، من أجل أن تصل إلينا على جناح الفن المؤثر الجميل.

وأما حده الصعب البعيد - والفن الجاد لن يكون إلا صعباً بعيداً - فيتوجب أن يتجاوز المباشرة، إن على مستوى اعتماد اللغة كأداة، أو على مستوى تنفيذ الرؤية كمنظور.. فباللمسة المعبرة، بالإيماء... باعتماد الرموز والمجازات، بتفجير قدرات اللغة التعبيرية، وانتزاع أسرارها الجمالية... بتحويل الكلمة إلى ريشة تفرش الألوان، وتشكل الكتل والمساحات... بالحذر من ملامسة القيم والخبرات والمعطيات الإسلامية دون تهئية الأرضية، وشحن الأجواء، وإشعال النار التي تحرق، والنور الذي يضيء، لتجيء القيمة أو الخبرة في إطار فني مقنع، مترع بالقدرة على التأثير.. بهذا وذاك يمكن أن يتحقق الإحسان، ويكون الإتقان..

#### ٤

كيف يتم الربط بين الركنين الأساسيين: (التعبير الجمالي المؤثر)، و(التصور الإسلامي للوجود)؟ ما هي طبيعة الخيط الذي سيشدهما إلى بعض، ويمكن الأديب المسلم من تقديم أعماله المبدعة على المستويين الجمالي والعقدي معاً؟

هنا يأتي دور (الالتزام).. والالتزام ليس نظرية جديدة، لكي يقال: إننا ندعو إلى الأخذ عن الغير..

ورغم أن (الأخذ عن الغير) ليس خطأ بحد ذاته، على الإطلاق، بل العكس هو الصحيح، إذ الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها، كما يحدثنا رسولنا عليه الصلاة والسلام، رغم هذا، فإن الدعوة إلى الالتزام، واعتباره (الوسط) الضروري، والطبيعي في الوقت نفسه، بين الجمال والفكر، بين الإبداع والتصور.. هذه الدعوة إنما تستمد مقوماتها من القرآن الكريم نفسه.. ومن السنة النبوية الشريفة قولاً وعملاً.. ومن السوابق التاريخية لجيل الصحابة الرواد ومن تبعهم بإحسان.

إننا نقرأ في كتاب الله ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (٢٢٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (١) فنجد أنفسنا إزاء دعوة واضحة صريحة للالتزام.. فيها هنا يبدو (الشعر) الذي لا يلتزم خط الإيمان والحركة والفعل، شعراً كاذباً.. شعراً لا يملك أيما ثقل نوعي، وشخصية مستقلة، وأصالة ذاتية تجعله يقف شامخاً في مواجهة الناس، حاضراً في عقولهم وأرواحهم وشعورهم.. شعراً يبلغ من تفلته من الرؤية العقيدية، وهروبه من القضايا الأساسية التي تهتم الإنسان، أن يخف ويخف، حتى تطيش به الموازين، وحتى ينتقل من مكان إلى مكان، دونما توجه محدد، وهدف واضح، لا يستقر على حال، ولا يحفظ لقيمة من القيم حرمتها وديمومتها.. هو كقطعة الفلين التي لا تملك ثقلًا، والتي تجرفها حركة الأمواج دونما إرادة منها ذات اليمين وذات الشمال.. إن شعراً كهذا قد يمدح اليوم ما كان قد هجاه بالأمس، وقد يهجو غداً ما كان قد مدحه اليوم.. ذلك معنى أن شعراء كهؤلاء (يهيمون) (في كل واد).

إن الشعر حصان جموح، لن يسلس قياده إلا للقلّة الفذة.. إنه تدفق عفوي يند عن سيطرة العقل وأحكامه.. تخلق ذاتي يجيء من وراء أبواب الرسم والإرادة والتخطيط.. إنه عالم بذاته ولذاته.. ومن ثم قد لا نستغرب إذا طالعنا رأي (سارتر) المعروف بأن العطاء الشعري عطاء غير ملتزم.. وبقدر ما يتاح الالتزام في ساحة النشر، فإنه في ميدان الشعر يصعب، بل يستحيل!!

والقرآن الكريم يطرح المسألة من زاوية أكثر موضوعية وشمولاً.. إنه يؤكد على أن التجربة الشعرية هي تجربة هيمان غير عقلاني، يتحول - دونما

ضابط أو مبرر - من مكان إلى مكان، ومن موقف إلى موقف.. فهو غير ملتزم أبداً، إلا أن يأوي إلى ساحة الإيمان، وإلا أن يكون مجاهداً أو مقاتلاً.

والشعر الأصيل، كواحد من الأنواع الأدبية الرئيسية، هو الشعر ذو الشخصية.. الشعر الذي يحمل وظيفة كبيرة، ويدعو إلى فكرة كبيرة، ويدافع عن عقيدة كبيرة، وإلا فإنه الهيمان.. والتفكك.. والتبذل.. والانحلال..

ويستطيع المرء بمجرد إلقاء نظرة على حشود الشعراء عبر تاريخ البشرية، أن يلتقي بعدد جم منهم، ما كان شعرهم بأكثر من نزوة عابرة، وصدور عن رؤية موقوتة، وامتداد لمصلحة قريبة.. لقد هز كثير من هؤلاء مستمعهم وأطربوهم.. نعم.. ولكنهم فقدوا بمرور الوقت قدرتهم على التأثير، لأن الشعر التقدير على التأثير الدائم، والحضور المتواصل هو الشعر الذي يحمل الأفكار الكبيرة.

وهكذا توجه الآيات القرآنية حملتها التي لا هوادة فيها ضد الشعراء، ولكنها ما تلبث أن تستثني منهم أولئك الشعراء الملتزمين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هنالك حيث تتحول الكلمة المبدعة إلى سلاح يقا تل به المؤمنون.. وحيث يغدو الإبداع فعلاً وممارسة وسلوكاً.

إنه من هندسة الشاعر المؤمن، المرسومة، لكلماته وتعبيره وأفكاره ومضامينه وصوره وأخيلته وتراكيبه.. من قدرته على تطويع التجربة المتدفقة من وراء الوعي والشعور والتعقل.. من تمكنه من لي عنقها واستخدامها لما هو أكبر: رؤيته الدينية الشاملة، وإيمانه العميق.. من هنا يبدو تألق الدور الذي يلعبه، ليس على مستوى الشعر الإسلامي وحده، بل على مستوى الشعر العالمي كله.

إن الشاعر المؤمن يقاتل جاهلية عصره.. والشعر المقاتل يكون ملتزماً دائماً؛ لأن المقاتل الحق لا يحمل إلى المعركة سلاحاً لا يعرف كيف يطلق منه رصاصة أو سهماً.

إن معركة الشعر المقاتل هي معركة شعراء كبار، عرفوا كيف ينحتون الكلمة، وكيف يضربون بها الأهداف.

ليس ثمة فوزى.. ليس ثمة تخبط.. ليس ثمة ضرب في غير هدف على الإطلاق.. إن الشاعر المؤمن يعرف كيف ينظر إلى العالم وهو يكتوي بحر التجربة الملتهبة، فلا ينصهر ويخرج عن دائرة الالتزام.. يعرف كيف ينظر من نافذة العقيدة التي انتمى إليها.. كيف يطل على العالم من فوق، من المكان العالي الذي رفعه إليه الإيمان.. هنالك حيث يرى جيداً المسالك والمنعرجات والدروب.. حيث يرى مساحات الضوء ويقع الظلام.. حيث يعرف خارطة الأشياء فلا يتردد.. ولا يتأرجح.. ولا يهيم.

إن الآيات القرآنية الآنفة تتضمن - إذاً - دعوة صريحة واضحة للالتزام.. ولكنه يتوجب أن يكون التزاماً (مرناً)، وإلا فإنه القيد الذي يغل العمل الأدبي، والجدار الذي يقف بمواجهة الإبداع.. والتيبس الذي يميل بالمعادلة الأدبية عن سويتها المطلوبة، ويجنح باتجاه التقرير الفكري على حساب القدرة الإبداعية..

إنه يتوجب أن يكون الالتزام عفويّاً، متساوفاً، مناسباً.. وألا تقوم علاقته بالإبداع الفني على القسر والتكلف والإكراه، وألا يعترف بالمدرسية أو التقريرية أو المباشرة.. علاقة عفوية متدفقة.. تذكرنا بعلاقة العيون الزرقاء، بما تتدفق به على حقول الربيع العطشى من ماء فرات.. بعلاقة التربة الطينية الخصبة الحمراء، بما تغطي به وجه الأرض من بحار لا حدود



لها من السنابل الخضراء . . بعلاقة البحر الهادئ والرياح والرخاء بالمراكب التي تبهر بهدوء فجر كل يوم صوب ما قسم الله لها من أرزاق . . بعلاقة قرص الشمس القاني بأشعته الدفينة، وكرة القمر الشفقية بنورها الواني . . بعلاقة الأم بولدها، والأرض بمعطياتها، والسموات بما تشعه من أنوار!!

أي قسر هنا أو تعسف أو إكراه؟ أليس هو الوفاق، والتناغم الذي يحيل كل شيء إلى لحن جميل؟ ما الذي يجعل الطبيعة تتساق مع معطياتها وتنسجم وتذوب؟ أليس هو الناموس الذي يسيّر به الله - الصانع المبدع - خلأقه جميعاً؟

ومن قال: أن الإسلام ليس هو هذا الناموس، وهذا القدر الكبير، الذي يفجر المياه من العيون، والسنابل من التربة الطينية، والأشعة الدفينة من الشمس، والأحلام من القمر، والذي يخرج الأجنة من البطون، ويسير المراكب بالرياح الرخاء، ويغطي الأرض والسموات بزينة إلهية من كل نوع ومن كل لون؟

ومن قال: أن الأديب المسلم ليس هو هذه العين المائية، أو هذا الحقل الأخضر، أو ذاك البحر الهادئ وتلك الرياح؟.

ومن قال: أنه ليس تلك الشمس أو ذلك القمر؟.

ومن قال: أن قصائده وقصصه ومسرحياته وملاحمه لا تتفجر عنه، عن قلبه وعقله ووجدانه وأعصابه وروحه، تماماً كما تتفجر المياه من العيون، والسنابل من الحقل، والأشعة من الشمس، والأحلام من القمر؟! أليس هو والطبيعة من مخلوقات الله؟

وماذا قال لنا الله في كتابه العزيز؟ ألم يقل لنا: إنه ما من شيء في السموات والأرض إلا ويسبح بحمده؟ وإن السدم في مداراتها الكبرى،

والذرات التي لا ترى في مساراتها الصغرى، والملائكة، والجان والحيوان والنبات والأشياء والموجودات تسبح بحمد الله؟.

العين وهي تتفجر ماء، تذعن لأمر الله وقدره فتسبح بحمده.. الحقل وهو يفتح عن حقل السنابل الخضراء، يذعن لأمر الله وقدره فيسبح بحمده.. البحر وهو يحمل المراكب، والريح وهي تسوقها، تذعن لأمر الله وقدره فتسبح بحمده.. الشمس وهي ترسل بأشعتها والقمر وهو يبعث أحلامه يذعن لأمر الله وقدره فيسبح بحمده.. الوليد وهو يخرج من رحم أمه، يذعن لأمر الله وقدره فيسبح بحمده.. السدم وهي تجري في أفلاكها الكبرى، والذرات وهي تنشط في مساراتها التي لا تراها العيون، تذعن لأمر الله وقدره فتسبح بحمده..

فإذا تساوق الإنسان مع سائر الخلائق، وسبح في كلماته بحمد الله، أكون قد خرج عن الناموس؟ أيمكن وصف هذا التناغم، وهذا التألف بين الخلائق جميعاً بأنه قسر وتكلف وإكراه؟

إن التزام الأديب المسلم يتألق مشعاً في كل جزيئة من جزيئات عمله الأدبي.. لنقل أنه الدم الذي يتفجر في أوردته كلماته وشرائينها.. ينبثق عفواً صافياً حلواً من باطنها، ويتخلق معها، لأنه يصدر عن الأديب الذي يعيش التجربة ولا يدعيها.. وفرق كبير بين أن يأتي الالتزام من فوق لكي يضبط التجربة بقلبه الصارم، ورؤيته الحادة، وبين أن يتدفق من باطن التجربة، ويجري في أوصالها وهي تتشكل كما يجري الدم في شرايين الأجنة، فيها الحركة والحياة.

هذا - إذأ - هو المنظور الإسلامي للالتزام : تصور لا يتحرك الأديب إلا على هديه، وبنوره.. وحس وجداني مفعم يمنحه فرصة الوفاق مع الكون والعالم والوجود.. وبين هذا وذاك يبدو الأدب الإسلامي كالينبوع الذي لا

ينضب، وكنور الشمس والقمر اللذين لا يكفان عن إرسال النور، وكالأرض الخصبة التي لا تقف عن بعث الحياة والجمال على سطح الأرض.. وبين هذا وذاك يتدفق الأدب الإسلامي وردياً - حيناً - يغني للتناغم والتآلف والانسجام، وينصب - حيناً آخر - ناراً تحرق الدنس والشوائب والصغار.. وأحياناً ثالثة يتفجر حمماً تقذف الطواغيت، وتلوي أعناق الذين يعبدون الناس للناس من دون الله.



ولنرجع إلى معطياتنا التاريخية في مجال (التعبير الذاتي) والإبداع الفني) بدءاً من عهد رسول الله ﷺ، وطيلة عصر الراشدين رضي الله عنهم، لكي نجد كيف أن دولة يحكمها الإسلام، ويلزم أبناءها بالصدور عن عقيدته، تفتح صدرها - في الوقت نفسه - بالمرونة التي تستحق التقدير والإعجاب، لنمو القدرات الذاتية في شتى مناحي الإبداع الشخصية والفنية. وترفض - بصرامة تستحق التقدير والإعجاب أيضاً - أن تحيل الناس جميعاً إلى أرقام متشابهة في جداول رياضية، تضيف (قيمة) جديدة للمعادلة، ولكنها لا تتميز بين بعضها والبعض الآخر بشيء، كما تريد بعض المذاهب الوضعية، وبخاصة المادية أن تقود الناس إليه.

إن جوهر هذا الموقف العقيدي التاريخي في الإسلام ليلقي ضوءاً على مدى المرونة التي يتوجب أن تأخذ بها أية دعوة جادة للالتزام الأدبي، وإن دراسة معطيات الحضارة الغربية المعاصرة ونتائجها التي صورها لنا الأدب الغربي لتطلعنا بوضوح على مغزى (موقف) الرسول ﷺ عندما كان يؤكد في كلماته، وإطرائه لصحابته، على التنوع، والفردية، والإبداع الذاتي، والشخصانية، وعندما كان يسعى لكي يكون كل إنسان مؤمن نسيج وحده. مخلوقاً يختلف (باطنياً) عن الآخرين، ويحمل خصوصيته المتفردة، وهذا لا يعني إقامة

الجدران ضد التوحد الجماعي والتنسيق الشمولي للمجتمع الذي سعى الإسلام إلى بنائه، على العكس، إن هذا التنوع وهذا الاستقلال الشخصي، وهذا التفرد، لهو الأساس العميق لقيام مجتمع لا يطويه التشابه الأصم والتجريد الميت، فيعرضه للتحطم في أية لحظة، وإنما ذلك المجتمع الذي تتكامل فيه عناصر الإبداع ومقومات التنوع، لكي يغدو بالتالي أشبه بلوحة من الموزاييك منسق الألوان، الذي يعجب الناظرين إليه من الخارج، والذي تتألف ألوانه، وتتناغم بانسجام عجيب يعبر عن مثل متقدم للتناسق الاجتماعي.

إن ما قاله محمد ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، محرراً فيه صفاته الخاصة، وصدقه الذاتي، وإيمانه العجيب المطلق بكل ما يمس الرسالة، غير ما قاله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مفجراً فيه إمكاناته الذاتية، ورغبته في استعلاء المجتمع الذي ينتمي إليه، وقدرته على تحدي الغموض، وسعيه الدائب للوصول إلى الهدف على الخط المستقيم، وغير ما قاله لعثمان رضي الله عنه مقدراً فيه تجرده الكامل، وحياءه العميق، وحلمه الذي لا تحده حدود، وكياسته التي يعرفها أصحابه وخصومه، وغير ما قاله لعلي رضي الله عنه عندما كان يناديه على تخوم المعارك الفاصلة، وفي لحظات الملاحم، ليسلمه الراية، ويدفعه إلى القتال، فارساً منافحاً عن دينه ومثله، وغير ما قال لأبي ذرٍّ - رضي الله عنه - معلناً أنه سيموت وحده، ويبعث وحده، لأنه نسيج وحده، وغير ما كان يقوله لابن مسعود طالباً منه أن يرتل عليه القرآن وهو الذي أنزل عليه القرآن، معللاً هذا بأنه يحب أن يسمع كلمات الله من أصحابه.. وغير ما قاله لكثيرين لا يحصيهم العد من الصحابة الكرام، مهياً كلاً منهم لدوره المتفرد الذي أتاح للمسلمين أن يقودوا العالم، ويعيدوا صياغة خرائطه، وأن يقفوا بطاقات معجزة من جاهلية التمزق والفراغ، إلى حضارة الوحدة والامتلاء، ومن السكون والخمول إلى الحياة والحركة اللتين لا تحدهما حدود..

ومن ذا يستطيع أن يقول أن تأكيد محمد عليه السلام، هذا، على التفرد والتنوع وإنماء الشخصية والتجربة الباطنية لكل من صحابته، قد أعاق ظهور مجتمع إسلامي موحد، متماسك، يسوده العدل والتكافل والانسجام، وتتفجر طاقاته التعبيرية، متوحدة، متفردة، متنوعة، لا يحكمها القسر الرياضي، ولا يشل تفردا وثرأها منطق القطيع، دون أن تشذ - في الوقت ذاته - عن الأهداف والمعالم الأساسية التي جاء الإسلام لكي يحميها، ويغذ الخطي إليها، ويضع على تخومها حراس الحرف ومجاهدي الكلمة؟!

إن حرص الرسول ﷺ على تفرد أصحابه، وإغناء مكوناتهم الشخصية، وتعميق استقلالها، ليس سوى تطبيق عملي لرغبة الإسلام في إقامة حضارته المتوحدة على قاعدة تنوع النماذج الإنسانية. ورفضه الشديد القاطع لأن يتحول المجتمع إلى قطيع من الأغنام.. إلى أرقام متشابهة في معادلة رياضية، تنتهي إلى كسر، أو عدد صحيح.

صحيح أن هناك قاسماً مشتركاً أعظم جاء الإسلام لكي يجمع المسلمين عليه. قاسماً تجتمع عنده مطامح المسلمين وأهدافهم، وآمالهم وآلامهم، ومبادئهم الأساسية، ومدركاتهم العريضة التي منحتهم العقيدة إياها، وسعيهم الدائب، وكدهم المشترك.. إلا أن هذه القيم والفاعليات المشتركة، لم تمنع من إتاحة المجال للإنسان الفرد أن ينمي طاقاته الخاصة، وقدراته الذاتية، وأن يغني تجاربه الفردية، ومطامحه المتصلة، أشد الاتصال بطاقاته وقدراته وتجاربه جميعاً.. فالإسلام - في تأكيده على ذلك - إنما يريد أن يمد بحر حضارته بجداول ثرة لا حصر لها.. كل منها يصب في بحر الحضارة الواسع، فيزيده غنى وامتلاء.

ولقد انعكس هذا التنوع الذي أراده الإسلام بالضرورة، وقبل كل شيء على التعبير الذاتي للإنسان المسلم، حيث تنوعت المعطيات، وحيث طلع

الفنانون على الناس بصنوف وأنماط شتى لا يحدها إطار، ولا يحصيها عد، في مختلف حقول الآداب والفنون.. وليس كالحضارة الإسلامية - إذا ما قارناها بالحضارات الأخرى - قدرة على بعث هذا التنوع في الأساليب والمضامين الفنية، وفي إغناء الحضارة البشرية بمزيد من المعطيات والقوالب التعبيرية والرؤى والأخيلة الفنية.. تلك التي لم تأسن جداولها في فترات طويلة من الزمن، بل ظلت تتدفق وتتغير، متلبسة كل حين بلون جديد، وطعم لم يألفه الناس من قبل.

## ٦

وصحيح أن الإسلام قد وضع معالم وحدوداً ومساحات، وألزم أدبائه بعدم تخطيها لئلا يقعوا في الحرام، لكن هذه المعالم والحدود ليست سوى إشارات تحذير للأديب المسلم، كيلا يلصق بالمستنقعات، ويتحول إلى أداة رخيصة مبتذلة، تافهة.. بالأحرى إلى (إمعة) تقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت.. إمعة تمدح مع المداحين لغير ما سبب، وتهجو مع الهجائين لغير ما سبب.. إمعة تكتب عن العفن والتفسخ والفساد، لا لكي تنفر الناس من مستنقعاتها، وتدفعهم إلى أن يرتفعوا إلى فوق، ولكن تكتب عنها محبة مغرية، داعية أكبر قدر من الناس لكي يخوضوا في أحوالها إلى أعناقهم.. إمعة تصدر عنها الكلمة، أو التعبير، مبتذلة، رخيصة، دونما إحساس أصيل، ودونما اعتزاز إنساني بأن هذا الذي يصدر إنما هو قطعة من وجدان الأديب.. كلمات وتعابير تصدر بين الحين والحين، دونما أي داع أو نداء، كما يصدر النعيق عن البوم في الأبنية المهجورة والخرائب.. إمعة تقول ما لا تعتقد وتعتقد ما لا تقول.. تعيش ازدواجاً بين ادعاءاتها ونداءاتها التعبيرية، وبين واقعها الفج، المتفسخ، المريض..

وهكذا.. فإن هذه المعالم والحدود التي وضعها الإسلام على طريق التعبير، ليست كوابت أو ضوابط قسرية، كتلك التي تمارسها دول وحكومات.. لكنها نداءات يفجرها الإسلام في قلب أدبائه أن يكونوا أكثر استقلالاً، وأعمق تأثيراً، وأشد توحداً، وأثرى عطاءً.. إن علامات وحدوداً من هذا النوع هي أشبه بالحوافز إلى أن يتحرر الأديب من كل المواضعات التي أسرت على طول الزمن آلافاً من الأدباء، وجعلتهم كالأبواق التي تخرج الأصوات الناشئة كلما أريد منها ذلك.. أما الأفئدة فهواء.. والإسلام لا يريد أن يكون أدباؤه فارغي الأفئدة..

فإذا ما انتقلنا إلى الداخل، لفحص المساحة التي يتيحها الإسلام للتعبير ضمن هذه الحدود والعلامات، فسرى العجب العجائب.. إن حرية القول والكلمة والتعبير بلغت في تجربة الإسلام التاريخية حداً مذهلاً لم يبلغه في يوم من الأيام أي مجتمع آخر سعى وراء عقيدة أو منهج لكي ينظم حياته على ضوئه..

وكثيرة هي الوقائع والصور والأحداث في تاريخنا، عن أناس من شتى الأماكن والبلدان، قاموا بوجه الخلفاء أو ولايتهم الكبار، وأعلنوها صريحة واضحة كحد السيف.. أناس لا يحملون ميزات خاصة، ولا يحتلون مواقع كبيرة في الدولة.. أناس عاديون لا يملكون في جيوبهم غير هوية تعلن كونهم مواطنين في الدولة الإسلامية، وقفوا وجهاً لوجه أمام كل ما رأوه خطأ أو تقصيراً.. وقالوا غير خائفين ولا وجلين.. بل الأعجب من هذا أن الخلفاء والمسؤولين أنفسهم كانوا يبحثون عن هؤلاء، يفتشون عنهم في كل مكان، من أجل أن يصرخوا بوجههم، وأن ينهوهم، وأن يوقفوهم عند الحدود والعلامات!!

قال حذيفة بن اليمان: دخلت على عمر بن الخطاب يوماً، فرأيتة مهموماً حزيناً، فقلت له: ما يهكم يا أمير المؤمنين؟ قال: إني أخاف أن

أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً. فقلت له: والله لو رأيته  
خرجت عن الحقّ لنهينك!! ففرح عمر وقال: الحمد لله الذي جعل لي  
أصحاباً يقومونني إذا عوججت!!

ويوماً صعد إلى المنبر وقال: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت  
برأسي إلى الدنيا كذا؟ فقام رجل إليه فقال: أجل.. كنا نقول بالسيف كذا  
(وأشار بالقطع!!) فقال عمر: إياي تعني بقولك؟ أجاب الرجل: نعم..  
إياك أعني بقولي! فقال عمر: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعتي  
من إذا تعوجت قومي.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: كان بين عمر بن الخطاب  
وبين رجل كلام في شيء، فقال له الرجل: اتق الله، فقال رجل من القوم:  
أتقول لأمر المؤمنين اتق الله؟ قال عمر: دعه فليقلها لي، نعم ما قال، لا  
خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقلها!!

أما حفيده، عمر بن عبد العزيز، فقد أعلن عن جائزة قدرها ثلاثمائة  
دينار لكل من يقطع الطريق الطويل، ويجيء إلى دمشق، لكي يقول هناك  
كلمة (الحق)!!

في هذه المساحة الواسعة، كان أبناء الأمة الإسلامية يتجولون.. يقولون  
ما يشاؤون في الحدود التي رسمها الله ورسوله.. يعبرون عن خلجات  
نفوسهم كما يشتهون، ويصوغون تجاربهم ومشاعرهم بالأسلوب الذي  
يرتؤونه ويرتاحون إليه.. ولقد بلغ الأمر حداً من حرية القول والتعبير صرنا  
نجد الخلفاء معه لا يبحثون فقط عن أولئك الذين يقولون دون وجل أو  
خوف.. بل إن أبياتاً مؤثرة من الشعر قيلت، أو كلمات جميلة أعلنت، فإذا  
بها تخلص أصحابها من جرائم مارسوها لا علاقة لها بقول أو تعبير.. ليس  
هذا فحسب، بل إن بعض المسؤولين أعجبته الكلمات المؤثرة، والتعابير



والأبيات الصادرة عن الوجدان، وإذا بهم يهتزون نبلاً وكرماً، فيضعون أيديهم بأيدي القائلين، ويخلعون عليهم، أليسوا هم أبناء الأمة التي هزت رسولها الكريم - يوماً - أبيات من الشعر، فنزع برده ومنحها الشاعر نفسه الذي كان قد هجاء من قبل هجاء مرأً؟!

إن هذه المساحة التي أتاحها الإسلام للتعبير الذاتي، وشهدها واقعه التاريخي، كان لها ولا ريب أبعد الأثر في تطور وامتداد هذا التعبير في المجتمع الإسلامي، وفي تنوعه وإثرائه..

ومرة أخرى فإن المعالم والحدود التي منع أدبائه من اجتيازها، لم تكن سوى صرخة تحذير بوجه هؤلاء، ألا يتهافتوا على الرخص والتبذل والكذب.. وألا يعودوا إلى الظلمة بعد إذ خرج بهم الإسلام إلى مشارف النور..

٧

إننا إذا ما قارنا هذا الالتزام الأدبي الإسلامي، على مستوى التصور والتطبيق، مع الالتزام الماركسي - على المستويين كذلك - فسوف يتبين لنا الفارق النوعي بين التزام يملك قدراً كبيراً من الحرية والمرونة والعفوية والانفتاح، والتزام يقوم على القسر والتعصب والتشنج والانغلاق.. بين سلطة تتيح ذلك المدى الواسع للتعبير عن الذات، وبين سلطة تضيق عليها الخناق وتلاحقها في الأعماق وفي منحنيات الفكر والوجدان، وتسد عنها منافذ الهواء فتطفئ شعلتها المتوهجة، وتكفها عن الإبداع.

إن الالتزام عندهم يأخذ بعداً طبقياً صرفاً.. ويتشكل من خلال صراع الطبقات.. ومن ثم فإن الأدب الشيوعي إنما هو أدب الطبقة العاملة، يعبر عن همومها، ويدافع عن قضاياها، ويفند مقولات ومعطيات الطبقات الأخرى التي ترصد لها.

يقول أوفسيا نكوف وسمير نوبا: «علمنا لينين أن نرى خلف الصراع الفلسفي والجمالي والفني انعكاساً لصراع مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، ووضع بهذا الخصوص أهم مبدأ من مبادئ علم الجمال الماركسي وهو مبدأ (حزبية الفن). وينظر لينين إلى هذا المبدأ من خلال مجال فلسفي واسع، فهو يشير قبل كل شيء إلى أن الحزبية تعني الأيديولوجية بمفهومها العام ويضيف (إن المادية تحتوي في داخلها على حزبية محددة بشكل صريح ومكشوف، تتخذ جانب وجهة نظر مجموعة اجتماعية معينة). لقد رأى لينين - بحق - أن أية محاولة لإخفاء حزبية الفن هي محاولة غير مخلصة، مشيراً إلى أن (لا حزبية الفن) هي فكرة بورجوازية، وأن الحزبية هي فكرة اشتراكية.. وتحظى مقالته الرائعة (المنظمة الحزبية والأدب الحزبي) التي كتبها في فترة الحوادث الثورية أعوام ١٩٠٥-١٩٠٧، بأهمية عظيمة. ففي هذه المقالة يصرح لينين قائلاً: (يجب أن يصبح الأديب حزبياً ليقف في وجه الأخلاق البورجوازية والأدب البورجوازي الصناعي والتجاري، وضد الأدب البورجوازي الداعي إلى تعظيم الأفراد والمناصب، راكضاً وراء الربح، يجب على البروليتا الاشتراكية أن تطرح مبدأ حزبية الأدب، وتعمل على تطويره وإدخاله إلى الحياة بشكل أكمل وأعمق). ثم يحدد لينين، بعد أن وجه ضربات قوية إلى نظرية (الفن الخالص) الرجعية، الواجبات الجديدة أمام فن البروليتاريا الثورية، معلناً أن مؤيدي ما يسمى بالفن (الحر) هم في الحقيقة مرتبطون بمصالح الطبقات المستغلة ويخدمونها، أما الفن الحر فسوف يخدم مصالح البروليتاريا وكل الكادحين، وسوف يكون أدباً شعبياً بكل ما في هذا الوصف من صدق، ولا يمكن الفصل بين حزبية الأدب وشعبيته، وكل ما قيل من كلام يخالف هذه الحقائق ما هو إلا تحريف للحقيقة<sup>(١)</sup>.

(١) موجز تاريخ النظريات الجمالية ص ٤٥٠-٤٥١.

ويواصل المؤلفان المذكوران حديثهما عن الرؤية الفنية للينين فيقولان: «إن الحرية الحقيقية للإبداع الفني مقصورة على ذلك المجتمع الخالي من الاستغلال والظلم الاجتماعي والإرهاب القومي، والمتحرر من حكم القوى الاقتصادية العمياء، ومثل هذه الحرية وهبتها ثورة أكتوبر للجماهير المبدعة» قال لينين في مقابلة له مع ك. تسيكين: (إن تطور الفن قبل الثورة كان مرتبطاً بحكم القيصري، وما ينتج قصره من أزياء وتقليعات، كما كان مرتبطاً أيضاً بذوق ورغبات الطبقة الارستقراطية والبرجوازية، لقد حررت ثورتنا الفنانين من نير تلك الظروف البغيضة، وأصبحت الحكومة السوفياتية مدافعاً عنهم، ومستهلكاً لديهم في وقت واحد، إن لكل فنان الحق في أن يبدع ما يتلاءم ومثله الأعلى، متحرراً من كل شيء).

وتنبع حرية الإبداع الفني الحقيقية والواقعية في رأيه من الارتباط العميق بحياة الشعوب وخدمة الاشتراكية بشكل اختياري وتطوعي، فكتب مشيراً إلى أدب المجتمع الاشتراكي قائلاً: (إنه سيكون أدباً حراً مغنياً أفكار الإنسانية الثورية بالتجارب وبالإنجازات الحيوية للبروليتاريا الاشتراكية، واضعاً علاقة دائمة بين خبرة الماضي - أن الاشتراكية العلمية هي قمة تطور الاشتراكية منذ أشكالها البدائية الطوباوية - وبين خبرة الحاضر: النضال المعاصر للرفاق والعمال»<sup>(١)</sup>.

ويخلص الفنانان الماركسيان إلى ما يلي: «لقد رأى لينين حقيقة التجديد في الفن في التعبير عن الجديد الذي تكون في الواقع بعد انتصار ثورة أكتوبر، وفي إظهار النواحي الجديدة للحياة في المجتمع السوفياتي»<sup>(٢)</sup>.

ويتساءل المرء: أين نذهب بأعمال روائيين كبار كتولستوي، وديستوفسكي، وغوغول، وجيكوف.. وغيرهم «إذا كان تطور الفن قبل

(١) نفسه ص ٤٥٣-٤٥٤.

(٢) نفسه ص ٤٥٥.

الثورة مرتبطاً - كما يقول لينين - بحكم القيصر ورغبات الطبقة الارستقراطية والبورجوازية؟». . . وأين نذهب - في المقابل - بالمسخ والتسطح الذي عانته الحركة الأدبية، عموماً في أعقاب ثورة أكتوبر، بسبب من صيغ الالتزام القهرية المباشرة التي وجدت نفسها تعمل في إطارها؟

ليس هذا مجال مناقشة مستفيضة للفلسفة الجمالية الماركسية، ولا لنظريتها في الالتزام، فلعلنا نرجع إلى ذلك في مكان آخر. . . ولكننا نمر فحسب ببعض الشهادات التي أدلى بها أناس انتموا للشيوعية، وعانوا عن كتب طبيعة الأزمة الأدبية والفنية التي تعانيتها التجربة والفكر على السواء. . . وهذا بعضها: «إن أذواقنا الأدبية والفنية - يقول آرثر كستلر - قد أصابها التقليل أيضاً، كما أصاب غيرها، قال لينين مرة: إنه عرف عن فرنسا من خلال قصص بلزاك أكثر مما عرفه من كتب التاريخ مجتمعة، فأصبح بلزاك عندنا أعظم الأولين والآخرين، بينما كانت كتابات غيره من القصصيين مجرد انعكاسات (للقيم الشائنة التي أنتجها مجتمع منحل).

أما في الناحية الفنية فقد كان المذهب (الحركي الثوري) هو السائد المتحكم، فكانت الصورة التي تخلو من مصنع يتصاعد دخانه، أو مدخنة، أو جرار، تعتبر صورة تهريرية غير واقعية.

أما في الموسيقى والتمثيل فقد كان ينظر إلى (الجوقة) على أنها أسمى وسائل التعبير، لأنها تمثل الاتجاه الجمعي كشيء مضاد للاتجاه الفردي البورجوازي، إلا أنه لما كان من غير الممكن إلغاء الشخصية الفردية من المسرح، فقد نزعت عن هذه الشخصيات صفاتها الفردية، وأصبحت مجرد نماذج ورموز»<sup>(١)</sup>.

(١) «الصنم الذي هوى»: آرثر كستلر وآخرون ص ٥٦-٥٧.

ويقف الأديب والمفكر الفرنسي المعروف (أندريه جيد) طويلاً عند هذه المعضلة، ويبدأ بطرح الحقيقة التي تسعى الماركسية إلى تجاهلها وإنكارها في هذا المجال «إن البشرية معقدة التركيب - وهذا أمر ينبغي أن يكون مفهوماً - وإن كل محاولة للتبسيط، وكل جهد يأتي من الخارج لصياغة كل شيء وكل فرد حسب نموذج عام، هو جهد خطر وضار وحقيق بالنقد، وإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة إلى عامة الناس، فهو بالنسبة إلى الأديب والفنان أكثر خطراً وأعظم شراً».

ويمضي جيد إلى القول: «إنني أعتقد أن القيمة الحقيقية للكاتب هي في قوته الثورية، أو بمعنى أدق - فلست من الغباء بحيث أعزو القوى العقلية والفنية لليساريين وحدهم - في قوة معارضته، أن الفنان العظيم هو بالضرورة ذو شخصية تختلف عما اعتاد عليه الناس، ولا بد له من أن يسبح في مواجهة تيار عصره، فما الذي سيحدث في الاتحاد السوفيتي في النهاية عندما تزيل الدولة الجديدة كل ما يدعو الفنان إلى المعارضة؟ وما الذي سيحدث للفنان نفسه حين لا يجد لديه إمكانية المعارضة؟.. هذا السؤال الحيوي هو الذي كان يشغل ذهني قبل أن أذهب إلى روسيا، فلما ذهبت لم أجد له جواباً شافياً. وفضلاً عن ذلك ما الذي سيحدث للفنان المبدع الأصيل؟ لقد أخبرني أحد الرسامين الذين التقيت بهم في روسيا أن الدولة لم تعد في حاجة إلى الإبداع أو الأصالة، وأن الأوبرا التي لا يأخذ منها العامل نفعاً يستطيع أن يتغنى به ويصفر بعد خروجه من المسرح لا فائدة فيها لدولة العمال، وأن ما تحتاجه الدولة حقاً هي الكتابات والرسومات والأعمال التي يمكن إدراكها والإحاطة بها في سهولة ويسر، فلما قلت أنا معترضاً بأن أعظم الأعمال الأدبية والفنية - بما فيها تلك التي أصبحت فيما بعد شائعة مشهورة - لم تلق التقدير والعرفان أبداً عند أول العهد بها، أو لم تلقه إلا من عدد قليل مختار، أجاب معترفاً بأن يتهوفن نفسه ما كان يمكنه

في الاتحاد السوفيتي أن يستأنف السير بعد فشله في البداية، ثم أضاف يقول: (إن الفنان هنا يجب أولاً وقبل كل شيء أن يكون منسجماً مع سياسة الحزب، وإلا فإن أعظم الأعمال الفنية لن تعتبر سوى مجرد [شكلية].. نحن نريد أن نخلق فناً جديداً جديراً بالأمة العظيمة التي نحن فيها الآن). قلت له: إن هذا معناه إلزام جميع الفنانين بأن يصبحوا (امتثاليين)، وأن أفضلهم وأشدّهم أصالة وإبداعاً لا يمكنهم أن يوافقوا على امتهانٍ فنيهم والخضوع لمثل هذه (التعليمات)، ولذلك سوف يلجؤون إلى السكوت والخمود، فتصبح الثقافة التي يحرص القادة على نشرها وتمجيدها شيئاً يستحق الرثاء والازدراء.. إن الثقافة تكون دائماً في خطر بحيث لا يمارس النقد بحرية كاملة، أن كل عمل لا يتفق مع خطة الحزب يذم في روسيا ويعاب، والجمال هنا يعتبر شذوذاً بورجوازيّاً، والفنان الذي لا يساير خطة الحزب - مهما عظمت مواهبه - مضطر أن يعمل في جو من الإهمال والنسيان، إن سمح له أن يعمل على الإطلاق، أما إذا ساير وامتثل فإنه يتلقى المكافأة والمديح..<sup>(١)</sup>.

وفي مكان آخر يقول (جيد): «... إنني أخشى أن كثيراً من الأعمال الفنية والأدبية المشربة بروح العقيدة الماركسية الصافية التي يعزى إليها نجاح هذه الأعمال الوقتي، لن تشم فيها الأجيال المقبلة إلا رائحة المعمل.. لقد أصبح الفن اليوم - بعد انتصار الثورة - في خطر عظيم لا يقل عن خطر العهود الظالمة المضطهدة، خطر أن يصبح تابعاً للمذهب.

إن الثورة المضطربة لا بد وأن تمنح الفنان (الحرية) قبل أي شيء آخر، فإن الفن بدون الحرية الكاملة يفقد قيمته ومعناه، ولما كان هتاف الجماهير وتصفيقهم يعني النجاح، فإن الشهرة والجزاء ستكون من نصيب تلك

الأعمال الفنية والأدبية التي تستطيع الجماهير أن تستوعبها وتدرکها دون جهد، ولذلك فإنني كثيراً ما أسائل نفسي وأنا متوجس قلق: أليس مصير أشخاص من أمثال (كيتس) أو (بودلير) أو (ريمبود) إن وجدوا في روسيا السوفيتية اليوم أن يذبلوا ويذووا دون أن يشعر بهم أحد، لأنهم بسبب أصالتهم، أو قوة ابتكارهم، لم يتح لأصواتهم أن تعلق وتنتشر...؟ وقد تقولون: إننا اليوم لسنا في حاجة إلى (كيتس) أو (بودلير) أو (ريمبود)، وإن هؤلاء لا قيمة لهم إلا باعتبارهم يصورون المجتمع المضمحل المحتضر الذي أنتجهم، بل قد تقولون: إنهم إن لم يستطيعوا أن يظهروا ويسودوا، فذلك من سوء حظهم ومن حسن حظنا نحن، إذ لم يعد هناك شيء نحتاج أن نتعلمه من أمثالهم، أما الكتاب الذين يمكنهم أن يعلمونا اليوم شيئاً جديداً فهم أولئك الذين لا يشعرون بالغربة في مجتمعنا الجديد.. وهذا معناه عبارة أخرى: أولئك الذين يتفوقون مع العهد الحاضر ويتملقونه.

أما أنا فأعتقد أن الإنتاج الفني الذي يتملق ويمتدح ضئيل في قيمته التربوية، وأن الثقافة عليها أن تتجاهل مثل هذا الإنتاج إن كانت تريد أن تتقدم. أما عن الأدب الذي يحصر مهمته في تصوير المجتمع كما هو فقد عرفت رأيي فيه، إن دوام التأمل الذاتي والإعجاب بالنفس قد يصلح في المراحل الأولى لمجتمع جديد، أما أن تستمر هذه المرحلة حتى النهاية، فذلك أمر يستدعي الأسى والأسف»<sup>(١)</sup>.

وستيفن سيندر، الشاعر والناقد المعروف، الذي كان قد انضم هو الآخر فترة قصيرة للحزب الشيوعي، يطيل الوقوف - كذلك - عند هذه المعضلة: الكلمة التي يراد لها أن تصير أداة رخيصة، مسطحة، لخدمة الأيديولوجية، ويحكى بعض تجاربه ومشاهداته في هذا المجال: «لقد

لاحظت - يقول الرجل - بين رجال الفكر الشيوعيين خلال سنة ١٩٣٠ وما بعدها نوعاً من السلوك قد أصبح اليوم في أوربة الشرقية أمراً رسمياً مقررأ في نقابات الكتاب التي تملي على القصصيين والشعراء كيف ينبغي أن يفكروا ويشعروا، لقد كانت المشغلة الرئيسية لمجموعة الكتاب الذين التقوا لبحث مشكلة الفن والمجتمع الأزلية هي أن الأدب ينبغي أن يشرح ويعرض نظريات ماركس حول سمو الطبقة العاملة، وحول ضرورة الثورة، إن هذه النظرة العقلية إلى المجتمع تمتد بالضرورة بعيداً وراء أي خبرة فردية، ومجال الخبرة الوحيد هو أن تفسر وجهاً من وجوه خطة مقررّة انتهى إليها الكاتب دون اعتماد على الخبرة، ومهما بلغ من إخلاص الكاتب للماركسية، فإن تسلط نظرية معينة على عقله سابقة لكل خبرة، لا بد وأن تكون له نتائج الحتمية، فإنه لما كان أهم شيء هو أن يكون الكاتب مؤمناً بالنظرية الماركسية، ينتج عن ذلك أن أكثر الكتاب إيماناً بالماركسية وتعصباً لها - وهم في معظم الحالات أسوأ الكتاب - تصبح لهم الأفضلية على أولئك الكتاب المتواضعين الذين يعتمدون في فنهم وأدبهم على الخبرات قبل كل شيء، إن هذا يعني أن يصبح حملة النظرية والمبدأ بشكل آلي نقاداً أدبيين، يحللون الأدب كله، ماضيه وحاضره، تبعاً لآراء الكاتب وأفكاره»<sup>(١)</sup>.

ويمضي سبندر إلى القول: «لقد سمعت شاعراً شيوعياً يوضح لجمعية أدبية في (هيستند) في الاحتفال بذكرى الشاعر (كيتس) كيف أنه رغم أن كيتس لم يكن ماركسياً؛ إلا أننا نستطيع على الأقل أن نزعّم أنه لكونه ولد من أب سائس للخيل، وأصابه مرض السل، فلم تعالجه الدولة، له فضل كونه ضحية من ضحايا الرأسمالية. كذلك كان هذا الشاعر نفسه هو الذي كتب حين انتحرت (فرجينيا وولف) بأسلوب من يهنتها على اختيارها طريق

(١) المصدر السابق نفسه ص ٣٣٠.



الضرورة التاريخية، ويلمح إلى أننا نتوقع من بقية الكتاب البورجوازيين أن يحذوا حذوها».

«لقد جلست أنصت باشمئزاز إلى الصباح التعسفي لذوي المواهب الهزيلة، فشعرت بشيء من الخزي لهذا الادعاء، بأن نظرية سياسية معينة على المجتمع يمكن أن ترفع حاملها إلى وضع يصبح قادراً على رفض نتائج البصيرة العبقريّة، إلا إذا أثبت هذا النتاج أنه تطبيق للنظرية السياسية على المادة الجمالية، ولم يكن نفوري أقل من ذلك تجاه هذا النقد الأدبي الماركسي الكسير الذي ينظر إلى الأدب على أنه مجموعة من الأساطير التي يخترعها الكتاب بطريق شعوري أو لا شعوري، ليخدموا بها مصالح طبقة صاعدة في التاريخ. إنني أعتقد أن شعراء مثل دانتى وشكسبير، رغم أنهم كانوا دون شك من رجال عصرهم، ومن المفكرين السياسيين، إلا أن خبراتهم لها ناحية سامية فائقة، ترتفع بهم فوق المصالح الاجتماعية البشرية تماماً، إن المجتمع قد يسير وراءهم في الهامات وكشوف مضئنة عن طبيعة الحياة، تخرج به تماماً عن نطاق ومشاغل أية حقبة تاريخية معينة، فالمجتمع بهذا المعنى قد يسمو عن طريقهم، وليست تجلياتهم وكشوفهم حينئذ مجرد أمنيات بائدة من أمانى مجتمعهم».

«إن معتقدات الشعراء عندي وحي مقدس، وكشف عن حقيقة الحياة وطبيعتها، قد لا أشاركهم الإحساس به، ولكني لا أحب أن أبطله، باعتباري إياه (ظاهرة اجتماعية). إن الأدب إن كان يعلمنا شيئاً فهو أن الإنسان ليس سجين مجتمعه تماماً، بل إن المجتمع قد يتعلم من الفن والأدب كيف يهرب من هذا السجن. إن عدم الإيمان بأن الأدب هو من بعض جوانبه نقل للخبرات الفريدة التي تمر بالفنان كفرد، يعني أننا نعتبر الأدب والفن مجرد تعبير عن حاجات اجتماعية، ولما كان الشعراء والكتاب لا يعتبرون أقدر الناس على الحكم على الأفكار التي تعبر عن نمو المجتمع

وتطوره، فإن هذا يعني أن أصحاب النظريات من رجال السياسة في موقف من يملي على الأدباء ما يطلبه المجتمع من فنهم وأدبهم، وقد وجدت أن هذا هو فعلاً موقف الشيوعيين واتجاههم<sup>(١)</sup>.

ويحكي سبندر عن إحدى مشاهداته: «إنني أذكر جيداً ذلك الاجتماع الذي عقده منظمو (مسرح المجموعة) لبحث تمثيلية شعرية من تأليفي كانت قد مثلت على المسرح هي (محاكمة قاضٍ)، فقد قامت فتاة شيوعية حسنة الهندام، تحتج على التمثيلية وتقول: إنها أصيبت هي وزملاؤها الشيوعيون بخيبة أمل كبيرة، فقد كانوا يتوقعون أن تتحدث التمثيلية عن وضع يكون فيه الفاشيون رأسماليين، والأحرار ضعافاً، والشيوعيون على حق - وهو الأمر الذي يعرفونه جيداً - ولكن التمثيلية بدلاً من ذلك أظهرت ميلاً إلى العطف على وجهة نظر الأحرار، يضاف إلى ذلك أنه قد بدا في الفصل الأخير عنصر من التصوف، وليس مذهب الأحرار أو التصوف هو الذي نريده من الكتاب الآن، بل نريد الحديث عن الشيوعية المكافحة... إلخ.

إن وجهة نظرها تشبه تماماً وجهة نظر (هاري بوليت) الذي كان كلما لقيني يقول: (لم لا تكتب أغنيات للعمال كما فعل بيرون وشيللي وويردسويرث؟ وهو سؤال لا جواب عليه إلا إذا شاء الإنسان أن يجلب لهؤلاء الشعراء بعد وفاتهم خزياً لا ينفك عنهم)<sup>(٢)</sup>.

ويواصل سبندر: «... في الحقيقة إن الفن في روسيا قد تدهورت فعلاً إلى حد كبير، ومن العجيب أن الشيوعيين أنفسهم يعترفون بهذا أحياناً، فقد أوضح لي (إيليا أهرنبرغ) عام ١٩٤٥ في باريس أن الروس لن يشتركوا في معرض للرسوم العالمية، لأنه لم يكن لديهم رسامون مجيدون... وأخبرني

(١) المصدر السابق نفسه ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٣٢.

شيوعي مجري: أن الروس قد قضوا على الأدب والرسم، وأنهم دائبون اليوم في القضاء على الموسيقى»<sup>(١)</sup>.

ويخلص إلى القول: «.. إن حرية الأدب والفن تؤيد فردية كل كائن بشري، ورغم أن الأدب غير السياسة، إلا أنه سياسي بمعنى أنه لا يزال بوسع مفاهيمنا عن الحرية الإنسانية، وهذا التوسع في مفاهيمنا يغير من مفهوم الحياة عندنا من جيل إلى جيل، ويؤثر في النهاية على أهداف المجتمع السياسية»<sup>(٢)</sup>.

فإذا ما أحلنا على هذه (الشهادات) المنصبة على الوقائع تحليل أوفسيانيكوف وسمير نوبا للرؤية الماركسية للأدب والفن، أدركنا كم أنهما - كعادة الماركسيين - يذهبان في مجال التفاؤل بعيداً، ويصلان إلى حد (المدرسية) التي تريد أن تدخل في عقول التلاميذ فكرة لا رصيد لها من الواقع المنظور.. يقول المؤلفان: «.. يخلص ماركس إلى نتيجة تقول بأنه (لا يمكن إنقاذ الفن إلا عن طريق إعادة تركيب العلاقات الاجتماعية بشكل ثوري، إن الثورة الاجتماعية وحدها لقادرة على خلق إمكانات غير محددة لتقدم الحضارة الفنية الإنسانية وتطورها إلى ما لا نهاية). وهكذا يربط ماركس وأنغلز المسائل الأساسية في علم الجمال بقضايا الثورة البروليتارية، ويريان أن البروليتاريا هي الحامل الحقيقي لمشعل التقدم في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة.

ويمضي المؤلفان إلى القول بأن «عداء الرأسمالية للفن لا يمكن التخلص منه بالاعتماد على الفن ذاته، بل هناك طريق واحد، وهو طريق القضاء على الرأسمالية، وإيجاد شكل جديد للمجتمع، والذي هو النظام

(١) المصدر السابق نفسه ص ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٣٦.

الاشتراكي، ولقد أثبت التاريخ أن ماركس وأنغلز كانا مصيبين تماماً في استنتاجهما هذا، وما يدعم استنتاج ماركس وأنغلز هو:

١- كون الأزمة الفنية في الفن البورجوازي المعاصر تبدو عميقة جداً، فهذا الفن يبدو من خلال أشكاله المتطرفة لا موضوعياً تماماً.

٢- نجاحات الفن الواقعي الاشتراكي البائنة للعيان.

٣- ولا يجوز فهم الاتجاهين المذكورين لتطور الفن العالمي فهماً سطحياً، فهما يسيران بشكل معقد غاية التعقيد، ومتناقض غاية التناقض. ويشير ماركس وأنغلز إلى أن النظام الاشتراكي وحده هو الذي يضمن حرية الفرد الحقيقية، لأنه ينهي وإلى الأبد كل استغلال يمارسه إنسان على آخر، لقد تنبأ ماركس وأنغلز بأن الفن في المجتمع الشيوعي المقبل سيحرز نجاحات عظيمة لم يعرفها أي عصر من العصور التاريخية، لقد أثار مؤسسا الماركسية ببحوثهما في علم الجمال طريق المستقبل للفن بشكل خلاق<sup>(١)</sup>.

إن الأزمة التي يعانيها (الإبداع الجمالي) في ظلال الماركسية لا تقتصر على المرحلة (الستالينية) كما قد يبدو للوهلة الأولى، وكما قد يحتج بعض الماركسيين. إذ أننا نجد (أراغون) الشاعر الفرنسي المعروف، والشيوعي السابق وهو يقدم لكتاب (روجه غارودي) «واقعية بلا ضفاف» في فترة ما بعد الستالينية، ينعى على الماركسيين ما يسميه «بالتطبيق العقائدي الجامد سواء في مجال التاريخ أو العلوم أو النقد الأدبي» و«اعتماد الحجج الدامغة والاستشهاد بالكتب (المقدسة) - ويقصد بها كتب ماركس ولينين - ذلك الاستشهاد الذي يكمل الأفواه ويجعل المناقشة مستحيلة» ويمضي (أراغون) إلى القول: «إنني سأكتفي هنا بمثل في الحقل الأدبي، فما أكثر ما استخدمت نصوص لأنغلز، التي تحدد الوضع السليم للبلازك، لسحق كل ما

(١) «موجز تاريخ نظريات الجمال» ص ٤٣٤.

هو لغير بلزاك، ذلك أن أنغلز كان قد أبدى إعجابه يوماً ببلزاك!!» وهكذا جاء من توهموا أنهم ماركسيون بنظام تدرج هرمي لا يمكن المساس به، غافلين عن أنه إذا كان أنغلز لم يتكلم عن (ستندال) فذلك لأنه لم يقرأه، ولم يدرك هؤلاء أن المثل الذي ضربه أنغلز ببلزاك ليس النص أو القول الفصل في بلزاك، بل مسلك أنغلز إزاءه، وأن الاقتداء بهذا المثل لا يجوز أن يتحول إلى تلاوة لصلاة، بل يعني القدرة على استيعاب أفكار ماركس وأنغلز في مواجهة حدث آخر<sup>(١)</sup>.

وردود الفعل السلبية التي أحدثتها رواية (الدكتور زيفاجو) للشاعر الروسي (بوريس باسترناك) في الاتحاد السوفيتي، إنما تمت في أواخر الخمسينيات، أي فيما بعد العصر الستاليني.. وبالرجوع إلى بعض تفاصيل (الأزمة) في عدد من المؤلفات النقدية من مثل «شجاعة العبقري» لروبرت كونكويست و(الصرخة المختنقة) لسترايتشي.. يتبين لنا كيف أن المسألة لا تقتصر على حاكم سوفيتي دون آخر، وإنما تمتد ستخطية كل المراحل بسبب من أنها تصدر عن أرضية فكرية تريد أن تضبط الأديب في قالبها الصارم، وتقلّم توجهاته الإبداعية.. ويبقى (الموقف) مختلفاً، بين الحين والآخر، في الدرجة وليس في النوع<sup>(٢)</sup>.

٨

على الجانب الآخر تماماً من تعامل الفكر الغربي مع الأدب تبرز فكرة الالتزام الوجودية التي قال بها (سارتر) وتلامذته: «إذا كان هذا مبدأ الالتزام - يقول سارتر - فبم تمكن معارضته؟ وعلى الأخص بم عارضوه؟ لقد بدا لي

(١) روجيه غارودي (واقعية بلا ضفاف) المقدمة ص ٨-٩.

(٢) للاطلاع على مزيد من التفاصيل بصدد هذه النقطة بالذات، انظر بحثاً للمؤلف بعنوان (الأدب في مواجهة المادية) في كتاب (حول استراتيجية الأدب الإسلامي) (قيد النشر).

أن خصومي غير متحمسين كبير الحماسة للعمل، وأن مقالتهم لا تحتوي أي شيء سوى تنهدة استنكار طويلة، تجر نفسها على عمودين أو ثلاثة من أعمدة الصحف، كنت أود لو أعرف باسم ماذا، أو باسم أي تصور عن الأدب يدبنوني؟ لكنهم لم يقولوا ذلك، بل إنهم أنفسهم لا يعرفونه، لقد كان أكثر شيء منطقي فعلوه هو دعم دعواهم بنظرية الفن للفن القديمة، لكن ما من أحد منهم يستطيع أن يقبل بها، لأنها تخرج أيضاً، إنهم يعلمون أن الفن المحض والفن الفارغ شيء واحد، وإن المحضية الجمالية لم تكن إلا مناورة دفاع ذكية لبورجوازيي القرن الماضي، أولئك الذين كانوا يفضلون أن يفضحوا كعامين لا يفقهون في الأدب شيئاً على أن يفضحوا كمستغلين. إذاً لا بد للكاتب، باعترافهم هم أن يتكلم عن شيء ما..»<sup>(١)</sup>.

فإذا كان الالتزام الماركسي يحاول أن يلوي عنق الإبداع الأدبي لكي يخضعه للمقولات المسبقة، والاقتصادية منها على وجه الخصوص، فإن الالتزام الوجودي يقوم على نفي تام لكل القيم والمقولات والعقائد المسبقة.. بعدها يتوجب على الأديب الوجودي أن يكون له رأي، أو موقف، أو حكم، أو تحيز.. لكل تجربة واقعية أو ممارسة مشهودة.

وحتى ها هنا، فإن الأديب يمارس التزامه على «هواه» ووفق ما يشتهي، فهو يختار أو يحكم من خلال قناعاته الذاتية الصرفة، وليس ثمة وراءها أية إضاءة أو قناعة ذات طابع أكثر شمولية وامتداداً..

والوجوديون بهذا أشبه بأولئك الذين يصفهم القرآن الكريم بأنهم ﴿إِنْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾<sup>(٢)</sup>.. ولن يستطيع أحد أن يرغم الوجودي على قبول ما لا يرتئيه، أو يظنه صواباً، أو تهواه نفسه، ما دامت عقيدته - إذا جازت التسمية - تخوله في ذلك، وتمنحه الحق المطلق.

(١) «الأدب الملتزم» ص ٦٧.

(٢) النجم ٢٣.

يقول سارتر: «قد تسألون: ملتزم بماذا؟ إذا قلنا بالدفاع عن الحرية كان جوابنا سريعاً: هل القضية أن نكون حراساً للقيم المثالية، أم علينا أن نحمي الحرية العينية اليومية بخوضنا المعارك السياسية والاجتماعية؟»<sup>(١)</sup> ويقول: «إننا إذا ما اعتبرنا المواضيع مشكلات مفتوحة دوماً، نداءات، انتظارات، فهمنا أن الفن لا يخسر شيئاً بالالتزام، وبالعكس فكما أن الفيزياء تطرح على الرياضيين مشكلات جديدة، ترغمهم على ابتكار رمز جديد، كذلك فإن المقتضيات المتجددة دوماً لما هو اجتماعي، أو للميتافيزيقا، تلزم الفنان بأن يجد لغة جديدة وتكنيكاً جديداً»<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن عملية الهدم الواسعة التي تقوم بها الوجودية، التي تدعي أن الإنسانية قد قامت، أو أخذت تقوم بها، إنما ترمي إلى تحرير الإنسان، وجعله سيداً لنفسه، ومحققاً لوجوده، فهي تقصر حقيقته على وجوده الفعلي، وعلى مجموعة ما يأتيه من أفعال، وما يصدره من أحكام بحريته المطلقة التي لا يتحكم فيها إله ولا مثل ولا قيم متوارثة ولا عادات أو تقاليد، وإنما يتصرف الإنسان بحريته المطلقة متخلصاً من كل المبادئ والأحكام السابقة، ولكن الوجودية، مع ذلك، لم تترك للإنسان الحرية مطلقة الزمام بغير هدف ولا غاية، أي لا تجعل من تلك الحرية غاية في ذاتها، فتقلب إلى ما يشبه الفوضى.. وإنما ترتب على حرية الفرد نتيجة خطيرة، وهي المسؤولية، والتزام بالقول والفعل، ولذلك نادى وجوديتهم بالأدب الملتزم، أي الأدب الذي يتخذ له - هدفاً سياسياً - التزام موقف أخلاقي واجتماعي محدد، من كل حدث فردي أو اجتماعي أو وطني، وبذلك جعلوا القيمة الفنية والجمالية للأدب في المرتبة الثانية بعد القيمة الأخلاقية والاجتماعية الملتزمة، وهكذا يتضح كيف أن الأدب الوجودي

(١) «الأدب الملتزم» ص ١٠٣.

(٢) نفسه ص ٦٧.

أدب التزامي، وإن يكن من الواجب أن نميز بين أدب الالتزام وأدب الفكرة أو الرسالة، فالأدب الملتزم لا يخترع رسالة أو يبشر بقيمة من القيم، بل هو أدب يهدف إلى تصوير الواقع، ويقول بأن الوجودية ذاتها واقع لا قيمة، ولكنه يدعو في نفس الوقت إلى إصدار حكم، صراحة أو ضمناً، على كل حادثة أو موقف على أن يكون هذا الحكم حراً صادراً عن تقديره الشخصي الذاتي لا مستنداً إلى قيمة سالفة<sup>(١)</sup>.

إنهما - في نهاية المطاف - التزامان متناقضان بالكلية، أحدهما - وهو الماركسي :- يتعلق بأذيال الطبقة في قلب الجماعة، والآخر - وهو الوجودي - يتعلق بأذيال الفرد، ومن خلال هذا التطرف في جانبيه يضيع الإنسان وتضيع الجماعة، ويفقد الأدب قدرته على أن يقوم بدور الإنسان الشامل، ويغدو الالتزام متعارضاً - بشكل أو بآخر - مع مطامح الإنسان ومثله العليا.

وما دمننا بصدد الحديث عن الالتزام الوجودي، فلا بد من الإشارة إلى موقف (سارتر) المعروف من مسألة الشعر والالتزام.. إنه يرفض مقولة الالتزام الشعري، ويرى أن الشاعر غير قادر بالكلية على التحقق بالالتزام في معطياته.. ذلك أن الشعر غير النثر، إذ أن كلماته وصيغه وتراكيبه الجمالية ومعانيه تتفلت من يد الشاعر، وتتخلق بعيداً عن قدرته وإرادته ووعيه.. والالتزام قدرة إرادية واعية يتوجب أن يكون صاحبه قادراً تماماً على كلماته، متمكناً من أدواته لكي يحقق القيم التي يلتزم بها، أو يدعو إلى الالتزام بها، ويعمقها ويمد مساحاتها.. يقول (سارتر): «إنه لسخف أن نطالب بالالتزام شعري، فما لا شك فيه أن الانفعال والهوى - وكذلك الغضب والسخط الاجتماعي والكراهية السياسية - هما مصدر كل قصيدة،

(١) د. محمد مندور: «الأدب ومذاهبه» ص ١٤٣-١٤٥ (مقتطفات).



لكنهما لا يعبران عن نفسيهما فيها، كما في المقالة الهجائية أو في الاعتراف، فكلما عرض الناثر عواطف ما أوضحها، أما الشاعر فهو على النقيض من ذلك، إنه يكف عن تعرف أهوائه إذا ما صبها في قصيدة، فتأخذها الكلمات، وتتغلغل فيها وتمسخها، ولا تعود تدل عليها حتى في نظره، لقد تشبأ الانفعال، وصارت له الآن لا شفافية الأشياء، لقد اختلط بالخاصيات المتلبسة للألفاظ التي صب فيها. . لكن إذا كان محرماً على الشاعر الالتزام، فهل هذا سبب لنعفي الناثر منه؟ أي شيء مشترك بينهما؟ الناثر يكتب، هذا صحيح، والشاعر يكتب أيضاً، ولكن ليس بين هذين العاملين الكتابيين شيء مشترك سوى حركة اليد التي تخط الحروف. أما عالماهما فيما دون ذلك فيقيان بمعزل عن بعضهما البعض وما يصلح للأول لا يصلح للثاني. إن النشر نفعي بماهيته، وأنا أستطيع بسهولة أن أعرف الناثر بأنه إنسان يستخدم الكلمات. . إن الكاتب يسمي، يشير، يأمر، يرفض، يستفهم، يتضرع، يهين، يقنع ويلمح، وإذا ما فعل ذلك في الفراغ فإنه لا يصبح لهذا السبب شاعراً، بل مجرد ناثر يتكلم كيلا يقول شيئاً. .<sup>(١)</sup>

وموقف (سارتر) هذا من الإبداع الشعري ليس غريباً كل الغرابة، ولا هو بالمرفوض كلية، إذ أنه يقترب بنا خطوات من الرؤية القرآنية التي تطرح مقولة (الهيمن الشعري) التي مرت بنا في بدء الموضوع ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ (١٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ<sup>(٢)</sup>، فالقرآن الكريم يؤكد من جهته على انزلاقية الشعر وجره أقلام

(١) «الأدب الملتزم» ص ٦٠-٦١ ويعد هذا الكتاب بمقدمته وفصوله الستة، أدق وأوسع وثيقة عن نظرية الالتزام الوجودي، أما هذه الفصول فهي : تأميم الأدب، ما هو الأدب، ما الكتابة، لماذا نكتب، لمن نكتب، موقف الكاتب عام ١٩٤٧.

(٢) الشعراء ٢٢٤-٢٢٦.

الشعراء إلى ازدواجية قاسية بين القول والفعل . . وإلى صعوبة السيطرة على الأداة الشعرية للوقوف بصلابة ووضوح تحت ظل هذه القيم أو تلك، وللدعوة إلى هذا المبدأ أو ذاك .

لكن نظرة (سارتر) تقف بالأمر عند منتصف الطريق، وتتشبث - كعادة الغربيين - بالرؤية أحادية الجانب، وتمارس خطيئة التعميم . .

ذلك أننا لو مضينا في التحليل، فإننا سنجد، من خلال المنظور القرآني نفسه، كيف أن قوة الإيمان والممارسة، قادرة على تطويع الأداة الشعرية لتحقيق الالتزام المرتجى . . ليس هذا فحسب، بل إنها قادرة على تحقيق التوحد الكامل بين الشاعر والموقف ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُقَلَّيْ يَقِيلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

إن الكلمة بمقدورها أن تقاتل، وأن تضرب الأهداف . . أن تتجاوز التأرجح والضبابية، والتخلق الذاتي غير المنضبط، والهيمنان . . صوب الصلابة، والتكشف، والوضوح، والانتماء، والانضباط، والتناسق . .

مهما يكن من أمر، فإنه إذا كان الالتزام الماركسي يحول القصيدة إلى نشيد طبقي ذي نغمة دعائية مباشرة . . فإن الالتزام الإسلامي يقف - كعادته - موقفاً وسطاً من الشعر، فلا يخرج من دائرة الالتزام بحجة عدم القدرة على تطويعه، ولا يحيله إلى مجرد أداة للدعاية . . ولكن يضعه موضعه الحق على ضوء القدرة البشرية على تحويل المادة الشعرية إلى ممارسة تعبيرية، يتوحد فيها القول بالعمل، ويلتقي الظاهر بالباطن، وتتحد الكلمة بالسلوك.





# الفصل الثالث

## الإسلامية والمذاهب الأدبية

## ١

إن فن الأدب، بصيغه كافة، إنما هو خبرة بشرية عامة، لم يستأثر بها شعب دون شعب، ولا تفردت بمعطياته أمة دون أخرى.

كافة الشعوب والأقوام والجماعات كان لها دورها المقسوم في ساحات الأدب، وأرقدت تياره المتدفق بهذا القدر أو ذاك من العطاء والإبداع.

كل الحضارات.. أقامت صرح كيائها على العديد من الإنجازات والإضافات، وكان الأدب - دائماً - واحداً من تلك الإنجازات.. بل كان عملاً من أهم عوامل تفردا وتميزها بين الحضارات..

وبمرور الزمن، ونتيجة عوامل شتى متداخلة معقدة، بعضها ذاتي وبعضها موضوعي، بعضها فردي وبعضها جماعي.. أخذت تظهر وتتميز أنواع أدبية، كل منها كان يحمل سماته المستقلة، وتقنيته الخاصة، وصيغه في التعبير.. فكان هنالك الشعر (الملحمي والغنائي)، وكانت هنالك (الدراما)، كما كانت هنالك القصة والرواية، فضلاً عن أنماط أدبية أخرى أقل شأنًا وانتشاراً.

وكان كل شكل تقني يقدم به هذا النوع الأدبي، أو ذاك، شعراً أم عملاً درامياً أم روائياً.. يتطور وينمو بمرور الوقت، وتشارك خبرات حضارية متباينة في هذا التطوير والإنماء.. حتى إذا ما بلغنا العصر الراهن، وجدنا أنفسنا إزاء تقنيات فنية متقدمة من جهة، ومتنوعة من جهة أخرى.

ويرى الناقد الماركسي إيلسبورغ أن «من الممكن تشبيه الأنواع الأدبية، من حيث ظهورها وتطورها، بما يمكن فهمه من الاصطلاح الخاص Ruslovoi Potok أي تيار يجري في تربة متحركة، ولهذا فهو يشكل مجراه بصورة مستقلة. إن حياة الشعب نفسها، بمصايرها التاريخية، بأحداثها وتقاليدها، بتناقضاتها، بعلاقاتها الاجتماعية وخصوماتها، وتطور الشخصية

الإنسانية وغناها الروحي، باختصار إن مختلف جوانب الواقع نفسه تطلبت قيام الأنواع الأدبية» ويمضي إليسبورغ إلى القول «بأن المضمون الخاص لكل نوع من هذه الأنواع الذي أوجد لنفسه شكلاً خاصاً به، وشق لنفسه مجرى خاصاً به، هذا المضمون جاء منسجماً مع متطلبات الواقع، إن هذه (التيارات المائية) للأدب: الملحمي والغنائي والدرامي، زاد تدفقها قوة باستمرار، رغم أن أمواجه كثيراً ما تختلط مع بعضها بفضل الوشائج العديدة التي تربط بينها جميعاً، محافظة في الوقت نفسه على السمات الخاصة لكل نوع منها، وهكذا فإننا نواجه عملية تاريخية معقدة، تتسم بطابع متميز عند قيام كل نوع من هذه الأنواع.. إن من شأن هذا التشبيه أن يبرز ملامح تلك الحقيقة، وهي أن المضمون الأدبي الذي استدعته المتطلبات الحياتية نفسها، قد بحث لنفسه عن شكل خاص بنوع أدبي (غني بمضمونه) يتناسب وهذه المتطلبات، أما الأنواع الأدبية فهي بمثابة تلك المسالك الأساسية لتطور الأشكال ذات المضامين الغنية. هذه الأشكال الخاصة بالوعي الفني عند البشرية»<sup>(١)</sup>.

إن هذا التحليل مقبول إلى حد ما لو أن التنظير الماركسي لا يلح ذلك الإلحاح المعروف على ربط الإبداع الأدبي، بأنواعه ومضامينه، بالمواسفات الاجتماعية ذات الطابع التاريخي، الطبقي، الصارم، حيث تتأبى عملية الإبداع على الإذعان، وحيث تتحرر، سواء شئنا أم أبينا، من مقولات النسبية الزمنية. بينما نجد أن النقد الماركسي يوجه حملات ضد ما يسميه بنظرية الأدب البورجوازية التي ترفض الإذعان - في تفسيرها للظواهر - لمنطق الشريحة الاجتماعية<sup>(٢)</sup>!!

(١) عدد من الباحثين السوفيت المختصين بنظرية الأدب والأدب العالمي؛ «نظرية الأدب» ص ١٠-١١.

(٢) انظر مثلاً المرجع السابق ص ١٨-١٩.

يقول إيلسبورغ: «إن التصور الخاص بالتغيرات التاريخية للشكل الغني المضمون، خصوصاً لدى الأنواع والأصناف، التصور المستند إلى النظرية اللينينية حول الانعكاس، والذي لا يغيب عن باله أبداً تذكر العوامل الحاسمة، كالخبرة التاريخية، ومتطلبات حياة الشعب، ومضمون الأدب. هذا التصور يقف ضد وجهات النظر المثالية البورجوازية المماثلة. ومما يتطلب الحذر والدحض، من بين وجهات النظر المذكورة، تلك المفاهيم التي تدافع عن وجهة النظر الخاصة بالأنواع والأصناف، وتُنظر إليها على أنها أشكال قبلية ظهرت بمعزل عن التجربة التاريخية»<sup>(١)</sup>.

ونحن بدورنا نرفض القول بأن الأنواع الأدبية تُلقت بمعزل عن التجربة التاريخية.. ولكن أية تجربة تاريخية هذه؟ إنها ليست تلك (التركيبية) التي تجعل كل المعطيات التي تتمخض في مرحلة ما، انبثاقاً عن القاعدة الاقتصادية، وعن الصيغ والعلاقات الإنتاجية على وجه التحديد.. حتى تلك التي تبعد بالكلية عن التأثير المباشر بالإنتاج وبالاقتصاد، والصيغ المادية عموماً: كالتوجهات الدينية والجمالية.. إلى آخره.. ولكنها التجربة التاريخية على امتدادها الواسع، بكل ما تتضمنه من معطيات مادية وروحية، اقتصادية وجمالية، فردية وجماعية، واقعية وغيبية.. تلك المعطيات التي تتبادل التأثير والتأثر، ولكن ليس بالضرورة وفق الصيغة العمودية التي تنبثق فيها سائر الخبرات عن علاقات الإنتاج التحتية.. ألا يتوجب أن نوسع نطاق التحليل، فنضع صيغ التوازي الأفقي للتجربة، جنباً إلى جنب، مع العلاقات البنائية العميقة؟!

إن النوع الأدبي تخلق إبداعاً عبر الزمن، أسهمت في صياغته وهندسته مؤثرات تاريخية، ومنازع ذاتية.. بل إن (الدين) كان له دائماً دور بارز ذو

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢١.

مساحة كبيرة في هذه (العملية)، الدين كتجربة حيوية دافعة للتعبير والتجميل، والدين كمعطيات فورية اعتمدت في كتبها بدءاً من الزبر الأولى، وانتهاء بالقرآن، الكثير من صيغ التعبير الأدبي لhez الوجدان البشري؛ ومنحه القنوات الجديدة.. إن القصة، على وجه التحديد، اعتمدت في الكتب السماوية، وهي قد أسهمت في الوقت نفسه في تخلق هذا النوع الأدبي وبلورته.. هذا إلى أن الكتب السماوية، وبخاصة القرآن، كانت تجد في اللغة، كأداة تعبيرية، خير وسيلة للوصول إلى الإنسان عن طريق تفجير معطياتها الجمالية والتأثيرية إلى آخر المدى..

إنه ما دام أن ماركس قد قال بأن البنى الفوقية تخضع بالضرورة إلى القاعدة المادية التحتية، فإن (التلامذة) سيجدون أنفسهم ملزمين بتحقيق الربط المطلوب بين هذه القاعدة وبين سائر التجارب والخبرات.. وهاهنا بصدد تخلق الأنواع الأدبية، بقيمتها وجمالياتها، يقولون بأنها لا تعدو أن تكون إفرازاً تاريخياً.

إن الآداب والفنون ليست كلها سواء لكي تحكم عليها الماركسية بارتباطاتها الاجتماعية، فإذا كان الأدب مرتبطاً بشكل أو بآخر بالأرضية الاجتماعية في مداها الواسع، وليس في جحورها الإنتاجية، فماذا نقول عن الموسيقى كدافع، وكصيغة جمالية للتعبير؟

الناقد الماركسي الذي تستعصي على مقولة أستاذه الصارمة تلك، بعض المسائل الجمالية والأدبية، يحاول أن يكسر الجدار، ويحدث بعض الثغرات لتحقيق القناة المطلوبة، فيتكلم عن «فرديات الكتاب الإبداعية الفريدة من نوعها والمتكونة بصورة حرة»<sup>(١)</sup> وعن «الخاصية الفردية للإبداع الفني»<sup>(٢)</sup>.. إلى آخره.. أي أنه يجد نفسه مضطراً لقبول بعض المعطيات التي يسميها هو

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٨.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٨.

بالبورجوازية، ویتهم من لا يتقبل هذه المعطيات كجزء أساسي في بنیان نظرية الأدب الماركسي بأنه لم يفهم تماماً الفلسفة الماركسية..

إنه يتوجب البحث فيما هو عقائدي، وما هو غير عقائدي في نظرية الأدب الماركسية، لأن غير العقائدي لا يعني في الحقيقة أية إضافة فلسفية، فضلاً عن كونه مقتبساً من معطيات أخرى، قد تكون مغايرة تماماً للمنظور العقائدي كما رأينا.. ثم إن اعتماداً (فضفاضاً) كهذا يعني تناقضاً من نوع آخر: تناقضاً في صميم (الموضوع)، وذلك - كما رأينا - عندما تجد النظرية نفسها أحياناً في طرق مسدودة، فتقوم بفتح نوافذ على أفكار الآخرين من أجل تمييع الموقف العقائدي غير المقنع، وجعله أكثر إقناعاً، وقد تكون إضافة كهذه منبثقة عن تصور نقيض للماركسية.. ألا يعد هذا نوعاً من التحايل الذي يتم تحت غطاء الفلسفة؟!.

ولنتذكر - على سبيل المثال - ما قاله أوفسيانيكوف وسمير نوبا في كتاب «موجز تاريخ النظريات الجمالية»، وهو كتاب مدرسي يعبر عن حرفة العقيدة الماركسية «يمكن أن تكون حقيقة ونشوء وتطور الفن ودوره الاجتماعي، برأي ماركس وأنغلز، مفهومة فقط من خلال تحليل النظام الاجتماعي، حيث يلعب العامل الاقتصادي الذي هو تطور القوى المنتجة بارتباطها المعقد بالعلاقات الإنتاجية، دوراً رئيسياً فعالاً، وبالتالي فالفن برأي ماركس وأنغلز يكون بحد ذاته جزءاً من عملية التاريخ المتكاملة التي تقوم على أساس مادي، وهو التطور الذاتي للقوى المنتجة، والعلاقات الإنتاجية، وهما وجهان لا ينفصلان عن بعضهما لأسلوب الإنتاج»<sup>(١)</sup>.

فلنقف بعض الوقت عند هذه المقولة، ولنتذكر السؤال الذي طرحه (ويليك) وهو «هل يفرض المنشأ الاجتماعي الولاء والأيدولوجيا

(١) «موجز تاريخ النظريات الجمالية» ص ٤٢٨.



الاجتماعيين؟» وإجابته عليه «إن مواقف شلي وكارلايل وتولستوي لأمثلة واضحة على مثل هذه (الخيانة) من المرء لطبقته».

إن معظم الكتاب الشيوعيين خارج روسيا ليسوا من أصل بروليتاري، وقد أجرى النقاد السوفييت ونقاد ماركسيون آخرون استقصاءات واسعة ليتثبتوا بالضبط من كل من المنشأ الاجتماعي الصحيح والولاء الاجتماعي للكتاب الروس، ولهذا أقام (ساكولين) معالجته للأدب الروسي القريب من عصرنا على تمييز دقيق بين الآداب الخاصة بالفلاحين، بالبرجوازية الصغيرة، بالأنتلجنسيا الديمقراطية، بالأنتلجنسيا المخلوعة عن طبقتها، بالآرستقراطية، وبالبروليتاريا الثورية.

أما في دراسة الأدب الأقدم عهداً، فقد حاول الباحثون الروس أن يستنبطوا تميزات بين الفئات المتعددة وبين الشعب، الموجودة في كل فئة من فئات الأرستقراطية الروسية التي ينتمي إليها كل من بوشكين وغوغول، تورجنيف وتولستوي استناداً إلى ثروته الموروثة، وارتباطاته الأولى. وإن كان من الصعب أن نبرهن أن بوشكين مثل مصالح النبلاء الذين فقدوا أراضيهم، وأن غوغول مثل الملاكين الصغار في أوكرانيا، إذ يمكن فعلاً نقض هذه النتائج، عن طريق الأفكار العامة المنبئة في أعمالهم، وعن طريق تجاوز هذه الأعمال للفئة والطبقة والزمان. . إن الأصول الاجتماعية للكاتب لا تلعب إلا دوراً ثانوياً في المسائل التي يثيرها مركزه الاجتماعي، وولأوه، وأيديولوجيته، لأن الكتاب - كما هو واضح - يضعون أنفسهم في خدمة طبقة أخرى، غالباً، فقد كتب معظم شعر البلاط رجال تبنوا أيديولوجية حماتهم، ولو أنهم ولدوا في منزلة دنيا».

«إن ترتيب طبقات المجتمع ينعكس على ترتيب ذوقه، فعندما ننحط بمقاييس الطبقات العليا تنعكس الحركة أحياناً، فتحل الصدارة مسألة الاهتمام بالفلكلور والفن البدائي، ولا وجود للتلازم الضروري بين التقدم السياسي والاجتماعي وبين التقدم الجمالي، فقد وصلت قيادة الأدب إلى أيدي الطبقة

البورجوازية من قبل أن تصل إليها السلطة السياسية، وقد يتأثر الترتيب الطبقي، بل يلغى أيضاً، في القضايا المتعلقة بالذوق، بفعل اختلاف الأعمار، والاختلاف بين الجنسين، وبفعل فئات وارتباطات معينة.

«.. وبالرغم من تراكم الدلائل، لم يتم التوصل إلى نتائج ذات براهين واضحة على مقدار العلاقة بين إنتاج الأدب وأسس الاقتصادية، أو حتى المقدار المضبوط لتأثير الجمهور على الكاتب، من الواضح أن هذه الصلة ليست صلة اتكال أو إذعان سلبي للمواصفات التي يضعها حامي الفنون أو الجمهور، فقد ينبجح الكتاب في خلق جمهور خاص بهم، والحقيقة كما عرفها كولريدج، أن على كل أديب أن يتكر الذوق الذي يعجبه»<sup>(١)</sup>.

وبعد مناقشة مستفيضة للموضوع، معززة بالشواهد التجريبية، يصل (ويليك) إلى القول بأن «من المستحيل أن نقبل نظرية تجعل من أية أفعال إنسانية (بداة) لكل الفعاليات الأخرى، سواء أكانت نظرية (تين) التي تشرح الإبداع البشري عن طريق ترابط العوامل الإقليمية والبيولوجية والاجتماعية، أو.. نظرية (هيغل) والهيغليين الذين يعتبرون (الروح) القوة المحركة الوحيدة في التاريخ، أو الماركسيين الذين يشتقون كل شيء من أنماط الإنتاج، إذ لم تظهر أية تغيرات تكنولوجية في القرون العديدة بين أوائل العصور الوسطى وظهور الرأسمالية، في حين أن الحياة الثقافية - والأدب منها بخاصة - مرت بأعمق التحولات.

كما أن الأدب لا يظهر دائماً - وعلى الأقل فوراً - اطلاعه الواسع على التغيرات التكنيكية في العصر، فالثورة الصناعية لم تنفذ إلى الروايات الإنكليزية إلا في أربعينيات القرن التاسع عشر - مع أليزابيث غاسكل، وكينغزلي، وشارلوت برونتي - وذلك بعد أن ظهرت أعراضها بزمان طويل واضحة للمفكرين الاقتصاديين والاجتماعيين».

(١) «نظرية الأدب» ص ١٢٢-١٢٣، ١٢٨-١٢٩.

لا بد أن يعترف المرء بأن الوضع الاجتماعي يبدو وكأنه يحدد إمكانية تحديد قيم جمالية معينة، وليس القيم ذاتها، ونستطيع أن نحدد بخطوط عامة الأشكال الفنية المحتملة في مجتمع معين، والأشكال غير الممكنة فيه، ولكن من غير الممكن أن نتنبأ بأن هذه الأشكال ستظهر فعلاً إلى الوجود، وقد حاول عدد من الماركسيين - ولم تقتصر المحاولة عليهم وحدهم - محاولات مبتسرة فجّة للانتقال من الاقتصاد إلى الأدب، فقد عزا (جون ماينارد كينز) - وهو رجل ليس بعيداً عن الأدب - وجود شكسبير إلى حقيقة أننا : (كنا قد وصلنا إلى مركز اقتصادي نستطيع فيه أن نمول شكسبير في اللحظة التي قدم فيها نفسه، إن كبار الكتاب يتألقون في جو الرخاء والانتعاش، وفي جو التحرر من المسؤوليات الاقتصادية التي تشعر به الطبقة الحاكمة، والذي ينشأ من تضخم الربح).

«على أن تضخم الربح لم يظهر إلى الوجود شعراء كباراً في مكان آخر من العالم - على سبيل المثال خلال فترة الازدهار الاقتصادي في عشرينيات هذا القرن في الولايات المتحدة - كما أن هذا الرأي المتفائل عن شكسبير لم يسلم من الطعن، وليست نظرية العكس أكثر إفادة في هذا المجال، فمن رأي أحد الماركسيين الروس أنه: (كانت النظرة المأساوية العامة لشكسبير إلى العالم، نتيجة كونه التعبير المسرحي عن الارستقراطية الإقطاعية التي فقدت في أيام الملكة أليزابيث مركز السيطرة الذي كان لها فيما سلف). . مثل هذه الأحكام المتناقضة، المتعلقة بمقولات غامضة، كالتفاؤل والتشاؤم، تخفق في أن تعالج معالجة محددة المضمون الاجتماعي الذي يمكن التحقق منه في مسرحيات شكسبير، أو آراءه المعلنة حول القضايا السياسية (وهي تتضح من المسرحيات التي تعالج وقائع معينة) أو مركزه الاجتماعي ككاتب.

ويمضي (ويليك) إلى القول بأنه «إذا كان التقدم - بالمعنى الماركسي يسير مباشرة من الإقطاعية عبر الرأسمالية البورجوازية إلى (ديكتاتورية البروليتاريا) فمن المنطق والاستقامة لكل ماركسي أن يطري (التقدميين) في

أي وقت . . عليه أن يثني على البورجوازي الذي حارب الإقطاعية الباقية في المراحل المبكرة من الرأسمالية، لكن الماركسيين في الأغلب ينتقدون الكتاب من وجهة نظر القرن العشرين، أو إنهم يكونون مثل سميرنوف وجريب شديدي التحرج من (علم الاجتماع الغث) فينقدون الكاتب البورجوازي عن طريق الاعتراف بإنسانيته الشاملة».

«وعلى هذا المنوال توصل سميرنوف إلى استنتاج أن شكسبير (كان المفكر الأيديولوجي للمذهب الإنساني لدى البورجوازية، ونصير البرنامج الذي قدمته، حين تحدث النظام الإقطاعي باسم الإنسانية). ولكن مفهوم المذهب الإنساني عن عمومية الفن يتخلى عن العقيدة الأساسية للماركسية، التي هي نسبة في جوهرها»<sup>(١)</sup>.

ويخلص (ويليك) إلى حقيقة «أن الماركسية لم تجب مطلقاً عن مسألة درجة اعتماد الأدب على المجتمع، ولذا فإن العديد من المشكلات الأساسية لم تكذبداً دراستها، فمن النادر مثلاً أن يرى المرء مناظرة حول التحديد الاجتماعي للأنواع الأدبية، كما هو الحال في الأصل البورجوازي للرواية، بل حتى في تفصيلات اتجاهات هذه الأنواع وأشكالها. إن رأي إي. بي بورغوم مثلاً غير مقنع، فهو يقول: إن المأساة - الملهاة: (نتجت عن الدمغة التي طبعها جديّة الطبقة الوسطى على لهو الأرستقراطية). فهل توجد عوامل اجتماعية محدّدة حاسمة لأسلوب أدبي فسيح كالرومانتيّة التي كانت ضد البرجوازية في أيديولوجيتها، ولو أنها ارتبطت بها منذ نشأتها الأولى، في ألمانيا على الأقل، ومع أن بعض اعتمادات الأيديولوجيات والموضوعات الأدبية على الظروف الاجتماعية يبدو واضحاً، فإن الأصل الاجتماعي للأشكال، والأساليب للأنواع الأدبية، وقواعد الأدب الفعلية لما يتأكد تأسيسها»<sup>(٢)</sup>.

(١) نفسه ص ١٣٥-١٣٦، ١٣٧-١٣٨.

(٢) نفسه ص ١٣٩-١٤٠.

وقد كان للمضامين الأدبية، المطروحة من خلال الأنواع الأدبية المعروفة، رحلتها التاريخية هي الأخرى.. ونموها وتطورها هي الأخرى.. ولكننا يتوجب أن نضع نصب أعيننا ملاحظتين اثنتين تفرقان بين رحلة التقنية، ورحلة المضمون عبر التاريخ، مع طرح التحفظ التقليدي حول الارتباط الوثيق بين الجانبين.

فأما أولى هاتين الملاحظتين فهي أن التقنية مسألة تكاد تكون عامة، أي عطاء مشتركاً بين الشعوب والحضارات كافة، لكونها في كثير من الأحيان، تحمل طابعاً حياً، لا يميل صوب هذا الاتجاه أو ذاك إلا من خلال المضمون الذي يحمله.. بينما كانت المضامين، في معظم الأحيان، ألصق بالنسيج الحضاري الذي تخلفت آدابها فيه: تصوراً وفلسفة، ورؤية للحياة والوجود، وسلوكاً وخبرات، وعملاً يومياً.. قد تلتقي هذه المضامين عند الإنسان، ولكنها تفرق في الرؤية التي تقدمها عن مركز الإنسان في الكون، وفي فلسفتها إزاء وجوده ومصيره.

وأما ثانية الملاحظتين فهي أن أنماط الأنواع الأدبية، باعتبارها تقنيات جمالية صرفة، كانت تتطور باستمرار، وتزداد تفاريعها ومعطياتها، وكأن الزمن في خدمة هذا التطور بالنسبة لمسألة هي أقرب ما تكون إلى علم حيادي، ذي قواعد دينامية قابلة للتطوير والتحوير.

ويلقي (ويليك) بعض الإضاءات على دينامية التغير هذه فيقول: «يفترض نموذج من الحلول المطروحة، بأن في التقدم الأدبي يتم بلوغ مرحلة من الإجهاد تستدعي ظهور شرعة جديدة، ويصف الشكليون الروس هذه العملية بأنها عملية (أتمتة) Automatzation أي أن صناعات حرفة الشعر التي كانت فعالة في زمنها تغدو رثة ومبتذلة، بحيث يغدو القراء الجدد معبئين ضدها،

ويتوقون إلى شيء مختلف، شيء من المفروض أن يكون مخالفاً لما سبق، فالنوسان المتبدل هو خطة التطور، ويتم بسلسلة من الانتفاضات، تقود دائماً إلى ممارسات جديدة في لغة الأدب والموضوعات وسائر الوسائل الفنية الأخرى، على أن هذه النظرية لا توضح لماذا كان على التقدم أن يسير في الاتجاه الخاص الذي اتخذه لنفسه. إن مخططات النوسات غير كافية بشكل واضح لتصف العملية بكامل تعقيدها، وقد يلقي أحد شروح هذه التغيرات في الاتجاه العبء على كاهل التدخلات والضغوط التي يمارسها الوسط الاجتماعي، فكل تغير في العرف الأدبي إنما يسببه صعود طبقة جديدة، أو على الأقل فئة من الناس ممن يبتكرون فنهج الخاص: في روسيا قبل ١٩١٧ حين ساد التفريق الواضح بين الطبقات والاندماج فيها، أمكن في الأغلب تأسيس تبادل وثيق بين التغير الاجتماعي والتغير الأدبي، إلا أن هذا التبادل أقل وضوحاً في الغرب، وينهار كلما ابتعدنا عن أكثر الفروق الاجتماعية وضوحاً، وعن الكوارث التاريخية».

«.. على وجه العموم، إن مجرد تغير الأجيال أو الطبقات الاجتماعية ليس كافياً لشرح التغير الأدبي، فهو عملية معقدة تختلف من مناسبة إلى مناسبة، وهو في جزء منه داخلي يرجع إلى الإنهاك والرغبة في التغير، ولكنه في جزء آخر خارجي أيضاً، يرجع إلى التغيرات الاجتماعية والثقافية، وبقية التغيرات الفكرية الأخرى»<sup>(١)</sup>.

أما المضامين فأمرها يختلف، ومرور الزمن لا يعني - بالضرورة - حركة معطياتها باتجاه المزيد من التطور والنضج والتقدم.

إننا قد نجد مضامين أعمال أدبية طرحت في فجر الحضارة، أو في عصور متقدمة، أقرب إلى الحقيقة، وألصق بالقيم الجمالية، وأدنى إلى اهتمامات الإنسان ومطامحه من مضامين أخرى طرحت في هذا القرن أو

(١) نفسه ص ٣٥١-٣٥٣.

القرون القريبة التي سبقتها، لكنها مارست تزيفاً للحقيقة، وتدميراً للقيم الجمالية، ووقفت ضد اهتمامات الإنسان ومطامحه وليس معها!!

إننا يجب أن نضع هاتين الملاحظتين في حسابنا دائماً ونحن نقرب من الحديث عن المذاهب الأدبية.. ولكن يجب ألا نغفل خلال ذلك عن حقيقة لا تقل أهمية، وهي أن الشكل، أو التقنية، ترتبط في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان بالمضمون، فتؤثر فيه وتتأثر به، وتكون بينهما علاقة تبادلية تجعل من الصعوبة بمكان فك الارتباط بينهما، ومعالجة كل منهما على انفراد، كما سنرى بعد قليل.

وعلى أية حال، فإنه بمرور الوقت كذلك، ومن خلال تلاقي الخبرات، ولقاء المعطيات والتأثيرات الحضارية، والتبادل التأثيري بين الأشكال والمضامين.. تخلقت مذاهب أدبية، بهذا الاتجاه أو ذاك، وسادت في هذه المرحلة التاريخية أو تلك، وقدست سبل معطياتها الأدبية، التي كَوّن تجمعها على صعيد واحد الأسس المذهبية العامة لهذا المذهب الأدبي أو ذاك.

وما كانت هذه المذاهب لتنبثق، وتأخذ ملامحها المتفردة، عن المضامين فحسب، بل لقد لعبت الصيغ التقنية دورها الخطير في تحديد (المذهب الأدبي) ومنحه الهوية الخاصة.

### ٣

ما هي طبيعة الرؤية الإسلامية للمذاهب الأدبية شكلاً ومضموناً؟ وهل (للإسلامية) مذهبها الأدبي المتميز على المستويين؟

في منتصف الستينيات كتبت مقالاً بعنوان «نظرات في الفن الإسلامي»<sup>(١)</sup> جاء فيه أن «الفن الإسلامي فن منفتح على شتى المذاهب الفنية، ما دامت

(١) انظر كتاب «في النقد الإسلامي المعاصر» للمؤلف ص ٤١-٤٢.

منسجمة في اتجاهها وتفاصيلها مع حركة الكون والإنسان الإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين، وفي إطار الجمال المبدع، بعيداً عن الكذب والتزييف والتناقض. إنه مرن بحيث يتسع لكل المذاهب ويزيد عليها سعة نظراته الكونية وعمقها وشمولها.

إنه (كلاسيكي) حين يعبر عن التناسق الرائع للأشياء والقيم الخارجية، وحين يمجّد بطولة الإنسان وإيجابياته إزاء الأحداث، وقدرته على تشكيل مصيره..

إنه (رومانسي) حين يعبر عن أعماق الإنسان، وعن تجاربه الشعورية المتنوعة التي تنبثق عن الإيمان بالله، وعن الحب الكبير الذي يتفجر عن هذا الإيمان، ويتجه صوب كل الناس وكل الأشياء.

إنه (واقعي) حين يعلن ثورته الانقلابية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وعلى كل الطواغيت التي لا تقرها وحدانية الله، والتي يأبأها التحرر الوجداني للإنسان المسلم، ذلك التحرر الذي يبدأ من أعماقه لينتهي بالكون..

(واقعي) حين يصرخ في وجوه القوى المتسلطة التي تعذب الإنسان بالظلم الاجتماعي، وبالتناقض الطبقي بشتى مستوياته، وبخنق حريته والاستهانة بكرامته.. (واقعي) حين يعبر عن لحظات الضعف البشري أمام شتى المغريات، (ولكنه لا يسلط عليها الأنوار باعتبارها لحظة الانتصار، ولكن باعتبارها لحظة الضعف)<sup>(١)</sup> التي يستمد منها الإنسان القدرة على الصعود.

(١) انظر كتاب محمد قطب: «منهج الفن الإسلامي» فصل «الواقعية في التصور الإسلامي» ص ٦٦-٩٤.



كما أنه (وجداني) في تعبيره عن نظرة الإنسان الشخصية المستمدة من تجربته الإيمانية. . (وجداني) في تعبيره عن أعمق مجريات الإنسان النفسية وأحداث عالمه الباطني، تلك التي تسعى به دوماً إلى التناغم، والتآلف والتعاطف مع سائر الخلائق والأشياء.

إلا أنه فن يأبى الانحراف. . يأبى - مثلاً - تأليه الإنسان (كلاسيكياً)، وإغراقه الذاتي الأناني (رومانسياً)، وتمجيد لحظات الضعف البشري (واقعياً)، وتصوير الانحراف الفكري أو النفسي أو الأخلاقي (وجودياً). . فليس ثمة عبث، و(لا جدوى) كما يرى (كامي)، وليس ثمة لا معقولة للحياة والوجود كما يرى (كافكا)، وليس ثمة حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى (سارتر)، وليس ثمة تناقضات نفسية لا نهاية لها، تنتهي دائماً بالضياع كما يرى (ديستوفسكي).

ذلك أن الفن الإسلامي يستمد تجاربه الباطنية من خلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، فلوجود غاية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١)</sup> ولكدح الإنسان جدوى ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْآدِنَ﴾<sup>(٣)</sup>. . وللحياة معقولة لأنها صدرت عن إرادة الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. . وحرية الإنسان عميقة في كيانه، لكنها ليست حرية الفوضى الخلقية التي تنتهي دائماً بتهديم الإنسان وتمزق علاقته مع الوجود الخارجي من حوله. . وتجارب الإنسان الذاتية ليست كلها تناقضات وأضداداً نفسية ووجدانية، ذلك أن الذي يصدر عن الإيمان بالله يجد في كيانه طاقة ضخمة، تسعى

(١) المؤمنون ١١٥.

(٢) الانشقاق ٦.

(٣) النجم ٣٩-٤١.

لتجميع تجاربه النفسية هذه، وتوجيهها في خط صاعد هدفه التوحد والائتمان الذاتي والانسجام.

وخلاصة القول: أن إطار الفن الإسلامي إطار كوني ملتزم، وإنساني إيماني، وثوري توحيدي، وأخلاقي إيجابي، وكما يعبر الإسلام عن مرونته الفنية في قضية المحتوى الفني، فإنه يملك ذات المرونة في مسألة (الشكل)، فهو مفتوح للتعبير عن التجربة الفنية بأية وسيلة كانت: الكلمة، الصوت، الحركة، التشكيل، .. ضمن الإطار الذي يرتضيه .. ذلك أن إحدى معجزات القرآن الكريم نفسه تقديمه أمثلة علياً للأداء الفني الذي يعتمد الكلمة والموسيقا والصورة الفنية، في وحدة متجانسة، رائعة تعبر عن مثل أعلى للعطاء الفني<sup>(١)</sup>.

ورغم أن المقال أشار إلى عيوب المذاهب الأدبية المعروفة، وأن الفن الإسلامي يرفض الانجراف معها باتجاه هذه العيوب، ورغم أنه أشار عرضاً إلى ملامح الفن الإسلامي، وأنه كوني ملتزم، وإنساني إيماني .. إلى آخره .. فإن المقال وقع في خطأ الخلط بين الإسلامية والمذاهب الأخرى، بتأكيد على أن الأدب الإسلامي يمكن أن يكون أدباً كلاسيكياً أو رومانسياً أو واقعياً .. إلى آخره .. من خلال صيغ الطرح التي يتضمنها.

نفس الخطأ وقع خلال نقد إحدى المجموعات القصصية (لمحمود مفلح) حيث ترد العبارات التالية «إن الالتزام الفني ليمثل ولا ريب ضغطاً على الفنان، بهذا الاتجاه أو ذاك، لأنه يحتم عليه سياقاً معيناً في المضامين، وإن هنالك حيلة فنية يمكن أن يعتمد عليها الفنان لتحمل هذا الضغط وتحويله إلى تيار من الإبداع الفائق .. تلك هي عدم التشنج على مذهب فني واحد في الأداء، ومحاولة الإفادة من معطيات المذاهب الفنية كافة: كلاسيكية جديدة

(١) في النقد الإسلامي المعاصر ص ٤١-٤٢.

ورومانسية وواقعية وطبيعية وتعبيرية ورمزية وسريالية وميتافيزيقية ومستقبلية..  
أن يتحرر من الالتصاق بمذهب فني بعينه، وأن ينتقل بينها بانتقاء موزون كيلا  
يفقد عمله الفني تناسبه الجمالي المطلوب، ولم لا ما دام أن المذهب الفني  
هو مجرد أداة للتعبير، قد ترتبط بالمضامين حيناً، وقد تنفصل عنها أحياناً؟  
إنها بمرور الوقت، وبتجاوزها مرحلة الارتباط بالبدايات تغدو أكثر حيادية  
وقدرة على التوظيف لخدمة أي فكر وأي مضمون..

فماذا لو اعتمد الفنان المسلم تيار الوعي الخاص المتدفق في عالم  
إبطاله الداخلي، متجاوزاً مقاييس الزمن والمكان والشكل الخارجي  
للشخصية، كما يدعو رواد مدرسة الرواية الجديدة؟.

ماذا لو توغل في صميم العقل الباطن.. في الحلم.. كما يفعل  
السرياليون؟

ماذا لو تجاوز الواقع إلى المستقبل، والطبيعة إلى ما وراءها كما يفعل  
الميتافيزيقيون والمستقبليون؟

ماذا لو اعتمد قدرات اللغة العربية الفذة، ومفرداتها الموحية المرنة  
للتكنية (غير المباشرة) عن المعاني والأشياء حيناً، وللتعبير عن المناخ  
النفسي أو المادي للوقائع حيناً آخر كما يفعل الرمزيون والتعبيرون؟..

ثم ماذا لو توغل في صميم الواقع.. في سدى نسجه ولحمته، مخترقاً  
ثقله وشده بلمسات وجدانية ندية كما يفعل الواقعيون والرومانسيون؟..

ألم ينفذ (مفلح) في عدد من قصصه قدراً من هذا التحرر فأغنى واقعيته  
بمعطيات رومانسية، دون أن يخرج على قواعد العمل الفني ومطالبه؟ فلماذا  
لا يمضي، هو وغيره من أدبائنا خطوات أخرى صوب الأمام فيكونون أكثر  
حرية وأشد قدرة على الاختيار الواعي البصير لأدوات العمل الإبداعي

وتوظيفها من أجل المضامين والقيم والرؤى التي جاؤوا لكي ييسروا بها بين الناس بلغة الفن؟

إن مهمة الفنان المسلم أن يطرح مضامينه الكبيرة بأكبر قدر من (التأثيرية)، ولا عليه بعد ذلك أن يعتمد هذا المذهب أو ذاك ما دامت أنها - مرة أخرى - مجرد أدوات للتعبير والتواصل الفني.. وما دامت أنها - كذلك - تراث بشري مشترك وليست حكراً على هذه الحضارة أو تلك، ولا إراثاً جغرافياً لهذه البقعة أو تلك<sup>(١)</sup>.

ولكن.. وبعد عدة سنوات من كتابة «نظرات في الفن الإسلامي»، ومن خلال كتابة مقدمة مسرحية «المأسورون»<sup>(٢)</sup>، أعدت مناقشة المسألة بتفصيل أكبر، وبرؤية أدق، وإن تكن بحاجة إلى مزيد من الدقة والتفصيل!!<sup>(٣)</sup>.

قلت متحدثاً عن المسرح، وهذا ينسحب إلى حد ما على الأنواع الأدبية الأخرى، بأن «فرصة الاختيار مطروحة أمام الفنان المسلم لكي يقبل المسرح كشكل فني، ويرفض المضمون.. والإسلام لم يقف يوماً إزاء الأشكال، لا في ميدان الحكم والإدارة، ولا في ميدان الاقتصاد والاجتماع، ولا في ميدان الآداب والفنون، على العكس، هو علمنا حقيقة أن الأشكال قضية ديناميكية لا يقرّ لها قرار، و(تكنيك) متحرك لا يقف عند حد إلا لتجاوزه إلى حدود أخرى، ومن ثم فإن التشبث بالشكل الواحد عبر العصور هو مناقضة لطبيعة

(١) محاولات جديدة في النقد الإسلامي ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) صدرت في بيروت عام ١٩٧٠.

(٣) تتوجب الإشارة هنا إلى الدراسة القيمة التي قدمها (الدكتور عبد الباسط بدر) في ندوة الحوار حول الأدب الإسلامي التي أقامتها الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة في ربيع عام ١٩٨٢م، والتي طرح فيها دعوة واضحة للتفريق بين (الإسلامية) والمذاهب الأدبية الأخرى وعدم تقبلها على عواهنها، وقد نشر جانباً من هذه الدراسة في مجلة الأمة القطرية صيف عام ١٩٨٢م.

الأشياء. والإسلام يرفض من الأشكال فقط تلك التي ارتبطت عضوياً بمضامينها، وأصبح من الصعب فصل إحدهما عن الأخرى، وإلا تعرضنا للقتل، أو أخرجنا المتشبهين بهما عن قواعدهم الأصلية».

«أشكال فكرية أو عقائدية من هذا النوع دعا الإسلام إلى رفضها والاستعلاء عليها وعلى ما تبشر به من مضامين، صوب أشكال ابتكرها الإسلام نفسه، وربطها ربطاً حيوياً بقيمه وأهدافه، وإذا كان الفنان المسلم يشعر باستعلائه إزاء ما يطرحه الفن المسرحي من مضامين عبثية خاوية، أو مادية مغرقة، أو خيالية مريضة، أو واقعية هابطة، أو طبيعية مسرفة، أو رمزية وثنية، فإنه - من جهة أخرى - يفتح صدره للأشكال المسرحية الدينامية التي بدأت في العراء المكشوف، وظلت تتطور حتى بلغت - في العصر الحاضر - المسرح الآلي الدوار الذي يتيح عرض أشد المسرحيات تدللاً وتمعناً على رجال الديكور ومهندسي الإنارة وجدران المسرح الثلاثة...».

«من هذا الاختيار المسائر لمنطق الإسلام، والمنبثق عن تكوينه الحضاري، يجد الفنان المسلم نفسه وقد أتيحت له فرصة جديدة للتعبير... لأن يقول ما يشاء بشكل أكثر تأثيراً وتحريكاً... لأن يطرح مضامينه الكبرى ابتداءً من موقف الإنسان في الكون، وقضية وجوده ومصيره، وحرية وقدره، ومحياه ومماته، وحتى أعماق أعماقه الباطنية، وأشد تيارات وجدانه خفاء وتعقيداً... يطرح مضامينه وهو حرّ طليق من قيود المدارس المسرحية التي فرضت نفسها على العصور: كلاسيكية وكلاسيكية جديدة، رومانسية وواقعية، طبيعية ورمزية، تعبيرية ووجودية، ملحمة وعبثية، فكل اتجاه من هذه الاتجاهات كان ينبثق عن تصور يأباه الإسلام، ويرفضه أشد الرفض، لأنه لا ينسجم أساساً ونظرته إلى الكون والحياة والأشياء، أو لأنه انعكاس - بدرجة أخرى - لعصور سادها تطرف ما في جانب من جوانب الحياة والفكر، بينما انكمشت الجوانب الأخرى، وأصابها الضمور... أو لأن هذا

التصور ليس سوى إفرازات مرضية، يطرح غناها فرد أو جماعة أو حضارة يحاصرها الوباء، وينخر في بنيانها السوس، ويتنظرها التدهور والسقوط في نهاية الطريق.

«طيلة العصور التي خرجت على الناس بمسرحيات من شتى المذاهب والمدارس، كان التصور الخاطئ، والتجارب الذاتية المنحرفة، هما المعين الذي تنبثق عنه تلك الأعمال.. منذ عصر اليونان حينما ارتكز التصور، وقامت التجربة الباطنية، على مهزلة صراع الإنسان الأعزل ضد قوى الآلهة العمياء التي تحاصره من كل مكان، وتقاتله بسلاح رهيب ليس له نفاد.. وفيما بعد في عهود الرومان حيث الرغبة العاتية في اهتبال فرص المتع والملذات قبل نزول الأجل المحتوم.. ثم في عهد (المسيحية الأوروبية) حيث ضاعت القيم والمعتقدات الأصيلة التي جاء بها المسيح عليه السلام، وبشر بها حواريوه، وحيث طلع الأوروبيون الوثنيون على الناس - بعد اعتناقهم المسيحية - بمزيج لا تجانس فيه بين العقائد، وبخليط عجيب من القيم السماوية والوضعية، وبمجموعة مرصوفة من التعاليم لا حياة فيها، وبنظرات مهزوزة مبعثرة إلى الكون والعالم والإنسان، لا يشدها خيط ولا يحيط بها إطار.. وفيما بعد، في عصر النهضة، حيث بلغت الفردية حداً مغرقاً، وحيث رفع مقام الإنسان، زيفاً وتضليلاً، إلى مصاف الآلهة.. ثم فيما بعد حينما اكتسحت أوربة موجة العقل، في عصر التنوير، وما تلاها من ردة فعل دفعت الناس إلى الإغراق في الخيال، ثم ردة الفعل التالية حيث المادية الملتصقة بالأرض، والحيوانية المتخبطة بالوحل والطين، ثم موجات الكفر والإلحاد العلمانية، إثر الصراع المرير ضد تسلط رجال الدين والمؤسسات الكنسية، وما تلا ذلك من تأكيد على القيم المادية، وتكريس للوجود الإنساني، والفعالية الجماعية في إطارها الصلب الذي لا نفاذ منه لنسمة روح، ولا أمل خلاله في لحظات من الحرية.. وما حدث بعد هذا

معروف: قامت الحربان العالميتان الأولى والثانية، أحالتا أوربة إلى أتون ضخم يحترق لهباً وناراً، وفي أعماقه يموت الملايين. وفي أعقاب كل حرب، كانت شعوب أوربة تخرج من الأتون، بما تبقى لها من أنفاس، وما احتفظت به من رمق، خلال سني القتل والإبادة والحريق، تخرج هذه الجماعات مهدودة منهكة، مريضة مرهقة، ضائعة مذعورة، ممزقة يسحقها القلق، تائهة يحيط بها اليأس.. تخرج لكي تفرز كدها وإنهاكها، مرضها وإرهاقها، وضياعها وذعرها، وتمزقها وقلقها وبأسها، مضامين فكرية سرعان ما تحتضنها الأشكال الفنية والأدبية، وبخاصة المسرح، لما هو معروف من علاقة لا فصام لها بين هذه الأشكال وبين واقع الإنسان الخارجي وتجاربه الباطنية.. ومن ثم نجد المسرح يطرح علينا في أعقاب هاتين الحربين مذاهب جديدة، كالرمزية والوجودية والعبثية، لتغطية هذا التأزم الوجداني الخطير في كيان الإنسان الغربي.

«أفليس من حق الفنان المسلم، لا أن يستعلي فحسب على مضامين تنبثق عن تصورات خاطئة منحرفة كهذه، بل - وهذا هو المهم - أن يتقدم خطوات أخرى إلى الأمام، وأن يستخدم هذه الأداة الفنية الرائعة لطرح مضامينه هو، المضامين التي يستمدّها من تصوره الكلي الشامل، المتكامل، الصحيح، للكون والعالم ولموقع الإنسان والأشياء فيهما، ولطبيعة العلاقات التي تسود الموجودات، وكنه ارتباطها بالله خالق الكون والعالم والإنسان والأشياء.. والموجودات؟».

«أما أن للفنان المسلم، أن يعوض ما فات أجداده من نقص في مجال التغطية التعبيرية للتصور الإسلامي الواسع، وأن ينطلق من هذا التصور نفسه، وبصيغ تعبيرية أكثر جدة وحيوية وطرافة، صوب الآفاق التي تدعوه أن يبحث الخطى إليها، لكي يكتسح في طريقه فنون المرض والغثيان والدوار، ويطلع على العالم بفنه الإنساني الأصيل الذي يحتضن في اللحظة

المشحونة الواحدة كل ما يضمه الكون من شحنات الحس والوجدان.. ويجتاز برؤياه أمداء الزمان والمكان، محطماً جدران المرئيات القريبة، ساعياً أبداً صوب اكتئاة السرّ العظيم والناموس الأبدي الذي يسير به الله من عليائه قوى السموات والأرض والحياة والأشياء.. طارحاً عليهم - هذا الفنان - نداء الحب والحنان حيناً، والثورة والتمرد حيناً آخر، متقدماً بهم - في فنونه - صوب ساحات الروح والإشراق حيناً، داخلاً بهم منعطفات سعيهم اليومي وكدحهم المشترك حيناً آخر، مصوراً لهم تفاصيل حاضريهم الراهن وملامحه الدائمة، متخطياً حدود الزمان: تارة إلى الماضي حيث الخيال الفني الممتزج بوقائع التاريخ الكبرى ومنعطفاته الفاصلة ومواقفه المشهورة، وتارة أخرى إلى المستقبل حيث الرؤى والأحلام..؟».

«إن هذه الأمداء التي تضم صنائع الكون التي لا ترى، ومنسربات النفوس التي لا تلمس، هي أعظم فرصة تعبيرية أتاحها يوماً عقيدة أو مذهب أو دين أمام إنسان فنان.. أفليس من الحري أن يتقدم الفنان المسلم إلى التزام كل الوسائل والأشكال التي تساعد على صياغة قدراته التعبيرية الواسعة هذه: قصائد ومقطوعات، قصصاً ولوحات وأناشيد.. ثم مسرحيات هي جماع ما في الفنون جميعاً بما تعتمده من كلمة وحركة، وصورة، وأضواء، وظلال؟»<sup>(١)</sup>.

والآن وبعد أن عرفنا شيئاً عن الخطوط الأساسية لمضامين المسرح الإسلامي، نعود إلى الشكل.. هل ثمة ضرورة لإعادة صياغة الشكل المسرحي بما يتفق والمضامين الإسلامية؟ وهل ثمة ارتباط عضوي حيوي بين التصور والتجربة الإسلاميتين وبين الشكل المسرحي الذي تحتله؟ الجواب: نعم ولا.. نعم، لأن الخلافات الجذرية بين المضمون الإسلامي وسائر المضامين الدينية والوضعية، على درجة من العمق تمد تأثيرها

(١) في النقد الإسلامي المعاصر ص ١٨٤-١٨٨.



المباشر على الشكل المسرحي الذي سيتخذ مجالاً لطرح هذه المضامين فنياً. وهذا التأثير المباشر سيظل يزداد امتداداً وعمقاً وتشابكاً بين الشكل والمضمون، كلما ظهرت إلى الوجود مسرحية إسلامية جديدة. . إلى أن يأتي يوم نجد فيه أنفسنا وجهاً لوجه أمام وحدة عضوية لا يمكن فصمها بين المضمون والشكل في المسرح الإسلامي، خاصة وأن الإسلام يفرض على الإخراج المسرحي تعديلات ذات أهمية بالغة يجب مراعاتها إذا ما أريد للمسرحية أن تحافظ على طابعها، وتحفظات في انتقاء عناصر التمثيل، وأزيائهم، وفي حجب بعض الشخصيات ذات المكانة الدينية الخاصة عن الأنظار، والاكتفاء بنقل أصواتهم، أو اعتماد عناصر تمثيلية أخرى (كالمنادين، الكورس، تكنيك المسرح داخل المسرح) لنقل المشاهد إلى ما يدور خلف المشاهد من أحداث، وفي تصميم الديكور وتحديد طابعه العام، وفي تنظيم المؤثرات الصوتية واختيارها. . كما أن المضمون - من جهة أخرى - يفتح مجالات جديدة، وآفاقاً واسعة أمام المخرج، ويدخل إلى الخشبة شخصاً وأدواراً لم تألفها المذاهب الأخرى، ويحتم عليه استخدام مزيد من الإمكانيات والمؤثرات والوسائل المسرحية، وأن يجري تغييرات أساسية في التكنيك، لكي يستطيع الاستجابة لهذه المطالب من جهة، ولكي يغطي على التحفظات من جهة أخرى.

إن ارتباط المضمون بالشكل المسرحي أصبح من الأمور المألوفة في عالم المسرح في العصر الحديث، وبخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. . ولا سيما بعد التجارب التي مارستها المذاهب الجديدة في ميدان الشكل المسرحي، كمحاولات (برشت) في مسرحه الملحمي و(بيتر فايس) في مسرحه التسجيلي و(بكت) و(يونسكو) و(آدموف) و(جينيه) في مسرحهم الطبيعي (مسرح العبث واللامعقول).

وكما ازداد رواد هذه المذاهب وتلاميذهم عطاء، ازداد التشابك بين مضامينهم المسرحية وأشكالهم، الأمر الذي يدفع إلى القول بأن المسرح

الإسلامي سيكون أشد ارتباطاً بين الشكل والمضمون، نظراً للخلاف الجذري الحاد بين منهجه وتصوره، وبين المناهج والتصورات الأخرى.. هذا فضلاً عن الخلافات في الشكل نفسه، بينه وبين المذاهب الأخرى، مما ذكرنا بعض جوانبه قبل قليل.

وتحديد ملامح الشكل المسرحي الإسلامي ليس من شأن النقاد الدارسين بقدر ما هو شأن الكتاب المسرحيين أنفسهم، فما دام (الشكل) مسألة دينامية، فإن المعطيات المسرحية نفسها هي التي ستحدد بمجموعها ملامح هذا الشكل.. ولو صادف أن وجد النقاد - الآن - تراثاً مسرحياً إسلامياً، لكان بإمكانهم أن يستنبطوا هذه الملامح.. إلا أن معظم ما هو موجود من أعمال مسرحية لا يتعدى - إلا في القليل النادر - المسرح التاريخي الكلاسيكي الذي يعتمد اقتطاع فترات وعينات من التاريخ - أبطالاً وأحداثاً - لعرضها على المسرح.. وهذا الاتجاه يستوي فيه المسرح التاريخي؛ الإسلامي وغير الإسلامي، وليس له أي تأثير على صياغة الشكل.

إن الذي نعينه هو المسرح الذي ينبثق عن التصور والتجربة الإسلاميتين، وهما يمكن أن يبرزاً في مسرحية معاصرة، كما يمكن أن يبرزاً في مسرحية تاريخية، بشرط أن يتجاوز هذا النوع تقاليده الكلاسيكية القديمة، ويعتمد الأساليب التي تستنطق من التاريخ كل ما يمكن أن يقول، محطمة الجدران التي تخنق الوقائع والدلالات، ومعتمدة على تجاوز حدود المكان والزمان والتناسق الكمي للأحداث.

أما الجواب: لا، أي أنه ليس من الضروري إعادة صياغة الشكل المسرحي بما يتفق والمضامين الإسلامية، فيقوم على أن الشكل المسرحي - في أساسه - ظل محتفظاً بعناصره الرئيسية، رغم المذاهب والاتجاهات التي توزعته ابتداءً من عصوره الأولى، وحتى السنين الأخيرة.. ولقد ظلت هذه

العناصر الرئيسية تمثل قاسماً مشتركاً ليس بمستطاع أي مذهب مسرحي الاستغناء عنها، مهما بلغ من التطرف في تحطيم القواعد التقليدية والإغراب.. هل لمذهب مسرحي أن يستغني عن الممثل بشكل دائم؟ هل بإمكانه تجميد الحركة أو التعبير؟ وهل بإمكانه تجريد العمل المسرحي من الأضواء والظلال والمؤثرات الصوتية؟ هذه الوسائل وغيرها ظلت باقية على مر الزمن، رغم التقلبات التي شهدتها الحركة المسرحية منذ عصر التراجيديات اليونانية وحتى المسرح التسجيلي ومسارح الغضب واللامعقول.. ومن ثم فإن على المسرح الإسلامي أن يلتزم هو الآخر هذا القاسم المشترك للشكل المسرحي، ومن خلاله يمكن للمخرج أن يعيد صياغة العوامل المسرحية: من طريقة إخراج وتمثيل، وتصميم الديكور، واختيار المؤثرات وتوزيع للأضواء والظلال، بما ينسجم والمضامين الجديدة التي يطرحها المسرح الإسلامي<sup>(١)</sup>.

٤

إن الحديث عن (المسرح) ينسحب على الأنواع الأدبية الأخرى، كالأقصوصة والقصة، والرواية والشعر، حيث يتوجب أن يتحرر الأديب المسلم، أكثر فأكثر، من عقدة التخوف من (الأشكال) المتجددة بسبب من ديناميته، وأن يتجاوز مواقف التردد ما دام أن (الشكل) في معظم حالاته صيغه حيادية، يمكن أن تخدم أي تصور على اختلاف التصورات.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، كتبت في مقدمة «جداول الحب واليقين» دعوة ضمنية لاعتماد كافة الصيغ التي يكتب من خلالها (الشعر) على اختلافها، حتى ذلك المسمى (بالنثر الشعري).. تضم «جداول الحب واليقين» نوعين من المقطوعات التي يسودها النفس الشعري والإيقاع الموسيقي الخارجي أو

(١) نفسه ص ١٩٢-١٩٤.

الداخلي.. والحقيقة أنه ليس هناك - رغم المناقشات الكثيرة التي دارت حول الموضوع - غير نوعين من الأداء الشعري هما (الشعر العروضي) و(النثر الشعري) الذي يمكن تسميته مجازاً بالشعر النثري تجمعهما معاً موسيقا تسمع إيقاعاتها أحياناً بوضوح، وأحياناً أخرى لا تدري من أين تنبعث، ولا من أي قرار تتفجر نغماتها الآسية الحنونة، أو الثائرة المتمردة.

فأما القسم الأول - وهو النثر الشعري - فيقوم شكله، أو بناؤه الفني، على الموسيقى الداخلية التي لا تنبعث عن سلم موسيقي (تفعيلة) أو صدى موحد للقوافي كما هو الحال في الشعر العروضي، وإنما على الإيحاءات المشحونة، وتداعي المعاني والخواطر والأفكار، وتداخل اللحظات الزمانية والمساحات المكانية، في نسق معين يشده مجرى واحد، يجري إلى مصيره هادئاً حيناً، صاخباً حيناً آخر، فتكون له موسيقا هارمونية، أشبه بالخلفيات التي تصاحب السمفونيات، فتعطيها بعداً جديداً، من هنا أطلق على كل عمل فني من هذا النوع اسم (نثر شعري)، فالشاعرية التي تصاحب النثر، بكل ما في هذه الكلمة من أبعاد، مصحوبة بتقطيع شكلي وموضوعي للمقطوعة الواحدة، هي التي تحيل العمل النثري إلى (قصيدة نثرية)، فيكون بينها وبين الشعر صلات فنية وثيقة لا انفصام بينها.

ولكن ما أن تدخل الموسيقى الخارجية - أي التفعيلة - في أية مقطوعة من النثر الشعري، حتى تقضي، بوضوح موسيقاها، وإيقاعها الرياضي، على الأصداء الخفيفة الخافتة للموسيقا الداخلية التي يحتويها النثر الشعري، وتفقد المقطوعة بالتالي قيمتها الفنية بما أنها عمل شعري يقوم أول ما يقوم على التوافق الموسيقي.

ويصدر هذا الخطأ عن عفوية أحياناً، وعن جهل تام بالتفعيلة أحياناً أخرى، وعن تعمد في صياغتها وحشرها بين ثنايا المقطوعة أحياناً ثالثة،

بحيث إننا نجد بين حنايا المقطوعة النثرية مقاطع تقوم على تفعيلية من بحر معين، بل ومن بحور عديدة في المقطوعة الواحدة!! ويمكن أن نجد هذا - على سبيل المثال - في كتاب «رحلة الربيع والخريف» لتوفيق الحكيم، حيث نشر في القسم الأول من المؤلف المذكور عدداً من مقطوعات النثر الشعري، كان قد كتبها في عشرينيات هذا القرن (١٩٢٦-١٩٢٧) وذكر في معرض تحليله لها أنه دونها مدفوعاً بنزعة (اللامعقول) التي كانت بواورها قد بدأت تظهر في أوربة في أخريات الحرب الأولى، وأن نزعة (اللامعقول) تلك كانت روح هذه المقطوعات شكلاً وموضوعاً، وجائز - إذأ - أن يكون هذا التداخل في الموسيقى الداخلية والخارجية، وما ينبعث عنه من صخب.. من مستلزمات اللامعقول الذي يستهدف اتباعه أشد الأساليب جدة وغرابة في معطياته، ولكن من غير المعقول - كذلك - أن يكون هذا الاختلال والصخب سمة أدبية لازمة لكل مقطوعة من مقطوعات النثر الشعري، لأنه خروج صريح على مستلزمات هذا اللون من الأداء التعبيري.

أما القسم الثاني من (الجداول) فيضم مجموعة من الشعر العروضي، موحدة القوافي والتفعيلات أو متنوعتها، ولا بد من وقفة - كذلك - عند البناء الفني لهذا اللون من الأداء التعبيري.

الشعر العروضي أحرف وكلمات وتعابير، تصاغ وفق قوالب موسيقية متفق عليها، بلغت في العربية قمة روعتها ومرونتها وانسجامها، وأطلق عليها اسم (التفعيلات) التي تضمها بحار من اللحن، تزيد على العشرين، كل بحر منها يضع بين يديك عالماً تفرع فيه أجراس ذات نبرة خاصة، ونداء مستقل.. كل بحر منها يصنع بجرسه وامتداده وتقطيعه وتفعيلاته، عالماً موسيقياً شتان بينه وبين البحور الأخرى.. كل بحر منها يحمل الحروف والكلمات تارة إلى ضفاف الحزن، وتارة إلى شواطئ الفرح.. طوراً إلى بلاد النور والجمال، وطوراً إلى مستنقعات القلق والكآبة والاختناق.. حيناً

إلى أعماق الأرض وحيناً إلى مشارف السماء.. بحر يشدك إلى اللحظات التي تحياها، يعمق إحساسك بها، يكتنفها تكثيفاً قبل أن تزول وتتلاشى.. وبحر تضيق في أعماقه حدود الدقائق واللحظات، وتذوب فواصل الزمان والمكان.. ويرفعك، نقياً خفيفاً متجرداً، إلى عالم الخلود، حيث لا زمان ولا مكان.

بحار شتى تصوغ بنيانها من تفعيلات اكتسبت ملامحها وإيقاعاتها من عبقرية لغة أراد لها الله أن تكون لغة كتابه المعجز وقرآنه الخلاق، وتنتهي - إثر كل بيت أو فاصلة أو مجموعة تفعيلات - بإيقاع موحد يستمد نبرته من حرف من حروف اللغة، يعطي للقصيدة كلها وحدتها الصوتية، بتكرار إيقاعها الموحد، وضرباتها التي لا تند عن النظام.. والقافية، سواء جاءت متشابهة متكررة كأعمدة (الحمراء)، أم جاءت متنوعة متداخلة كقباب (المساجد التركية) ومناثرها، فإنما تخدم الغرض ذاته، أن تعطي للقصيدة إيقاعاً معيناً، وأن تمنعها من المجانية والتبذل والتنوع المفتوح الذي تضيق معه الموسيقى.

ذلك هو الشعر العروضي الذي يستمد موسيقاه من نظام التفعيلات والقوافي، ويتيح في داخله - لمن يريد - تطعيم القصيدة بمزيد من الإيقاعات والأصوات والأنغام، يعجنها الشاعر المتمرس من نبرات الأحرف وجرس الكلمات.. من صورها وظلالها وتعاقبها الفذ العجيب.. وسواء في هذا النوع من الشعر العروضي أن ينساق وراء قافية موحدة وعدد مدروس من التفعيلات، لا يشذ ولا ينأى عنها، أو أن يتلاعب بالقوافي والتفعيلات ذات البحر الواحد، ففي كلتا الحالتين يعتمد الشاعر على ما يمكن تسميته بالموسيقا الخارجية، أو التقطيع الرياضي للكلمات والتعابير الشعرية.

ولا تبقى بعد هذا، ثمة قيمة أو أهمية للتصنيف التقليدي للشعر العروضي القائل بأن هناك شعراً عمودياً وآخر حراً، لأن كليهما ينبعثان من

ذات الموسيقى، ويعتمدان ذات التفعيلة والبحر، ولكن الخلاف ينحصر بعدد التفعيلات، وشكل الإيقاعات و(القوافي) وكلاهما - ولا شك - ضرورة تعبيرية للوجدان الشعري، يندفع إلى هذا الشكل أو ذاك بحس لا يملك له دفعا، ونداء باطني لا قدرة له على التحكم فيه، يقول له نغم كلماتك وفق هذا السلم أو ذاك، واعزف على أوتار تفعيلة واحدة أو تفعيلات، وأسمع العالم إيقاعات وجدانك الدائمة، بإيقاع واحد متكرر، أو عدة إيقاعات. . . انته بهم دوماً بالنبرة ذاتها، والجرس عينه، أو تنقل بهم في رحلة التنوع والأشكال، لكي تعود - أخيراً - إلى الإيقاع الذي انطلقت منه أول مرة.

والقول إذاً بأن الشعر العمودي ذا القافية الموحدة والعدد المنسجم من التفعيلات، شعر قديم، قول مردود وزائف. . . والقول - كذلك - بأن الشعر ذا التفعيلات والقوافي المتنوعة شعر (حر). . . حديث. . . قول مردود وزائف. . . فالموسيقا لا تعرف زماناً ولا مكاناً، وسعي الوجدان الشعري إلى الموسيقا ليصوغ في قوايلها رؤاه وتجاربه وأحلامه، لا يقف أمامه حد زمني، ولا فاصل مكاني. . .

لا شيء كالموسيقا تتلاشى معه حدود الزمان والمكان. . . تضيع الفواصل وتذوب الجزئيات، ولا يتبقى سوى عوالم الشمول والامتداد. . .

من ذا يقول بأن تأملات (زهير بن أبي سلمى) وصرخات (عنتر بن شداد) ملك الجاهلية، أو أن تحديات (حسان بن ثابت) وأشواق (عبد الله ابن رواحة) إلى الجنة ملك لعصر المسلمين الأول، أو أن سخریات (جرير) وهجائيات (الفرزدق) ملك للأمويين، أو أن مطامح (المتنبي) ورؤى (المعري) وتشبيهات (البحتري) وهيام (ابن زيدون) ملك للعصور التالية؟ أبداً. . . فالشعر لا يعرف عصراً ولا مكاناً، والخروج على الإيقاع المقفى الواحد، والعدد المألوف من التفعيلات ليس أمراً جديداً، بل لقد شهدته عصور الشعر الأولى، وعرض الأندلسيون من أشكاله ألواناً. . .

الوجدان الشعري وجدان ينأى عن الأسر، وموسيقاه لم ترض يوماً أن يكبلها قيد، سوى قيد الفن نفسه..

وشتائم النقاد، وانتماءاتهم إلى القديم والحديث، أو إلى المقيد والحر، قضية غير مسلم بها، ما دام الشعر هو الحرية، وما دامت موسيقاه - بأشكالها التي لا حصر لها - لا تعرف قيداً ولا أسراً. كل ما هنالك أن مراهقي الشعر قذفوا إلى الأسواق في العقود الأخيرة بسيل من كراريس ودواوين لا تحمل إلا زبداً، اختلط فيها الحابل بالنابل، وتداخل على صفحاتها الغث والسمين.. وبين قصائدهم مقطوعات فقدت تفعيلاتها وسموها - مع ذلك - شعراً حراً.. وآخرون كتبوا نثراً شعرياً غطوا على موسيقاه الداخلية الخافتة بتفعيلات صاخبة أنسوا بها جمالاً، فاختلطت الأصوات ولم تعد تدري أهذا الذي يقال شعر أم نثر، أم مزيج عجيب من الشعر والنثر؟.

وفئة ثالثة لم تمكنها قدراتها التعبيرية الهشة أن تصوغ رؤاها وتجاربها ومعاناتها صوراً فنية واضحة المعالم والأبعاد، ولا أن تسلط على عالمها الباطني أضواء اللغة العبقريّة والبيان العربي الذي يتحدى الظلمة ويستطيع - على أيدي الذين تمكنوا من أعلامهم - صياغة أشد التجارب تمنعاً وتدللاً، وأكثر الأحاسيس بعداً وناياً، وأعمق الرؤى خفاءً وتشابكاً وتعقيداً. لكن هؤلاء وقد أحسوا بعجزهم عن البيان والصياغة - لجؤوا - مدفوعين بعجزهم دفعاً - إلى التعمية والتعقيد والإغراب والألغاز. ونقرأ ما يكتبونه فإذا بنا لا نقف على شيء مما يريدون أن يقولوه لنا، وإذا بنا نحس بغثيان كذلك الذي تحدث عنه (سارتر) وهو يتكلم عن عبث الحياة، وكتب عنه (يونسكو) و(بكت) وهما يصوران لا معقوليتها، ولكن بأسلوب واضح بَيِّن.. وإذا بنا نعمل فكرنا وعقولنا على أمراً خفي علينا في القراءة الأولى يتكشف لنا في المرة الثانية.. أو الثالثة.. أو العاشرة، فلا نحصل على ما نريد. ونعود بعد يومين أو ثلاثة، على قوة سحرية تكسر جدار اللغز، ويجيء (علاء



الدين) فيفتح بخاتمه العجيب باب الدهاليز، ويدخل بنا إلى الأروقة التي حفروها تحت الأرض.. ولا من جدوى!! ذلك أنه ليس ثمة شيء أبداً وراء معمياتهم وأغاميضهم هذه.. لا حداثق ذات بهجة.. ولا عالم سحري.. ولا كنز مخبوء.. ليس سوى اليأس والقلق والعجز، لم تجد لها متنفساً فنياً لكي تخرج على الناس واضحة بينة، فاضطرت أخيراً أن تتقيأ زبدها ألغازاً ورموزاً مريضة ومعميات..

أفمن الضروري أن يدفع هذا العبث النقاد إلى رفض كل لون من الشعر لا يلتزم البحر الواحد والقافية الموحدة، أو إلى إلغاء نداءات الوجدان التي تأنس بالموسيقا الداخلية، فتتخذ من النثر الشعري وسيلتها للتعبير؟ ثم.. أليس في شعر البحر والقافية عبث كهذا؟ دفع ويدفع أناساً من شتى العصور والأماكن إلى أن يحشروا في قوالب البحور، ومن وراء إيقاعات القوافي كلاماً لا وجدان فيه، ولا توتر، ولا انفعال، أو نظماً تختفي فيه عبقرية اللغة، ويضيع البيان؟<sup>(١)</sup>

إن المرء ليدھش لتلك الحملات العنيفة التي شنھا بعض الإسلاميين إزاء صيغ الشعر الحديثة والمعاصرة، بل إن بعضهم اعتبرھا من الأسلحة التي يشنها الخصوم ضد اللغة العربية، والعقيدة الإسلامية نفسها..

يدھش لأنه لا يجد - على الإطلاق - المبرر المقنع لرفض الإفادة من ديناميكية الأشكال الأدبية المتطورة.. ولأنه لا يلمس - إلا في حالات محددة يصعب تجاهلھا - اعتماد هذه الصيغ لشن الهجوم ضد العروبة والإسلام<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر مقدمة ديوان «جداول الحب واليقين» ص ١٦-٢٤.

(٢) انظر محاولات في النقد التطبيقي لأنماط متباينة الشكل من الشعر الإسلامي في كتاب «محاولات جديدة في النقد الإسلامي» - للمؤلف - حيث ترد كذلك هذه العبارات خلال

وانطلاقاً من الرؤية نفسها - كذلك - يتوجب الانفتاح على كافة (أشكال) العمل الروائي: قصة وأقصوصة ورواية.. وقد جاءت الأقسام الأخيرة من كتاب (محاولات جديدة في النقد الإسلامي)<sup>(١)</sup> بمثابة تنفيذ نقدي لهذه الدعوة، حيث عولجت هناك رواية (عمالقة الشمال) لنجيب كيلاني<sup>(٢)</sup> وثلاث مجاميع من القصة القصيرة لإبراهيم عاصي ومحمود مفلح<sup>(٣)</sup>.

في ختام نقد (عمالقة الشمال) ترد هذه العبارات «إن المسلم المعاصر بحاجة إلى مزيد من الأعمال الروائية (الملتزمة) تقوده إلى آفاق جديدة أخرى من عالمنا الإسلامي الراهن، وتكشف أمام وعيه وعينيّه، وبالأسلوب الأكثر تعبيراً وتأثيراً ما يجري في ساحات هذا العالم من هزائم وانتصارات وما يتحقق في جنباته الشاسعة من تدمير وبناء.. بحيث لا يعرف المسلم عما يجري هنا وهناك إلا القليل القليل.. ومن هنا تكسب روايات (الكيلاني) الإسلامية المعاصرة أهميتها.. لقد قادتنا إحداها إلى تركستان،

= الحديث عن شعر «الحسناوي»: «إنه على مستوى الشكل يعتمد كافة الصيغ المعروفة في هندسة الشعر، ما يسمى بالعمودي وما يعرف بالحر، وما يمتد جسراً بين هذا وذاك، والرجل لا يتردد في الإفادة منها جميعها. ليس ثمة داع للتردد.. والجدل القديم الجديد بين أنصار لهذه الصيغة وطلاب لتلك، الجدل الذي تفاقم خطبه في بعض لحظات التوتر والانفعال فجاوز عالم النقد إلى حلبة الملاكمة، ما كان له أن يكون.. فالشاعر الجيد يبني بهذه المادة أو تلك، ويعتمد هذا المخطط الهندسي أو ذاك.. إن القصيدة شخصية عميقة الغور، متشابكة العلائق، معقدة التكوين، وليس من الإنصاف أن نحكم عليها من لون بشرتها وسواد عينيها، إن لون البشرة وسواد العيون مدخل إلى التركيب السايكولوجي للقصيدة، مدخل فحسب، ولكن ما يكمن وراء المدخل والأبواب شيء يستعصي على الحكم السريع» ص ١٨٤.

(١) ص ٢٠٩-٢٨٩.

(٢) ص ٢١١-٢٥٦.

(٣) ص ٢٥٩-٢٨٩.

وقادتنا الأخرى إلى أندونيسيا، وها هي ثالثها تقودنا إلى نيجيريا.. ومن منا يستطيع الادعاء بأن هذا الذي قصته علينا هذه الروايات كان معروفاً، بهذه الدرجة من التدفق والكثافة، لدى الجميع؟

«إن هذه الروايات فضلاً عن ذلك، تمنح الإحساس بوحدة الوجدان الإسلامي في العالم كله، في عصر التفكك والتمزق والتباعد، وتعيدنا، بعطائها السخي.. إلى مقولة رسولنا ومعلمنا عليه السلام (إن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)»<sup>(١)</sup>.

وفي المقدمة التي تناولت بالنقد مجموعة قصصية بعنوان (حدث في شارع الحرية) لإبراهيم عاصي ترد هذه العبارات: «في العالم الذي تضع فيه القيم، وتتفكك العلاقات وتذوب، ويجد الإنسان نفسه متأرجحاً على أرضية لزجة كالصابون.. يغدو الفن عموماً، وفن القصة على وجه الخصوص ضرورياً على شتى المستويات، باعتبار أن القصة تكنيك جمالي مؤثر لحكمة الحياة.. ضرورياً على مستوى البحث عن القيم وتأكيد العلاقات، استعادة أو إبداعاً. ما دام الموقف الشامل الذي منحنا الإسلام إياه يهبنا هذا القدر الكبير من حرية العمل على ضوء معالمه التي وضعها على جانبي الدرب البشري الطويل، الذي لا يكف عن التمخض والتبدل والصيرورة.. وهو ضروري على مستوى (الأمل) الإنساني الذي يتوجب على الفنان أن يحفره في أعماق بني آدم، كيلا يخنقهم اليأس، وتحاصرهم اللاجدوى من كل مكان.. ضروري على مستوى الرفض والغضب والثورة لدنيا تافهة يتحول المنتمون لها إلى حشرات أو ما يشبه الحشرات، يأكل بعضها بعضاً، ويرهب بعضها بعضاً.. ضروري - كذلك - بما أنه إبداع

جمالي خالص، على مستوى فك الارتباط القاسي والمحزن بين الناس وبين ضروراتهم الدنيا ونزعاتهم البراغمية (الذرائعية) المتزايدة، التي تطوقهم من كل مكان وتسوقهم، بقوة لا تقهر، إلى أن يتكاثروا بالأشياء، ويتكاثروا، حتى تعوقهم الأشياء، وتضع بين أحدهم والآخر الأسلاك الشائكة التي لا يمكن اختراقها بحال.. ثم هو ضروري - وهذا هو الأهم - لتحريك الناس في دنيانا.. لهزمهم من سباتهم القديم، لنفض الغبار المتراكم على قلوبهم وأفئدتهم، ونفخ النار التي تعرف كيف تحرق الكينونة وتطهرها في الوقت نفسه.. إن المسلم المعاصر بحاجة إلى هذا كله: القيم.. الأمل.. الرفض.. التجاوز.. والحركة.. وكم هو رائع ومدعش أن يمد الفنان يديه.. أن يسهم، بشكل أو بآخر، في المساعدة على هذا العطاء.. في منحنا النار التي تحرق، والهوج الذي يضيء!!<sup>(١)</sup>.

وبعد استعراض مركز لقصص المجموعة يصل القارئ إلى هذه النتيجة: إن القاص قام بمحاولات عديدة في بناء الشكل القصصي، فمنح مجموعته أصالة وتنوعاً، وبعد بها عن أن تسلك نسقاً رتيباً متشابهاً<sup>(٢)</sup>.

بل إننا نجد في نقد مجموعتي محمود مفلح القصصيتين تأييداً للقاص في اعتماده واحداً من أشد أشكال القصة حداثة وتجاوزاً للمألوف.. الشكل الذي يقوم على تيار الوعي والتداعي «تداعي الصور والأخيلة والأفكار التي كثيراً ما يلجأ إليها القصاصون المعاصرون، إنه تكنيك فني مؤثر يمنح القصة بعداً جديداً، ويعطيها طعماً شهيئاً.

إن على الفنان أن يخترق - بين الحين والحين - جداراً منظوراً، ويتجاوز مسلمات المكان والزمان.. أن تندمج في الصورة الواحدة والموقف الواحد

(١) ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) انظر ص ٢٦٤.

واللحظة الواحدة أحداث وتجارب وصور ومواقف تخلقت في أزمان وأماكن شتى، وأن يعرضها علينا وقد تكسرت فيها عقارب الساعة ومقياس الكيلومترات.. أن يصوغها بأبعادها الجديدة غير أبعادها المألوفة طويلاً وعرضاً وارتفاعاً.. بعبارة أخرى: أن يجردها من هذه الأبعاد.. أن يقوم بتعريضها وصولاً إلى البعد الأهم والأخطر.. البعد الرابع الذي لا يلمس ولا يرى إلا بالعين الأخرى: عين الفنان، وعيون أولئك الذين يعرفون كيف يتعاملون مع لغة الفن.. وأحرى بالفنان المسلم أن يتجاوز منطق المنظور والمسموع.. أن يكسر جدار الواقع الأصم إلى ما وراءه.. إلى الآفاق البعيدة. وليس صوت الفن الإسلامي سوى ذلك النداء الشفاف، الذي يدعونا للتحرك صوب الآفاق البعيدة، مع التركيز البالغ الملتمزم المسؤول بكل ما هو واقعي يومي منظور، إذ كيف يقدر المؤمن على التحرك صوب الآفاق البعيدة، إن لم ينطلق أساساً من عالم أفضل، عالم غير عفن ولا مفكك ولا منحور؟.. إن التداعي - إذا صح التعبير - هو تجميع للأصوات المتنافرة المتناقضة، كما تبدو إذا ما عوملت منفردة كلاً على حدة.. ولكنها إذا تهيأت لها اليد الفنانة التي تعرف كيف تحس، والأذن التي تعرف كيف تسمع والعين التي تعرف كيف تنظر وترى.. فإنها ستخرجها لنا في وحدة نغمية توافقية (هارمونية) تهز الوجدان..<sup>(١)</sup>

لا نذهب إلى النهاية مع (آلان روب جرييه) رائد مدرسة (الرواية الجديدة) التي تدعو إلى إلغاء وجود الزمن في العمل القصصي، وتفكيك سلسلة الأحداث، وإلغاء الشخصيات، واستبدالها بأخرى لا تملك أسماء ولا وجوهاً.. ولا ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً.. وتصفية العقدة والحبكة.. إلى آخره.. ولكننا في الوقت نفسه نرفض التثبيت التقليدي بالرؤية الفنية أحادية الجانب، والتي تعتمد شكلاً سكونياً محدداً تنسج على نوله.

## ٦

يتوجب أن نقف هنا قليلاً لتأكيد الموقف الوسطي للنظرية الإسلامية بصدد الثابت والمتحول.. الستاتيک والديناميک، في تيار الإبداع الأدبي.. إنه - بتركيز بالغ - رفض للسكون التام من جهة، وللحركة العمياء من جهة أخرى.. احترام لعناصر الديمومة والثبات من جهة أخرى وانفتاح على قوى التجديد والتغيير والتحول من جهة أخرى.

إن الأدب الإسلامي لا يجد أيما عائق يصده عن قبول الجديد المتغير ما دام أنه لا يرتطم ورؤيته للكون والعالم والأشياء.. ولكنه لن يضحي - خلال تقبله ذاك - بأي من العناصر الثابتة التي تمثل عصب الإبداع الأدبي وهيكله العظمي - إذا صح التعبير - وإلا غدا العمل الأدبي رخواً متميعاً، رجراجاً، لا يشده رابط، ولا تمسك به شخصية مستقلة متبلورة.

إن هنالك حدوداً للتغير والتجديد يتوجب أن يقف عندها الأديب الجاد، وإلا سقنا معطياتنا الأدبية إلى الضياع الذي لا نصل في صحاريه المترامية إلى قطرة واحدة من ماء..

وإننا لنتذكر هنا تلك القفزات المجنونة باتجاه التجديد الأعمى على أيدي قطاع ليس بالقليل من أدباء الشباب في خمسينيات هذا القرن وستينياته على وجه التحديد، ونتذكر كيف أن الحصييلة النهائية لم تكن سوى المزيد من الإغراب والضياع..

إن المرء وهو يدلف إلى ساحتهم، تلفحه من بعيد، ومن وراء الجدران، بحرّها ولهيبها، ويصم سمعه صراخها، والأصوات الهائلة والمبحوحة التي تندفع عنها في كل حين، والسيل الطامي من الأعمال الأدبية المتناثرة في الهواء، والأدعياء الذين يركضون هنا وهناك ليجمعوا حولهم أكبر عدد

ممكّن من الأنصار، ليضعوا معاً أسس مدرسة جديدة في الشعر أو المسرح أو المقالة أو النقد، أو ما يدعونه (الموجة الثالثة) و(القصائد التي تأكل نفسها).. تلك هي ساحة الوجودية الممسوخة أو الرمزية الجديدة.. أو غيرها من التسميات..

لقد تطرف هؤلاء بخروجهم على كل قاعدة، وسخريتهم بكل أسلوب، ونفورهم من كل الأعراف الأدبية التي تبلورت كبديهيّات لا تقبل النقاش، فهم لا يؤمنون ببديهيّات كهذه، ويسعون دائماً إلى التجديد الذي لا يقف عند حد، من هذه البديهيّات على سبيل المثال أن عمق العمل الأدبي، وسبره أغوار التجربة الشعورية، وامتداده إلى كل مساحات الرؤية الفنية، وتنسيقه للخواطر واللمحات في شكل معين، واستلهامه كل ما يوحى في أعماق النفس، أو في الوجود الخارجي، ومحاولته إدراك الأسباب الخفية التي تربط بين الأشياء، والموسيقا التي توحدها في تناغم متوافق يتحرك منسباً إلى هدفية، ومعاناته في تحليل التيارات العنيفة الهادئة التي تنبثق عن تجربة صراع أو حب أو إيمان، والتي تصب في بحر التجربة الكبرى التي ينبثق عنها العمل الأدبي.. العمل الذي لا يتجه بالخطاب إلى عقل الإنسان وحده، ولا إلى وجدانه وحده، ولا إلى جسده وحده، ولكنه يخاطب كيان الإنسان الواحد، ويهز كينونته.. بعيداً عن كل ما هو معقد، أو ما هو سطحي تافه.. هذا العمل لا يقتضي - بالضرورة - أن يسلك طريق الألغاز والغموض والتعمية، بحجة أن هذه المسالك، هي التي تعطي لهذا العمل قيمته الحقيقية !!

وهذا هو ما يحدث في ساحات التجديد الرافض لكل قيد، والمتمرد على كل قاعدة.. هنا حيث يقدم المجددون أعمالهم الأدبية غير منبثقة عن (اللاوعي) كما يبدو للوهلة الأولى، أو كما يتوهمون هم ويوهمون غيرهم، ولكن عن سبق إصرار في جعل العمل الأدبي لغزاً محيراً غامضاً يعجز عن

حل رموزه، أي مفكر أو فيلسوف، فضلاً عن الناقد والأديب.. لأنه لا رموز جادة هناك على الإطلاق..

كتب أحدهم تحت عنوان (النافذة) يقول «الأقمشة الممزقة ممنوحة لي عبر الشمس، والمدينة مخدوعة بمعاطف السبت. هذا الفسق ماذا يعرف عن يدي؟ في الباحة، المعلم الهواندي يلتقط الجواهر - ويخسرهما أيضاً - والساهرة اليتيمة تعتقل الرغبة هناك، ما أجمل المتوكلين المحبوبين، رامبو حين طار جسده، مات، ملاجئ التآرجح، تروتسكي لم يمتلك خجل الفنادق، ج : تتدفؤون على وحشة القلب، متشبثين بصبوات القصيدة»<sup>(١)</sup>.

وكتب آخر تحت عنوان «هذه الموجة.. لماذا؟» يقول «.. والمسافة والموت ومسألة الخلود التاريخية التي تطرحها هلوسات روينسية.. تفضح القبح بألوانه العديدة. والألم يلبس البعض قمصاناً من الخلف، وليمشقوا سيف ديموقليس. وهذا البعض يفكر ويتميز غيظاً إذ يرى انشطارات حية كان يتوقعها، ويدعي بفائقيتها التاريخية المنحدرة على مذبح الواقع المعاش. يبدو لهم أن كل الظاهرات الاجتماعية تنقض نفسها بنفسها إذا مررت بـ(فيلتر) العقل الخالص.. المعبر الوحيد عن بيولوجيا الفكر - الثابت الأركان - فهذه الظاهرات لا تستحق الدرس، ولا حتى التأمل، لأنها لم تمر بمخاضات الشعارات، ولم تسمر خلف قضبان حديدية، والأمر كله لا يعدو نزوعاً طهيراً إلى يوتوبيا جديدة، لقد فات هذا الفصل المتصلب، المظهر الرخو للأعماق، إنه بتعشقه لظله النرسي لا يبرهن إلا عن انخلاءه الفكري، بهجومية بانث هزوة»<sup>(٢)</sup>.

وليس ثمة من داع للاستمرار - بعد - مع هذا السخف الذي غطى للأسف مساحات واسعة من الصفحات الأدبية لمجلاتنا وصحفنا، والذي

(١) جريدة الثورة العربية العدد ٧٢٥ عام ١٩٦٦.

(٢) جريدة الثورة العربية، العدد ٧٣٧ عام ١٩٦٦.



يذكرنا بمعطيات (أدونيس) وجماعة (مجلة شعر) اللبنانية التي كرست جهودها للبحث بأدبنا ولغتنا، بدوافع ربما تكون عرقية أو أسطورية!! تقول (مجلة شعر): «ماموت أحب شعقتات. كحية اسمها. ثم أحب شعقتات. قال لها: رمتني شامة. لوحني كوكب. أسد وحدني اشتهاؤه. قالت له شعقتات: جسمك ذئب تركض رعشاته. جسمك شامة تكسوني. قال لها ماموت: الدوار والنار والحنين! قالت له شعقتات: سنعتقل الحارس ونطلق الحصان. قال لها ماموت: جسمك الحرب. سأحفظ جسمك طريده. سأضرب الأودية، الويل إن جلست! تمتلئ الدفاتر، وتنكسر شوكتي...».

أي تضيق للشعر هو هذا، وأية سخرية بأداء العربية اللغوي؟ ومع ذلك يكتب أحد أديباء «التقدمية» في بغداد، معلقاً على إحدى أعداد (مجلة شعر) قائلاً:

«أعجبني العدد كثيراً، وأحسست بأن مجلتنا تسير بخطوات واثقة، رغم النداءات اليتيمة التي يطلقها بعض الجاحدين. إن الدرب طويل ومتعب، إلا أن ثقتنا بما نكتب هي وحدها سلاحنا» وفي رسالة أخرى يقول «إن الدفاع عن قصيدة النثر، ومحاولة تثبيت أقدامها في الأدب العراقي، مسؤولية متعبة، وهي كالكفر في رأي أدباء الأتربة والرفوف، الذين لا زالوا يلزمون الحطيئة وابن الأحنف، متناسين وضعنا ولحظتنا التاريخية».

فلنستعرض مقاطع أخرى من قصيدة (أنسي الحاج) المنثورة لنرى مدى انسجامها مع (لحظتنا التاريخية):

«اصعد البرق

في منتصف الجسر أي قهقهة فيك.. امرأة صغيرة تفتح شفتيك وتنزل

تأخذك بطمأنينة.. الحب لا.. العار لا يعرفها..».

مقاطع خاوية، تكاد تفتقد المفهوم النقدي لمحتواها، أما المعاناة الباطنية فإنها تضيع في حنايا رصف ميت للعبارات، لا يستثير وجدان الذين يقرؤون :

«سحرت نهراً. يصعد ظهر الغشاء. سحرت الغشاء

حربي ذلك السر لعاب سلاحي يخشخش فرحاً

رأس يوسف النجار على كتفي، وجميع العصافير ترن فيه

سحرت ذاكرتي...».

نفس الغشاء الذي اطلعنا على بعض صوره من رواد «الموجة الثالثة» في العراق.. وعن نفس المعين الغامض، الركيك، الهش، المتهافت، يصدر ويطنغي - كالسيل - على صفحات الكتب والمجلات والجرائد، وعلى أرصفة الأزقة والشوارع..

ويمكن أن نشير هنا - بإيجاز - إلى عدد من (الملابسات) التي رافقت معطيات أدباء (القفز في الفضاء)..

إن التعقيد اللغوي والذهني يفقد العمل الأدبي مؤثراته الوجدانية وقدرته على (التوصيل) ويفتح المجال أمام (الجدد) للوقوف بمستوى المتمكنين وذوي الكفاءات، ويضع العوائق والقيود في طريق الأعمال الأدبية، لأنه يصرف الكثيرين عن الرغبة في قراءة وتتبع تلك الأعمال حتى النهاية، ويؤدي إلى اضطراب في (التكنيك) الفني للعمل الأدبي، ويضيع وحدة المعنى وهدفية العطاء، ويقود إلى تشابه آلي في الأساليب وعدم تميزها وتفرداها، وقد تكون التجربة ذات أبعاد ومساحات واسعة، عميقة، إلا أن أعمالاً من هذا النوع لا تغطيها بتكافؤ تام، وذلك بتوترها وانكماشها على بقع محدودة في مدى التجربة.

وينتج هذا التعقيد والاضطراب عن عوامل عدة أهمها - ولا ريب - عدم التمرس على البيان والقدرة على هندسة التجربة بما يحقق الوفاق بين اللغة والتعبير، والتأثر السلبي بترجمات الأعمال الغربية وبخاصة تلك التي نقلت إلى العربية على أيدي مترجمين لم يتمكنوا - بعد - من فن الترجمة، والرغبة في ملاحظة الاتجاهات الجديدة في الغرب دون تفهمها، وحشر الرموز الأسطورية والتاريخية، أو تكديسها بعبارة أدق، ونحت مصطلحات فنية مستعجلة لم يصطلح عليها اللغويون، وإثارة الاختلال والصخب في الموسيقى الداخلية والخارجية للشعر، والتصميم المسبق والمتعمد - ربما - في تنفيذ هجمات تخريبية في لغتنا وآدابنا وتراثنا بعامة.

إن التأزم النفسي والحضاري للعربي المعاصر، والتطلع «الثقافي» إلى العالم الجديد، لا يلزم أن ينتج أدباً مهزوزاً ينبثق عن تجربة نفسية مهزوزة متوترة، مريضة، لأنه بهذا سيفقد الالتزام..

صحيح أن الأدب صورة صادقة للتجربة الإنسانية كما هي، ولكن من واجبه أيضاً أن يقيم.. أن يبشر بالإنسان الجديد.. بعيداً عن كل ما هو مهزوز متأرجح متناقض، منشطر إلى ألف إنسان. ولو سمح كل أديب لنفسه أن يعبر بعفوية مطلقة عما في نفسه، لما بقي هناك أدب، ولتحطمت أطره الفنية، ولما بقيت هناك لغة.. حتى.. لأن إطلاق العنان لتجارب كهذه يضع قضايا اللغة والالتزامات الفنية في الظل، ويغدو الإلغاز والتمويه هو الهدف، وفي كثير من الأحيان يقوم أصحاب هذا الاتجاه الجديد بعملية توتر متعمد، مصطنع غير طبيعي، توتر في النفس وتوتر في الفكر، وحصيلة ذلك - ولاشك - توتر فيما يصدر عن حركة القلم.

البيان كان هدف الأولين، ويتوجب أن يكون هدف الآخرين.. أن توضح تجربتك الشعورية، أن تبعث للنور أحداث عالمك الداخلي، أن تقوم بتنسيق دقائق انعطافاتك الوجدانية واهتزازاتك النفسية ولمحاتك الفكرية. لا

يقتضي - أبداً - أن تغمض وأن تلح في الغموض، أو أن تلقي ظلالاً سوداء قاتمة على معطياتك، لكي يقال : إنك غامض وإنك عميق، وأحياناً كثيرة تجد في معطيات هؤلاء حشداً كبيراً من المصطلحات التاريخية والعلمية والنفسية، تعرب ببساطة أو تشكل ببساطة، دون أن تعرض على مجمع لغوي لكي يعطي موافقته عليها!!

معظم الأدباء الكبار في الماضي البعيد والقريب، ومن هو معاصر منهم، لم يصلوا القمة بالغموض.. على العكس من ذلك، كان (البيان) ركيزة أعمالهم الكبرى، البيان العميق في نفس الوقت، وكثير من الشبان الذين لا تشكل أحداثهم الداخلية، وحوارهم الوجداني، سوى رصيد ضئيل، تمكنوا بالخروج على قواعد اللغة والبيان، وبالرصف الملغز للعبارات، أن يوهموا حشوداً من القراء، بأنهم ارتفعوا إلى مستوى الأدباء الحقيقيين.. وكثير من الشبان الذين لم يستكملوا - بعد - الأدوات الأساسية للعمل الأدبي والفني.. برزوا فجأة في الأجواء الثقافية، ليفرضوا أنفسهم فرضاً على مجالات الأدب فيه، وهم لا يكادون يساوون شيئاً<sup>(١)</sup>.

## ٧

إذاً فالأديب المسلم الملتزم يتوجب أن يعتمد «الإسلامية» في تعبيره من أجل أن يكون صدوره منطقياً ومنسجماً مع ما يؤمن به ويعتقده..

ويقيناً فإن «الإسلامية» هي غير «الكلاسيكية» أو «الرومانسية» أو «الكلاسيكية الجديدة» أو «الواقعية» أو «الطبيعية» أو «الواقعية النقدية» أو «الواقعية الاشتراكية» أو «الرمزية» أو «السريالية» أو «الطليعية» أو «المستقبلية».. إلى آخره..

(١) انظر بالتفصيل : «في النقد الإسلامي المعاصر» ص ١٠٣ - ١٠٩.

إنه مذهب متميز.. قد يلتقي مع هذا المذهب أو ذاك لقاءً جزئياً، ولكنه يبقى مذهباً أدبياً إسلامياً مستقلاً، لأنه في الأصول والكتليات لا يمكن بحال أن يلتقي مع أي من المذاهب الأدبية الأخرى.. إنه إذا حدث أن تم لقاء ما في (الشكل)، فإنه يندر على مستوى المضمون.. والمذهب عموماً.

إن نقاط الخلاف أكبر بكثير وأعمق بكثير من نقاط اللقاء.. فهنا ينبت المذهب الإسلامي في الأدب عن رؤية تصدر عن الله سبحانه الذي أنعم على البشرية بالدين القيم : الإسلام.. وهناك تنبت المذاهب الأدبية عن رؤية بشرية وضعية قاصرة، تتضمن الكثير من المناقص، والأخطاء، والثغرات، والأحكام النسبية، والاختلال، والتطرف، والشذوذ..

وإذا كان هذا الأمر لا يتضح على مستوى الشكل بحكم حيادته في كثير من الأحيان فإنه يبدو بالوضوح الكامل على مستوى المضمون.. حتى لكاننا نضع هنا الأبيض إلى جنب مع الأسود.. فليس ثمة ما يجمع بينهما إلا نادراً.. وما دام أن المضمون يتلبس (المذهب) ويدخل في صميم نسيجه، في سداه ولحمته، فإن التباعد بين (الإسلامية) والمذاهب الأخرى يصبح أمراً محتوماً إلا في حالات عرضية لا تصلح أن تكون قاعدة يقاس عليها.

ويكاد (محمد قطب) يتفرد بذلك الطرح الموسع لملاح التصور الإسلامي التي ينبثق عنها المذهب الإسلامي في الأدب والفن عموماً.. وذلك في كتابه القيم (منهج الفن الإسلامي)<sup>(١)</sup> فمن خلال فصوله التالية على وجه التحديد يضع الرجل، أو يحلل بشكل أدق، الأسس التي يقوم عليها تميز البنيان الأدبي الإسلامي وتفردته عن سائر المذاهب الأدبية

(١) يجب أن لا ننسى هنا بحث الدكتور نجيب الكيلاني «الإسلامية في الأدب» الذي قدم إضاءات مبكرة للمسألة التي بين أيدينا. وهناك كتاب سيد قطب «أسس التصور الإسلامي» الجزء الأول الذي يمدنا - بشكل غير مباشر - بالعناصر الأساسية التي تقوم عليها بنية الإسلامية في الأدب.

الأخرى: طبيعة التصور الإسلامي (حقيقة الألوهية والكون والحياة)<sup>(١)</sup>، الإنسان في التصور الإسلامي<sup>(٢)</sup>، الواقعية في التصور الإسلامي<sup>(٣)</sup>، العواطف البشرية (وبخاصة الجنسية) في التصور الإسلامي<sup>(٤)</sup>، الجمال في التصور الإسلامي<sup>(٥)</sup>، القدر في التصور الإسلامي<sup>(٦)</sup>، حقيقة العقيدة في التصور الإسلامي<sup>(٧)</sup>، وفي فصل (الفن الإسلامي : حقيقته ومجالاته) يقوم المؤلف بتجميع الخطوط العريضة المفروشة في الفصول السابقة، لكي يخرج منها بصورة شاملة للفن الإسلامي<sup>(٨)</sup>.

وعبر هذه المساحات الشاسعة يمكن أن يتحرك قلم الأديب المسلم، فيتحدث عن كل شيء، ويكتب عن كل تجربة، ويعبر عن كل صغيرة أو كبيرة في مجرى الحس والوجدان والشعور، أو شبكة العلاقات الاجتماعية والبشرية، أو في ساحة الطبيعة والعالم، أو في مدى الكون كله..

إن تحديد أو وضع قائمة بالموضوعات التي يمكن أن يتحدث عنها الأدب الإسلامي، أو يلامسها ويعيشها، أمر صعب غاية الصعوبة، بل إنه لموقف مفتعل يسعى إلى قولبة التجربة الكبيرة في إطارات تضيق عليها الخناق.

وما هكذا حياة المسلم ذات الأعماق والآفاق التي ما بلغ عشر معشارها أبناء العقائد والأديان الأخرى.

(١) ص ٢٢ - ٤٧.

(٢) ص ٤٨ - ٦٥.

(٣) ص ٦٦ - ٩٤.

(٤) ص ٩٥ - ١٢٤.

(٥) ص ١٢٥ - ١٤٣.

(٦) ص ١٤٤ - ١٦٣.

(٧) ص ١٦٤ - ١٧٦.

(٨) انظر ص ١٧٧ - ٢٠٣.

والكلمة هي الأداة التي تعبر عن هذه الحياة، وتغطي تجربتها الزاخرة، المترعة، الغنية. . الكلمة هي الجسر الذي يصل بين التجربة الفذة وبين عقول الآخرين وحسهم ووجدانهم.

وليس بمقدور أحد أن يدعي بأن على الكلمة أن تتوقف ها هنا، وأن تنطلق هناك، إلا في مساحات ضيقة لا تكاد تبين خلل المساحات الأكبر والأوسع امتداداً. .

من أجل ذلك سنتجاوز - هنا - الحديث عن موضوعات الأدب الإسلامي، لأننا مهما أفسحنا في مداها، وباعدنا في آفاقها، فلن نكون سوى متجنين على مساحتها الحقيقية الشاسعة المترامية، مضيقين عليها الخناق.

ومن ثم فإننا سنهرب من جريمة حبس البلبل الغريد في القفص، حتى ولو كان هذا القفص بحجم العالم كله. . لأن هذا الطائر الفذ، الجميل، خلق لكي يغرد في الكون على مداه، ولكي ينطلق حراً طليقاً في رحيل يومي بين السموات والارض !!

## ٨

ونرجع إلى أسس التصور الإسلامي وخصائصه. . فلو أننا أحلنا على هذه الخصائص المركزية للتصور الإسلامي الذي تقوم عليه (الإسلامية) في الأدب معطيات المذاهب الأدبية كافة، بدءاً من الكلاسيكية العتيقة، وانتهاءً بالطليعية والمستقبلية، فإننا سنجد الهوة شاسعة حقاً، والجسور تكاد تكون مقطوعة، ونقاط اللقاء والوفاق نادرة شحيحة.

وتزداد الهوة اتساعاً في المذاهب الأكثر حداثة، حيث تلعب الرؤية الفكرية في بنائها ومعطياتها دوراً كبيراً. .

وبمجرد إلقاء نظرة سريعة على أي عمل أدبي واقعي، أو طبعي، أو واقعي اشتراكي، أو سريالي، أو طبعي.. فإننا سنجد أنفسنا إزاء تيارات تتدفق، في معظمها باتجاه مناقض لمجرى القيم، والرؤية، والتصور الذي ينبثق عن الإسلام.. وهذا يؤكد، أكثر فأكثر، ضرورة أن يكون للإسلاميين مذهبهم الأدبي المتميز، وألا يلتفتوا ذات اليمين وذات الشمال طالبين المعونة من هذا المذهب أو ذاك، اللهم إلا بقدر ما يمكنهم ذلك من أدواتهم الفنية، ويزيدهم قدرة على (التعبير الجمالي المؤثر) للتصور المتفرد الذي يحملونه، أو التجربة الخصوصية التي يعيشونها أفراداً وجماعات..

ولن يتسع المجال - ها هنا - لاستعراض وتحليل معطيات المذاهب الأدبية كافة، لتبين نقاط التصادم والارتباط بينها وبين الإسلامية.. ولكننا نريد أن نقف قليلاً عند واحدة فحسب هي (الطليعية)، يمكن أن تكون معياراً لتحديد الموقف إزاء المذاهب الأخرى، خاصة أن بعض هذه المذاهب كالطليعية والواقعية والاشتراكية (الماركسية) قد أصبح أمرها معروفاً تماماً لكل ذي نظر، وأصبح بمقدور أي قارئ أن يتلمس بسهولة ما تتضمنه من تناقضات، سواء في بنيانها الداخلي، أم في وضعها في حالة تقابل مع (الإسلامية)، هذا إلى أننا قد تناولنا - في غير هذا الكتاب - بالنقد والمقارنة عدداً من المذاهب الأدبية والفنية الغربية، الأكثر حداثة، وحللنا مواقفها المتضادة مع الرؤية الإسلامية للمسائل الأساسية في ساحة الكون والعالم، ومجرى الحياة، وتكوين الإنسان، ويمكن أن نحيل القارئ إليها في مظانها هناك<sup>(١)</sup>.

(١) انظر بشكل خاص الكتب التالية للمؤلف:

- ١- فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر.
- ٢- الطليعة في الفن الغربي والإسلامي.
- ٣- أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار.
- ٤- تهافت العلمانية.



تسمى (الطليعية) أيضاً بمذهب (العبث) و (اللامعقول)، وهي تسمية تحمل رؤيتها القائمة القائمة على فوضوية الكون، وعبث الحياة، ولا جدوى الكدح البشري. . ومنذ البدء فإننا نجد أنفسنا بإزاء موقف تصوري نقیض بالكلية لموقف (الإسلامية) القائم على ارتباطية الكون، وغائية الحياة، وجدوى الكدح البشري، وعدالة المصير. .

والكتاب العبثيون يشتركون جميعاً في الإلحاح على الفوضى التي تلف أقطار الكون الأربعة. . على الجنون الذي يضم العالم بين جوانحه، على اللامعقولة التي تربط بين الإنسان والكون. .

إن هؤلاء الكتاب قد غدوا في العقود الأخيرة من هذا القرن مدرسة مستقلة تقوم أول ما تقوم على القواعد؛ التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً وهي الفوضى والعبث واللامعقول، تلك التي وضع (ألبير كامي) حجرها الأساس.

يذكر (رتشارد كو) في كتابه عن (يونسكو) كيف «أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت إلى السطح، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين عدة حركات ثورية كالتكعيبية والمستقبلية والسريرية والتعبيرية والدادية والوجودية، وكلها حركات تسعى بطرائقها الخاصة إلى إلقاء الضوء على موقف الروح الإنساني في كون غاب عنه المنطق. وعندما يختفي المنطق تختفي أيضاً مبررات الوجود. وهكذا نرى أن (يونسكو) - مثل كامي وسارتر - يرى في وجودنا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة، إنها حقيقة ولكنها حقيقة عبثية، فالوجود الذي لا يبرره منطق عبث»<sup>(١)</sup>.

(١) ماهر شفيق فريد، مجلة المسرح، العدد ٩ ص ٨٣.

وواضح مما ذكره (رتشارد - كو) أن هذا التأكيد على اللامعقول ليس في حقيقته سوى ردة فعل عنيفة لسيطرة المذهب العقلي، طيلة قرنين من الزمان، على أفكار الناس ورؤاهم ومعطياتهم. . وإذا كان هذا المذهب قد بلغ درجات قصوى من التطرف و(الدكتاتورية) كما يقول الناقد، فإن ردة الفعل بلغت هي الأخرى من العنف والتطرف، حتى غدت على يد الطليعيين مدرسة تفلسف رؤياها اللامعقولة للكون والعالم. .

ويمضي (ريتشارد - كو) يبين كيف سعى الطليعيون إلى إلغاء النظرة القديمة (الكلاسيكية) إلى قواعد الكون الأساسية : الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وكيف أنهم كتبوا (دراما الساعات المكسورة) بمعنى أن أبطالهم يعيشون في عالم توقفت ساعاته، وحين يفقد الإنسان الشعور بالزمن، تصبح (السن) كلمة لا معنى لها، وما دمننا قد محونا الزمن فقد محونا (تراكم التجارب) التي يأتي بها الزمن، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشيخوخة مثلاً تأتي بالحكمة، وقوانين المكان - من ناحية أخرى - لا معنى لها : فهي تعسفية، وصدقها وكذبها رهن بالإنسان الذي يدركها، وغياب التابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشخصية، فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاسيكيون، وإنما هي حالات دائبة التغير يتبع بعضها بعضاً، وما يقوله (م) يمكن ببساطة أن يقوله (ب) دون أن ينجم عن ذلك ضرر كبير. .

إن (الأنا) ما هي إلا انعكاس للعالم الخارجي، أو قل إن العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير، ففوضى الأول وتشتته تتبدى في الثاني على نطاق أوسع، وليس هناك خط واضح يفصل بين الاثنين<sup>(١)</sup>.

ويبين (يونسكو) - بعبارة أوضح - تهافت الشخصية الإنسانية، لأنها ليست - بعد أن تكشف عبث العالم - سوى قطعة من ملايين القطع التي

يعبث بها الكون «إن كل شخصياتي على خصام مع الدنيا.. لقد غمرهم القلق التاريخي الذي يسود العالم وتورطوا فيه»..

إنه عالم رهيب - يقول يونسكو - إلا أنه عالم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد، فهو يوشك لفرط سخفه أن يكون مضحكاً.. ومن ثم فإن رؤيا الطليعيين هذه للعبث لم تتح لهم أن يطمئنوا للشكل المسرحي العقلي (الأرسطائي) أداة للتعبير، فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدد الشكل، لذا تمرد يونسكو ورفاقه على الواقعية المسرحية، ورفضوا الواقع المنقوص الذي تصدر عنه وتصوره وتفرضه اعتسافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يترأى لحسهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل، بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض<sup>(١)</sup>.

والطليعيون يخنقهم «إحساس بالزوال.. في عالم بلا فضاء من الضوء واللون، إحساس يبدو الوجود من خلاله عديم الجدوى، مستحيلًا، بلا مغزى.. وتلك هي ذروة الوعي بالعبث، حيث يتكشف العالم كخيال موهوم، بعيد عن الاحتمال والتصديق، ويبدو الواقع واللغة فيه كما لو كانا يتفككان ويتهاويان قطعاً متناثرة، ويفرغان من كل معنى، بحيث يبدو في النهاية أنه ما دام كل شيء قد تجرد من الأهمية، فما الذي يسع المرء أن يفعله إلا أن يضحك من كل شيء؟»<sup>(٢)</sup>.

وللطليعيين موقف من الموت.. كلنا يعرف كيف أن (كامي) اعتبره السبب الرئيسي في تجريد الحياة من المعنى (ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى)، وارتكن إليه في القول بعبثية العالم، إذ لو كان العالم مجدياً (فلماذا يموت الناس وهم ليسوا سعداء؟) إن (يونسكو)، رائد اللامعقول، يقف - كبقية رفاقه - أمام الموت يتأمله، وتشيع هذه الوقفة في فنه، على

(١) يوجين يونسكو : ٥ مسرحيات طليعية، المقدمة ص ٢١ - ٢٢.

(٢) نفسه ص ٢٣ - ٢٤.

الأخص في (قاتل بلا أجر) و (الملك يحتضر) كما تشيع في (الأيام السعيدة) لصموئيل بكت «إن الموت يثير الرعب لا لأنه واقعة فظيعة في حد ذاتها، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقتها عبثاً وسخفاً، فضلاً عن أنه في حد ذاته لا معنى له.. يقول يونسكو : (لقد خلقنا لكي نكون خالدين ومع ذلك نموت. الأمر مخيف، ولا يمكن أن يحمل محمل الجد)..»<sup>(١)</sup>

وتجيء الأحلام من وراء الواقع الواعي، والنظرة العقلية للأشياء على شكل رؤى لا حصر لها، تتحطم فيها عناصر الزمان والمكان ووحدة الشخصيات، ويزداد إبحاؤها الدرامي تركيزاً : الحدث المأساوي يزداد مأساوية، يدفعه حزن عميق، فيه يأس مريع، وفيه أسى.. والحدث الملهوي يزداد ملهوية، تغمره سخرية عجيبة، فيه تناقض ساخر مهازل تفوق حدود الخيال الواعي.. ومن بين الأحلام تبرز الكواليس أحياناً : تركيزاً قاسياً من الخوف والرعب والارتعاد.. يركض الإنسان للخلاص دون جدوى، إذ إنه لا يستطيع أساساً نقل خطواته.. ويصرخ مستغيثاً دون جواب، إذ إنه لا يستطيع أساساً إخراج كلماته من شذقيه، رعب غير معقول، ولا يقوم على أساس.. وإذا كانت هذه سمات الأحلام والكواليس، تحديداً لقواعد المعقول : الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وإغراقاً في التناقض بين المأساة والملهية، وتركيزاً قاتلاً للرعب، وعدم قدرة على الخلاص.. ألا يمكن اعتبارها إذاً مرآة أصدق تعبيراً عن الكون والعالم، وعن وضع الإنسان فيهما، حيث تحطمت أسس المكان والزمان، وتهاقت الشخصيات، وملأ الرعب أرجاء الكون، وفقد الإنسان المقدرة على الخلاص، مرآة لا تدانيها في الجلاء والنقاء مرآة الواقع الذي لا يمكن بحال أن يقدم ذات الصورة العجيبة التي يقدمها الحلم أو الكابوس مقتطعة من عجيبة الكون، ومن سدى العالم ولحمة حركة الإنسان فيه؟

(١) د. نعيم عطية : الخطوط العريضة في مسرح يونسكو، مجلة المسرح، العدد ١١ ص ٩٥، عن يوجين يونسكو : ملاحظات وملاحظات عكسية ص ٩١.

ذلك ما يذهب إليه الطليعيون - فعلاً - وذلك سر تعلقهم المسرحي بالأحلام والكوابيس شكلاً ومضموناً، إنهم يلجؤون إليها يوم يلجؤون لاعتقادهم العميق أنه ما من إطار يجعل الناس يرون واقعهم اليومي الذي يتخبطون فيه كالأسماك، مثل الحلم. أكثر من ذلك، إنهم يرون الأحلام جزءاً أساسياً من الواقع الأشمل الذي يضم الوعي وغير الوعي، اليومي والعالمي، ما دام الكون والعالم يفتقدان - أساساً - الخط الفاصل بين المعقول واللامعقول، فلماذا يرتكب الإنسان خطأ الفصل بين اليقظة والنام؟ لا تضاد هناك - إذأ - بين (الحلم الذي يعتمد الطليعيون بكثرة، وبين اليقظة. بل الحلم لديهم امتداد لليقظة، وهو فعل من أفعال الخلق يتم من خلال استكشاف الواقع الأشمل، من حيث إن الواقع المحدود الذي تتخيله الواقعية في العالم الخارجي وحده يحتويه الواقع الأعظم والأوسع للأحلام، وليس العكس، إلا أن الواقع الأشمل الذي يلم به الحلم يبدو لنا - عندما نراه في منظور العالم الخارجي - أقرب إلى الكابوس، فالإنسان لا يخشى شيئاً قدر خشيته للامألوف، ومع ذلك فإننا - فيما يرى الطليعيون - يجب أن نواجه ذلك الخوف في سبيل الإمام بواقع الوجود، وفي سبيل النفاذ إلى ما وراء ذلك العرض الظاهر الباعث على الراحة الذي تخدعنا به النظرة الواقعية، إذ تصور لنا عالماً قائماً على المنطق والعقل.

وبالحري: ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم يراه (كابوساً لا يطاق، وشبه حلم مخيف.. عالم يبدو أنه في قبضة حمى رهيبة.. إلا نكون محقين إذا ما أحسنا أن هذا العالم ليس لنا، إنه ليس عالمنا الحق؟ ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم كهذا، إلا أن يمزق قناع اللاواقع من حوله، قناع المظاهر الذي يصطنع للعالم منطقاً، ويدعي له عقلاً، بالرغم من كل ما يطالع العالم الإنسان به من لا عقل، ولا منطق، ولا قواعد؟<sup>(١)</sup>.

(١) يونسكو : ٥ مسرحيات طليعية، المقدمة ص ٣٨ - ٣٩.

والأمل... أليس هناك أمل في التصالح مع الكون؟ في البحث عن قواعد معقولة له؟ في إيجاد مرتكزات منطقية يثبت الإنسان عليها أقدامه، عبر حركته وتنقله من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان؟ ألا يوجد هناك أمل، على الأقل في كشف جانب من جوانب المصير الإنساني في كون تلفه دوامة رهيبة من الغبش والضباب؟ «الحياة لامعقولة، الموت لامعقول، اللامعقول يسود كل الأرجاء، لكن هذا اللامعقول ذاته يبدو غريباً، مثيراً للدهشة، ومحيراً، ربما كان ثمة سبب للوجود أبعد من تناول عقولنا، إن كل شيء لامعقول إلى الحد الذي يصبح المرء إزاءه... محالاً. محالاً... أن يقف الأمر عند هذا الحد، ربما كان ثمة ما هو أبعد من العقل؟! (راجع أصداء هذه الصرخة في «قاتل بلا أجر» ليونسكو).

لهذا فإن ادعاء اليقين شيء ممجوج، ولهذا أيضاً كان الخيال مبرراً ومشروعاً، ويجب أن نقف على الدوام جميعاً صائحين: سنقاوم... سنقاوم كل شيء، حتى هذا اللامعقول الذي يحيط بنا، مثلما صاح بيرانجييه بطل (الخراتيت) عندما أضحى الناس جميعاً من حوله خراتيت، هناك دائماً الأمل، الأمل الميؤوس منه، كما عند بكت، البرغوث الذي يمكن أن تبدأ منه الحياة من جديد في (لعبة النهاية) كل شيء في هذا الوجود زيغ وضلال... حتى الاعتقاد اللامعقول، إذ أنى لي أن أعرف أن هذا الاعتقاد أو ذاك لامعقول، ما لم يكن عندي صورة دقيقة لما هو المعقول أصلاً؟ ويستبيح يونسكو لنفسه على الدوام أن يناقض نفسه، وأن يهدم حججه بحجج أخرى، ويعتقد أن ذلك هو أقرب إلى الصدق والشرف<sup>(١)</sup>.

أما صموئيل بكت، فإنه إذا ما وجهنا إليه سؤالاً كهذا: الأمل؟ يصل جوابه بنا إلى أمداء بعيدة، غاية في التطرف والعداء بين الإنسان والكون

المحيط به، ذلك أن الإنسان في نظره «أشرف ما في الكون، والذي ينير حقيقته ليس هو الكون، لأن الكون أبكم أعمى لا ينطق ولا يبين ولا يدري من أمره شيئاً، وإنما يجد الإنسان في داخل نفسه ما يضيء له حقيقة نفسه.. وتلك هي خلاصة فلسفة بكت التي يدين بها لإمام الوجودية المسيحية (بسكال)، فعند الأخير أن الإنسان، وإن يكن نباتاً ضعيفاً، إلا أنه نبت مفكر، ورن الكون رن أهلك الإنسان، فإن الإنسان يكون أشرف ممن يهلكه، لأن الإنسان يعلم أنه يموت، أما الكون فلا يدري ماذا يفعل؟!»<sup>(١)</sup>.

تلك هي الخطوط العريضة للرؤية (الطليعية) : فوضى تعم الكون والعالم، ولا تدع لحركة الإنسان فيهما هدفاً محدداً أو مصيراً معلوماً. كون أنشأته الصدفة العمياء، وعالم لا يقوم على قاعدة من العقل.. إذا كان الناس طيلة تاريخهم قد اتفقوا على مواضع وأخلاق وقيم وتقاليدهم، فما ذلك إلا لأنهم مجانين، أو عميان لم يروا بوضوح عبث الكون، أو يعقلوا سخف العالم. إذ أنى لهم أن يصطلحوا على ما هو ثابت في حياتهم، وليس هنالك شيء يمتلك عناصر الثبات، لا الزمان ولا المكان ولا وحدة الشخصية أو اللغة أو العادات والأعراف والتقاليد؟ ثم إن العقل الأكبر الذي ظنوا أنه يسير الكون والعالم إلى مصير معقول ثبت انتفاؤه وتهافته إزاء العبث الطاغوي الذي يلف الكون ولا يدع لشيء فيه أن يقر له قرار..

ومن خلال هذه الفوضى التي يراها الطليعيون تأخذ بخناق الكون، قدموا أجوبتهم المحزنة عن كثير من الأسئلة التي تطرح في موضوع كهذا : الهدف من خلق الكون، المصير الذي سيؤول إليه، طبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان والعالم الذي يضطرب فيه، الحكمة العليا من تشكيل الكون

(١) جلال العشري : صموئيل بكت والأيام السعيدة، مجلة المسرح، العدد ٨ ص ١٠٤.

بهذه الصيغة، ومنْ وضع الإنسان فيه بهذا (الوضع) . . أجوبة حزينة سالبة، يضمها إطار واحد هو العبث واللامعقول، وإنه إذا كان ثمة أمل، أمل ضئيل، فهو في أن يقف الإنسان وجهاً لوجه، أمام هذا العبث الكوني، ويتمرد عليه، على الأقل ليثبت نبذه وشرفه الإنساني الذي يأبى الخضوع للقوى العمياء التي تسوقه إلى مصيره المفجع<sup>(١)</sup>.

ترى هل ثمة مساحة ولو ضيقة تجمع بين (الطليعية) هذه وبين (الإسلامية)؟ إن ما يقال هنا يمكن أن يقال بالنسبة لمعظم المذاهب الغربية الأكثر حداثة والتي عرضنا لبعضها - كما ذكرنا - في غير هذا المكان . .

## ٩

ومرة أخرى: فإن رفض تسمية (الإسلامية)، أو إلحاقها بأي من المذاهب الأدبية المعروفة، لا يعني البتة الانغلاق والتشنج، وعدم الانفتاح، على معطيات الآخرين شرقية كانت أم غربية . . ولابد، إذا أريد للأدب الإسلامي أن يزداد نمواً ونضجاً واكتمالاً، وأن يزداد تأصلاً في الوقت نفسه، أن يفتح ما وسعه الجهد، وأن يتابع المعطيات الأدبية في العالم كله، يوماً بيوم، وساعة بساعة، وأن يأخذ ما وسعه الأخذ على مستويي (التقنية) أولاً، والمضامين ثانياً، شرط ألا يدخل في مجراه النقي، المتفرد العميق، أي جسد غريب قد ينقل إليه عدوى هذا الوباء أو ذاك مما يكتسح فكر الغرب ورؤاه وتصوراته . .

ولقد ذكرت في غير هذا المكان «أن من واجب الفنان المسلم أن يدلي بدلوه، وألا يقف عاجزاً من بعيد، تتناوشه عوامل الإقدام والإحجام،

(١) انظر بالتفصيل: «فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر» للمؤلف ص ١١٣ - ١٤٤ -



وتتوزعه دوافع القبول والرفض. لقد علم الإسلام العرب، يوم أخرجهم من جزيرتهم إلى أطراف العالم، درساً حضارياً سيظل باقياً على القرون: لا ترفضوا! ما دمتم تحملون عقيدتكم في عقولكم وضمايركم وقلوبكم ووجدانكم، وما دمتم قد أسلمتم وجودكم وأهدافكم ومحياكم ومماتكم لله، ولقد قال الرسول ﷺ يوسفها: «خذوا الحكمة من أي وعاء خرجت» ففتح أعينهم جيداً على أن تراث البشرية يجب ألا ينقطع أو يصيبه الدمار، إنه ملك مشترك لبني آدم في كل مكان وزمان، وهو حصيلة كدهم الدائم، وكدهم المشترك، وجهادهم الطويل.

إن الإسلام يرفض بإصرار أن يصيب الحضارة بانتكاسات تعود بها قروناً إلى الوراء، إنه يرفض أن يقطع الخيط الذي يشد المعطيات الحضارية ويحفظ تماسكها، ويرفض أن يلغي - ببساطة - هذه المعطيات إلغاء عشوائياً.

إن ما علمهم الإسلام إياه هو هذا: أن يفتحوا أعينهم جيداً إزاء كل ما تعرضه عليهم الحضارات الأخرى من قيم ومعطيات، فيتمعنوا ويدرسوا ويفكروا وينقدوا ويقارنوا، ثم يصدروا حكمهم لا بالرفض أو بالقبول، ولكن بالاختيار والانتقاء، والعزل والفصل، ثم إعادة البناء... شرط أن يصدروا في فاعليتهم هذه عن العقيدة التي ارتضوها وآمنوا بها... هذا الدرس الكبير، أو ما يمكن تسميته (الاختيار الحضاري الإسلامي)، هو الذي أنشأ حضارة المسلمين في عصورهم المزهرة، وهو الذي هيا لهم أن يتسلموا زمام المبادرة، وأن يتولوا قيادة التراث البشري بنجاح وسط عواصف الجاهلية وأنوائها التي أحاطت بهم من كل مكان... وهو الذي يتيح لكل إنسان مسلم، في كل آونة، وفي أي مكان، فرصة الاختيار إزاء ما يحيط به من ثقافات... وهل أجدر من الإنسان المسلم بهذا الاختيار، وكسب المزيد من الفرص التعبيرية التي أتاحها له الدرس الذي علمه إياه الإسلام؟<sup>(١)</sup>.

(١) في النقد الإسلامي المعاصر، للمؤلف، ص ١٨٠ - ١٨١.

إن هذا ينقلنا إلى إحدى المسائل الأساسية في الأدب، وتلك هي مسألة (المحلية والعالمية)

وليس أجدر من الأدب الإسلامي في تحقيق الوفاق والانسجام والتكامل بين القطبين، فإن الخصوصية الإسلامية التي هي وليدة الزمن والمكان، والتي ينسجها لقاء العقيدة بالإنسان في هذه البيئة (المحلية) أو تلك.. لا تتعارض مطلقاً مع التوجه (العالمي) أو الإنساني، خارج قيود الزمن والمكان والبيئة والتاريخ.. لأن الإسلام، في الوقت نفسه، توجه أبدي صوب الإنسان في كل زمان ومكان.. ولأن من أهدافه أن يصنع عالماً سعيداً لبني آدم جميعاً، وأن يعينهم جميعاً على تجاوز متاعبهم وآلامهم، وإزالة الجدران والعتبات التي تقف في دروبهم صوب أحلامهم المشتهاة..

بل إن الإسلام، برؤيته الكونية، واستشرافه بعيد الآفاق، ونزوعه الشمولي، وتوازن الثنائيات في نسجه: بين ما هو منظور وغيبى، وطبيعي وميتافيزيقي، ومادي وروحي، وثابت ومتغير، ومحدود ومطلق، وفانى وخالد.. الإسلام بهذا كله أقدر - إذا تهيأت له الأدوات الفنية المتمرسية والخبرة العميقة - على خلق وتشكيل أدب عالمي يهتم الإنسان في أقطار المعمورة، ويمكن أن يفرض ترجمته إلى كل لغة حية!!

ولكن، وكما تقول القاعدة النقدية المعروفة، من أن العمل الأدبي الكبير لا يحقق عالميته وانتشاره إلا من خلال أصالته وخصوصيته، أي من خلال تحركه من الخاص المحدد إلى العام المفتوح.. كي لا يغدو عملاً تجريدياً، وكي يكسب ملامحه وتكوينه الحيوي ونسجه ذا اللحم والدم والعظم والأعصاب والملاحم المتفردة.

والحياة الإسلامية المعاصرة مترعة بالخصوصيات، بالبيئات المحلية، بالملاحم والسمات اليومية، المحددة، التي يمكن أن ينطلق منها الأدب،

فيبني معماره من حجارة الأرض الإسلامية، وطينها وخشبها، وينقش واجهاتها باليد المتفننة المسلمة ذات الماضي العريق. . ومن خلال هذا التشكل الفني ذي الأرضية البيئية، يمكن أن يطرح العمل الأدبي المبدع كل ما يعتمل في نفس الإنسان. . في عقله وشعوره وحسه على امتداد المساحات الزمانية والمكانية التي ينتشر فيها الإنسان.

وثمة التاريخ الإسلامي، رحلة الحياة المنظورة، والتجربة المعيشة عبر أربعة عشر قرناً من عمر الزمن. .

هنا، عبر هذا المدى الواسع المترع بالخصوصية، والتميز، يمكن أن يتحرك قلم الأديب المسلم، فيخاطب العالم كله من خلال تاريخه الخاص، وتجارب آبائه وأجداده.

ولكن ثمة عدد من الشروط يتوجب على الأديب المسلم أن يأخذ بها؛ في محاولته اعتماد معطيات التاريخ الإسلامي اعتماداً أدبياً<sup>(١)</sup>.

إنه يتوجب عليه - مثلاً - ألا يقف عند حدود الواقعة التاريخية يعرضها بتفاصيلها وجزئياتها، كما نشهد في العديد من الأعمال الروائية، الأمر الذي يجعلها لا تعدو أن تكون (درساً) تاريخياً لا تتعمق إسقاطاته الضمائر والعقول والنفوس، وإنما عليه أن يتجاوز الواقعة إلى ما وراءها من قيم ودلالات ورموز وإرهاصات، فيكشفها بقدرته على التركيز، ويشحنها بوجدانيته وتعبيراته، ويجعلها تمنحنا، بعفوية بالغة، وبتأثير عميق في الوقت نفسه، المزيد من القيم البنائية التي تسهم بشكل غير مباشر في تنمية حياتنا، وإغناء خبراتنا، وتعزيز شخصيتنا الحضارية وتأصيلها. . .

(١) انظر بالتفصيل بحث «نحو آفاق تربوية في عرض التاريخ الإسلامي على الشاشة الصغيرة» ضمن كتاب «مع القرآن في عالمه الرحيب» للمؤلف (دار العلم للملايين بيروت - ١٩٧٩).

وثمة حشد كبير من الأدباء الذين ينتمون لعدد من الأديان والمذاهب الوضعية، يسعون لتعزيز وتأكيد قناعاتهم الخاصة، على حساب معطيات التاريخ الإسلامي نفسه، ويخرجون على الناس بأعمال أدبية تحمل نَفْساً مغايراً كانوا على استعداد - من أجل بعثه في أحداث تاريخنا - لأن يبدلوا حتى بدايات هذا التاريخ، ويعيدوا صياغة مواده الأولية من أجل أن تعينهم على تكوين الصورة التي يلزمهم بها انتماءهم المذهبي، رغم أنها تندّ بكليلاتها وتفاصيلها عن روح هذا التاريخ، وبنيتها المتميزة، وملامحه المتفردة، .. ولن يكون وقوفنا بوجه هذا السيل التحريفي المدمر الذي يغير معالم تاريخنا بدلاً من أن يستعيدها ويستوحىها، جاداً فعلاً إلا بإبداع مزيد من الأعمال الأدبية الإسلامية الملتزمة روح هذا التاريخ، وخصوصيته المتفردة.

وثمة حشد آخر من الأدباء، لا ينتمون لأي فكر أو عقيدة، يأتون إلى ساحة التاريخ الإسلامي، فيختارون بعض وقائعه، ويعيدون صياغتها وتركيبها من زاوية رؤية شخصية مزاجية حيناً، تجارية مرتزقة أكثر الأحيان، فإذا بأخطر وقائع هذا التاريخ، تتحول في جوهرها إلى قصص حب جارف، وغرام ملتهب، يكون بمثابة السبب الأكبر والأهم وراء الأحداث والإنجازات التاريخية الكبيرة، بما فيها المعطيات العقيدية الصرفة.. وإذا بالعديد من الشخصيات التاريخية التي نزلت - عبر كفاحها الطويل - عرقاً غزيراً ودماً كثيراً، وانتهى بها الأمر - في بعض الأحيان إلى الاستشهاد - إذا بها لا تتحرك في كفاحها هذا إلا من خلال عاطفة حب جارف، وهيام عنيف أسر بالمحبوب.. رغم أن العناصر (الدرامية) التي تعد إحدى المقومات الأساسية للعمل الأدبي المبدع، قد لا تقوم في أحيان كثيرة على علاقات التقابل المأساوي بين الحبيب والمحبوب.. وما أكثر ما تتواجد هذه العناصر في أنماط أخرى من التجارب التي يزخر بها تاريخنا بدءاً من الصراع الذاتي ضد قوى التفكير والتدمير للشخصية البشرية، من أجل

تحقيق توحدها ونقائها وانسجامها، وانتهاء بالسعي الدائب للتحقق بالقرب من الله والتوجه إليه وحده، مروراً بالممارسات الجهادية على الجبهات الواسعة ضد الطواغيت التي تسعى إلى سحق الإنسان والجماعة المسلمة.. هذا فضلاً عما يتضمنه الكثير من الوقائع التاريخية من عناصر (المفاجأة) و(البطولة) و (المأساة) والاحتدام العاطفي أو الوجداني، والتي يمكن للأديب أن يكتشفها عبر تجواله في ساحات هذا التاريخ، فيصنع منها أعمالاً أدبية إبداعية مؤثرة.

لابد - أيضاً - من تجاوز التكرار الممل، والوقوف الدائم عند مساحات بالذات من تاريخنا الخصب الطويل، رغم أن العناصر (الدرامية) في هذه المساحات قد لا تكون أكثر كثافة وتعبيرية عن مساحات ووقائع أخرى لم تمتد إليها - حتى الآن - يد أديب.

إن الفترة الزمنية المبكرة لبعض وقائع تاريخنا ومساحاته تحمل ولا ريب نداءاتها العقيدية والتاريخية، ولكنها قد لا تطاوع ضرورات الإبداع الأدبي، فهي إما أن تفقد قدرتها التعبيرية وتأثيريتها، وتتحول إلى عملية سرد تاريخي فحسب، وإما أن يجد الفنان نفسه مضطراً لكسر بعض الحواجز التي تحتمها الاعتبارات الدينية نفسها، فيقع في أخطاء ما كان سيقع في إساها لو أنه عرف كيف يختار الوقائع والأحداث.

إن على الأدباء اليوم أن يبحثوا عن مساحات جديدة في أمداء تاريخنا المتدفق، الثر.. وإنهم - يقيناً - واجدون هناك من الوقائع والأوليات ما يمكن أن يصنعوا منه أعمالاً أدبية كبيرة، قد تحقق - جمالياً - نتائج طيبة.

هنالك - كذلك - ضرورة تحقيق قدر كبير من (التواصل) بين التاريخ والواقع، أي بين الماضي والحاضر.. أن يسعى الأديب إلى كسر الجدار الزمني لتعصير الواقعة التاريخية، أو لنقلنا - بالمقابل - إلى قلب التاريخ

لمعايشة وقائعه والتفاعل مع معطياتها. . إن تحقيق هذا التداخل الزمني يمثل ضرورة فنية وموضوعية في الوقت نفسه. . . ضرورة فنية لأنه يجعلنا نقف في قلب الواقعة التاريخية التي تملك حينذاك، ومن خلال التعبير الأدبي المتمكن، قدرتها الكبيرة على التأثير. . وضرورة موضوعية لأنه سيخرج الفعل التاريخي من سكونيته، وأسر الزمني، ومتحفيته وتسطحه، ويعيد إليه الحياة كفعل دائم التدفق والتمخض. . فعل يتحرك باستمرار لكي يصب في بحر وجودنا الراهن فيغنيه ويحفزه، ويجعله أكثر أصالة بتلقيه الدم الحار من رحم تاريخه هو، وماضيه هو، فلا يغدو هجيناً. .

لقد تعامل أدباء الغرب مع تاريخهم، وبمجرد أن تلقى نظرة متمعنة على نتاجهم الجاد في هذا المجال، فإننا سنجدهم يتجاوزون - في كثير من الأحيان - الوقوف السالب أمام الواقعة التاريخية. . الوقوف الذي يسجل حركة التاريخ في جانب ما من جوانبه تسجيلاً فوتوغرافياً، فلا هو يضيف شيئاً جديداً، ولا هو يسعى إلى إعادة تركيب الواقعة بما يجعلها أكثر تأثيرية من مجرد عرضها المتحففي الصرف. . لقد تجاوزوا هذا الموقف، لأنهم لا يريدون أن يقدموا لنا عروضاً (تعليمية) عن تاريخهم، فلتلك العروض رجالها ومجالاتها المدرسية المعروفة، ولكنهم يسعون إلى تحقيق قدر من التوافق بين رؤية الأديب البعيدة، وأمانة العالم والتزامه. . بين الذات والموضوع. . بين ما كان وما هو كائن وما يمكن أن يكون. . إنهم يتجاوزون عملية رصف الأحداث رصفاً عرضياً، لكي يتوغلوا باتجاه العمق، لاستجاشة كل القيم التي يمكن أن يحدثنا عنها الفعل التاريخي، وهو يتمخض في صيرورته الدائمة، عن مزيد من القيم والمؤثرات والتشكيلات التي تهيم الإنسان المعاصر، وتلامس واقعه وأحلامه وأمانيه.

إننا نقرأ - على سبيل المثال - «بكت» لجان آنوي، و«الأرض كروية» و«ليالي الغضب» لسلاكرو، و«أنطونبوس وكليوباترة» لشكسبير، و«العدالون»

و«كاليغولا» لكامي، و«هنري الرابع» لبيراندللو، و«الذباب» لسارتر، و«تاج على ميتة» و«مالانتستا» لمونترلان.. فنجد أنفسنا أمام أنماط (حركية) من التعامل مع الواقعة التاريخية، تتمثل فيها الشروط التي يتوجب على الفنان المسلم الذي يسعى إلى اعتماد التاريخ الإسلامي في بناء أعماله، أن يفيد منها ما وسعته الإفادة، لا سيما وأن تاريخنا الخصب يتضمن من الوقائع والأحداث ما يمكن أن يمنحنا المزيد من الدلالات المكثفة والقيم الموحية والمؤثرات التي ترفض أن يأسرها زمان أو مكان.

إن العمل الأدبي الذي يعتمد الأرضية التاريخية ليس - من جهة أخرى - ترفاً فكرياً أو جمالياً محضاً، لكي يفصل التاريخ عن الواقع ويعرضه كما لو أنه عالم قائم بذاته، لا يمنحنا إلا (جمالية) نسبية، قد لا يكون لها أي تأثير فعال على تجربتنا الحية المعيشة، ومن ثم فإن تحطيم الفاصل الزمني، وتحقيق التواصل بين تجربتنا الماضية وحياتنا الراهنة، سيؤول إلى إغناء العمل الأدبي، وتجاوز حدوده الجمالية الصرفة إلى الفعل والتغيير والبناء.

إن الأديب (المادي) يمارس هذا الأسلوب وهو بصدد خلق المؤثرات المطلوبة من خلاله إبداعه الأدبي.. ومعنى هذا أن يتحول تاريخنا إلى (أداة) تتداولها أيدي غريبة، لم تتواصل مع هذا التاريخ ذلك التواصل الطبيعي الذي يرفض التزييف والتحريف.. إن تاريخنا يتحول على أيديهم إلى حاضرننا لكي يعانقه، لكنه بعد أن يصل مرحلة اللقاء والعناق هذه يكون قد أضعاف هويته وفقد شخصيته...

وفي مقابل هذه الخطيئة، وكبديل عنها، يجب أن يتحرك الأديب المسلم، فيكسر جدار الزمن، ويصل بين الماضي والحاضر، بين التاريخ والواقع، لكي يمنحنا من خلال إبداعه الأدبي، القيم الكبيرة التي تمكننا من تأصيل شخصيتنا، وحماية ذاتنا الحضارية في مواجهة غزو فكري لن يلقي سلاحه قبل أن يمحو هذه الشخصية محواً، ويدمر هذه الذات تدميراً..

وثمة - على مستوى الأدب المسرحي - مشكلة إيجاد بديل فني مناسب لتغطية الفراغ الذي يحتمه اختفاء بعض الشخصيات الخطيرة ذات المكانة القيادية المتقدمة في تاريخنا، كالأنبياء عليهم السلام، وكبار الصحابة رضي الله عنهم.

لقد استطاع بعض الفنانين - فعلاً - تجاوز هذه المشكلة دون أن يلحق ذلك أي ضرر يذكر بأعمالهم، ولكن الاتجاه السائد الآن - على مستوى المسرح والتلفزيون والسينما - هو المزيد من (رفع الحرج) في عرض شخصيات كهذه بشكل مباشر، الأمر الذي تترتب عليه نتائج (تربوية) سيئة بالنسبة للصغار بوجه خاص... إنهم - على سبيل المثال - يرون الرجل الذي قام قبل شهر أو شهرين بدور (خالد بن الوليد) رضي الله عنه - يظهر في تمثيلية أو مسرحية تالية فاسقاً شريعراً أو متملقاً ذليلاً.. وهم يرون المرأة التي قامت بدور (الشيما) أخت الرسول عليه السلام تبرز في عمل آخر بدور امرأة ساقطة... فيحدث ذلك في تصوراتهم الكثير من الكسور والشروخ. هذا فضلاً عن أن أي ممثل معاصر لن يكون، مهما بلغ من نقائه الخلقي وسمو تجربته، بالمستوى الذي يمكنه من تجسيد دور هذا الصحابي أو ذاك.. ومن ثم فإن على الفنان المسلم أن يجد بديلاً فنياً، يتميز بالمرونة والدوام، لمنع تكرار هذه الظاهرة، والتعويض عن الفراغ الذي يتمخض عنه، ولن يتم هذا إلا بتعاون كافة عناصر العمل الفني التمثيلي: المؤلف والسيناريست والمخرج ومهندس الديكور والممثل... إلى آخره.. إن العمل التمثيلي ليس إنجازاً بسيطاً يترتب نجاحه على هذا الطرف أو ذاك، ولكنه جهد (مركب) لن يمضي إلى هدفه إلا من خلال تضامن وتكامل عدد من العناصر التي ذكرناها قبل قليل، وهي لا بد أن تملك حداً أدنى - على الأقل - من الرؤية المشتركة والالتزام، ورغم ذلك يبقى النص الأدبي هو الأساس، حجر الزاوية التي لا بد منها لقيام العمل الفني الجاد الملتزم،



فالمؤلف هو الذي يصنع هذا العمل، يختار مواده الأولية، ويحدد أبعاده الزمانية والمكانية، ويضع صيغته شبه النهائية، وينفخ فيه من روحه، فيمنحه وجوده وشخصيته، وإن كل ما سيتم بعد ذلك على أيدي الفنانين، وبخاصة المخرج والممثل، لن يعدو عملية تحويل لهذا العمل الأدبي من صيغته التعبيرية التي تقوم على الكلمة، إلى صيغة تعبيرية تقوم على الحركة.

## ١٠

والآن.. ما هي وظيفة الأدب في المنظور الإسلامي؟

كما هو الحال بالنسبة للعديد من المبادئ والمذاهب والعقائد التي اعتمدت الأدب، والفن عموماً، لتحقيق هذا الهدف أو ذاك، وللترويج لهذه المقولة أو تلك، وحملها إلى وجدان الناس وعقولهم وقلوبهم.. فإن العقيدة الإسلامية يمكن أن تعتمد الأدب لتحقيق أكثر من هدف، وتعزيز معطيات هذه العقيدة بأشد الأساليب والطرائق قدرة على (التأثير) في الإنسان المثقف، ومنحه القنوات الكافية بأحقية هذا الدين في صياغة الحياة، وصدقه المطلق في التعامل مع الكون والعالم والحياة والإنسان.

إن الأدب، والفن عموماً هو تعبير (جمالي) (مؤثر) عن الرؤى والتجارب والمواقف والقناعات والخبرات.

ليس أدباً أو فناً ذلك الذي يتشبث بالجمال وحده.

ليس أدباً أو فناً ذلك الذي يعتمد على التأثير وحده.

لابد من التقاء القطبين لكي يتحقق العمل الفني المطلوب.. وإلا غدا صياغة حاذقة على مستوى الشكل في الحالة الأولى، ومباشرة وتقريراً على مستوى المضمون في الحالة الثانية.

والأديب الحق هو الذي يحقق أقصى درجات الوفاق بين الجمالية والتأثيرية، أو بين المبنى والمعنى كما يصطلح نقادنا القدماء. الأديب هو الذي يعرف كيف يحقق التناسب المطلوب، ويوزع المساحات الضرورية بين هذا المطلب أو ذاك.

والأدب، بهذا الشرط الضروري، سوف يفترق عن الفلسفة أو العمل الفكري أو الأكاديمي عموماً في كونه يخاطب كينونة الإنسان، بما أنه كائن فذ متفرد عقلاً وروحاً وجسداً وغرائز وأشواقاً ووجداناً.. بينما تسعى الفلسفة إلى مخاطبة عقله فقط.. وفي كونه يعتمد القيم الجمالية في التواصل مع الآخرين، بينما تتجاوز الفلسفة هذا المطلب، وتركب أشد الصيغ تركيزاً وتجريداً وجفافاً لتمنح العقل البشري قناعاته المرجوة.

إن الأدب بهذا المعنى فرصة طيبة لتقديم خبرات الإسلام ورؤاه ومواقفه ومعطياته. وزرعها في أفئدة الناس وعقولهم ووجدانهم لكي ما تلبث أن تزهر بالعطاء، وتثمر في نفوسهم حدائق ذات بهجة وفاكهة وأباً.

إن الأديب هو الزارع المتمرس الذي يعرف كيف يشق الأرض لكي تستقبل الماء المنصب من السماء، فتكون الخضرة الواعدة، ويكون النخل والرمان والزيتون.

نحن في عصر الميكانيك.. نعم.

وبقدر ما يتطلب منا هذا العصر أن نزيد في فعاليتنا لكي يكون لنا مهندس أكثر يملك القدرة على أن يبتكر جهازاً جديداً، أو يضيف إلى حقل الإنتاج رقماً جديداً، فلننا في أمس الحاجة، في الوقت نفسه، لكي يكون لنا أديب أكثر يملك القدرة على أن يقدم عملاً فنياً مبتكراً، أو يضيف إلى مكتبتنا الإسلامية كتاباً جديداً.

إن موازنة صوت الميكانيك الصارم لا تكون إلا بصوت الفن المؤثر الجميل، وإن عالماً يأخذ بخناقه التكاثر بالأشياء، لا يتحطم طوقه القاسي إلا بضربات الأدب الذي يعرف كيف يخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها.

لقد جاء الإسلام لكي يمارس هذا التحرير.. فما أجدد أن تعتمد قدرات الأدب لتعزيز المحاولة في كل مكان وزمان، وتمكينها من التحقق..

إن وظيفة الأدب في المفهوم الإسلامي وظيفة حيوية بالغة الخطورة.. حتى لتكاد أن تكون حتمية إذا جاز لنا أن نأخذ بمنطق الحتميات.

فإذا ما تذكرنا كيف أن كتاب الله الخالد اعتمد جمالية الكلمة وتأثيرية المضمون لهز وجدان الناس، وإيقاظ عقولهم، وتحريك أفئدتهم،.. كان لنا أن نعرف كم هي خطيرة حاسمة مهمة الأدب في الحياة الإسلامية..

إن القرآن هو المدرسة الكبرى التي تعلمنا منها الكثير، ويتوجب أن نتعلم منها في هذه.

ونستطيع، بسهولة بالغة، أن نضع أيدينا على حشد من (الوظائف) التي يمكن أن ينفذها الأدب في إطار المفهوم الإسلامي..

ولنبداً بأهمها وأكثرها شمولاً: (الوظيفة العقيدية)..

إن الأديب، ها هنا، يحمل سلاح الكلمة لكي يقف في صف الدعاة.. واحداً من أكثرهم قدرة على الفاعلية والكسب والامتداد.. إنه يقوم بتوصيل رؤية الإسلام للكون والحياة والعالم والإنسان، لا بمفاهيم تجريدية، وأفكار صارمة، ومقولات قاطعة كالسكين، ولكن بالصورة المشخصة، والتجربة المعيشة، والخبرة التي يجري الدم في خلاياها وشرائينها، فيبعث فيها

الحياة، ويجعلها تضحك وتبكي، وتفرح وتحزن، وتتوحد وتمزق، وتشرق وتغيم، وتظهر وتغيب، وتحيا وتموت.

إنه من خلال التجربة الحيوية، لا مقولات العقل المجرد واستنباطاته، يقول للناس هذا حلال وهذا حرام.. وبواسطتها يخرج بهم من الطرق الملتوية إلى الصراط.. من خلالها وهي تتمخض وتضطرب وتنفور، يكوهم بنار المروق لكي يستدوقوا برد اليقين، يطعمهم الشوك والحسك لكي يتجاوزوه إلى التفاح والكمثرى.. يدخل بهم الأنفاق المظلمة لكي يحمداوا الله عندما يروا النور..

إن معطيات هذا الدين، يمكن أن تتركب إلى الناس ألف مركب في كل زمان ومكان.. وليس كمركب الفن المؤثر الجميل من يقدر على فتح صوى الوجدان البشري، لكي تستقبل هبة اليقين الذي جاء به الإسلام، هنالك حيث يتوحد الإنسان وينسجم ويتوافق مع الموجودات على مدى الكون الفسيح..

إن الأديب وهو يمارس عملية تشكيل الكلمات وصياغتها وهندستها للتعبير عن هذا الجانب أو ذاك من الحياة الإسلامية، ولتوصيل هذه الرؤية أو تلك من عقيدة الإسلام للآخرين، إنما يمارس وظيفة من أخطر وظائف الأدب على الإطلاق..

ولنتذكر كيف أن التواصل لن يتحقق بصيغته الفاعلة المرجوة إن لم يضم جناحيه على طرفي الإبداع : الجمال والتأثير، وإلا انزلق صوب الصياغة الشكلية الميتة، أو وقع في مستنقع المباشرة والتقريب..

هذا إلى أن وظيفة الأدب العقيدية يتوجب أن تعرف كيف يكون الالتزام.. مرناً وصارماً في الوقت نفسه من أجل كسب المعركة، والمضي بالدعوة إلى آفاق أبعد..

المرونة من أجل تجاوز التلقين والتقرير .. والصرامة من أجل الحفاظ على الشخصية الفنية الإسلامية من أن تفكك وتبعثر وتضيع ..

إن تعبير الأدب عن الفكرة الإسلامية أمر ليس من السهولة بمكان ما دام أنه يسير على خط رفيع بين هذا وذاك .. ولكن التمرس على المتابعة والقراءة والعطاء هو الذي يحيل الخوف والشك والتوجس إلى ثقة ويقين وانطلاق إلى الهدف دون خشية من العثرات التي قد تنزلق به ذات اليمين أو ذات الشمال ..

كل الوظائف الأخرى التي سنتحدث عنها هنا بإيجاز يمكن أن تندرج تحت ظل هذه الوظيفة الكبرى ما دامت أنها روافد تتجمع وتتعاطف لكي تصب في نهاية المطاف، في بحر العقيدة الواسع العميق ..

ولن يكون من المحتوم على الأديب المسلم أن يقصر همومه على عرض القيم والمواقف الإسلامية في معطياته .. يكفي أن يهدم عقائد الوضاعين ومذاهبهم وتصوراتهم .. يكفي أن يكشف عما تتضمنه من كذب وزيف وخديعة .. يكفي أن يحكي عن مردودها على الإنسان المأ وتعاسة ونكدًا وشقاء .. لكي ما يلبث أن يتضح للناس أن البديل الوحيد .. البديل الحق .. هو الإسلام وحده ..

إن القصيدة، أو القصة، أو المقالة، أو الرواية، أو المسرحية، إذا ما أتيح لها أن تمارس نقدًا جماليًا مؤثرًا للمعطيات والمذاهب الوضعية التي تسعى لاستعباد الناس للآلهة والأرباب والوضاعين من دون الله .. وإذا أتيح لهذه الأعمال أن تهدم - بعبارة أخرى - هدمًا جماليًا مؤثرًا تلك المعطيات فإنها ستكسب المعركة لصالح الإسلام .. ولن تكون في نهاية التحليل سوى أعمال إسلامية يمكن توظيفها عقيدياً، جنباً إلى جنب مع تلك الأعمال التي تكرر همها من أجل عرض بنائي، بالأسلوب الجميل المؤثر نفسه، لهذا

الجانب أو ذاك من عقيدة الإسلام المتفردة، ورؤيته الفذة للكون والعالم والوجود..

إن وظيفة الأدب العقيدية تمتد وتتسع لكي تنفسح على مدى رؤية الإسلام وتصوره الشامل للكون والعالم والإنسان، وهو تصور يتفرد بامتداده وعمقه وانتشاره فيما يمنح الأديب ألف فرصة وفرصة للتعبير المؤثر الجميل..

انه تصور يسعى للتحقق بأكبر قدر من الوفاق والتناغم بين الإنسان والوجود، وايجاد علاقات صميمة بين كافة الأطراف التي يحتويها الكون ويضم جناحيه عليها.. التحقق - كذلك - بأكبر قدر من الحضور في قلب الطبيعة والعالم وصولاً إلى الله.. والتوجه إليه والتلقي عنه وحده..

إن الأديب يجد نفسه هنا في ساحته الحقيقية المترعة المشحونة، فهي - بحق - أكثر الساحات قرباً من حقيقة الإبداع الجمالي، والتصاقاً به، وبعداً - في الوقت نفسه - عن المباشرة والتسطح والتقرير.

هنالك الوظيفة (السياسية)، إذا صحت التعابير.. إن الأدب ها هنا يمكن أن يحقق حداً أدنى من التوحد الإسلامي في الإحساس والرؤية والتجربة.. في عالم يسوده التمزق، والتباعد، والقطيعة، وسوء التفاهم، والبغضاء..

إن الأديب الإسلامي يمكن أن يتجاوز ما يحدث فوق، فيما يسمى بالقمة.. إلى أمم الإسلام وشعوبه وجماهيره الساحقة، لكي يتحدث عنهم وإليهم.. ولكي يجسد أمام وعيهم الذي تضغط عليه أجهزة الإعلام صباح مساء، أهدافهم الضائعة، ومطالبهم الملحة، وآمالهم المرتجاة.. لكي يحكي عن الآلام التي تجمعهم، والمصائب التي تلفهم، والويلات التي تطحنهم، والمؤامرات الكبيرة التي تحاك ضدهم بليل أو نهار.. لكي

يحضهم على التحرك من أجل قطع أيدي الكبار التي تمتد صباح كل يوم لكي تولم عليهم.. على أرضهم وكرامتهم وشرفهم وأموالهم وبرهم وبحرهم.. فتجعل منهم القصعة التي حذر منها الرسول المعلم يوماً، ومن أن تتداعى عليها الأمم يوماً، رغم أن المسلمين كثيرون، كثيرون جداً.. ولكنهم غثاء كغثاء السيل.

إن صوت الأديب يمكن أن يفعل الأفاعيل في هذا الليل العميق.. إن انقذاح شرارة واحدة في الظلماء قد تكشف الطريق.. وإن كلمة تنطلق بصدق من وجدان قائلها قد تعينهم على مواصلة الدرب صوب مصائرهم التي طمس عليها وأوصدت دونها الأبواب.

إن وظيفة الأدب ها هنا لكبيرة حقاً.. إنها الضوء.. والإشارة.. والمعاونة.. والأمل.. والقدرة على التجاوز.. والانطلاق..

فضلاً عن أنها (المعامل) التي يشد ملايين المسلمين على هم واحد، وإحساس واحد، ورؤية واحدة، ومصير واحد.. لقد بعثتهم السياسات، فأحرى أن توحدهم الكلمات..

وثمة ما يرتبط بهذا، إنها الوظيفة (الاجتماعية).. إن الأدب الإسلامي مدعو لأن يبذل قصاره لإغناء التجربة الاجتماعية الإسلامية، وحمايتها وتحسينها ضد عوامل التفكك والتحلل والغربة والفناء...

إن ما تبقى لمجتمعاتنا الإسلامية، عبر رحلة التاريخ الطويلة، (بقايا) مما أراده دين الله لهذه الأمة لكي تتوحد وتسعد، وكي تكون لها (المكانة الوسط) التي أرادها لها الإسلام.. لقد نقضت هذه المجتمعات مطالب عقيدتها والتزاماتها الاجتماعية عروة عروة.. تأمر عليها المتآمرون لتحقيق هذا الانسلاخ.. نعم... ولكن تأمرها على نفسها، بالجهل والإغراء، والضعف وعدم اتقاء الفتنة كان أكبر بكثير..

ومع ذلك كله، فإنها تملك بحمد الله وقوة هذه العقيدة، بعض ما أراد لها الإسلام أن تكون عليه.. وإنه ليتوجب علينا أن نكافح في الباطن والظاهر من أجل حماية هذا الذي تبقى.. وتحصينه.. وتعميق جذوره في النفوس والآفاق.

وإن الأديب هو واحد من المدعوين لممارسة المهمة الخطيرة بفنه القادر على التأثير.. والتحصين.. بل إنه مدعو إلى أكثر من هذا.. إلى دعوة المجتمعات الإسلامية لاستعادة ممارساتها الأصيلة، وقيمها المفقودة، وتكافلها الضائع، وتقاليدها الطيبة، وإحساسها المتوحد، وصبغتها الإيمانية التي أبهتها رياح التشريق والتغريب.

إن الأديب المسلم ببنائه النماذج الاجتماعية المرتجاة.. وبهدمه البدائل القبيحة التي غزتها وأزاحتها.. إنما يمارس مهمة مزدوجة، تنضفر في نهاية المطاف لكي تؤدي وظيفتها الاجتماعية على أحسن ما يكون الأداء..

إن صورة المجتمع الإسلامي المنشود يمكن أن تجليها للناس، وتدعوهم إليها، في الوقت نفسه، قصة أو قصيدة أو مسرحية أو رواية أو مقال.. وإذا كان (فانتيل هوريا) قد تحدث عن مجتمع مسيحي.. و(جدعون) عن مجتمع يهودي.. و(باسترناك) عن مجتمع ليبرالي.. و(شولوخوف) عن مجتمع شيوعي.. و(كامي) عن مجتمع وجودي.. و(ميتشل) عن مجتمع رأسمالي.. و(مورافيا) عن مجتمع منحل. فإنه قد آن الآوان لكي يبرز أديب، بل أدباء إسلاميون، لكي يتحدثوا لنا عن مجتمع إسلامي، ويقصوا على العالم من أنبائه وملامحه التي لم يعرفها، قط، مجتمع من المجتمعات.

في مقابل الوظيفة (الاجتماعية) هنالك الوظيفة (النفسية).. إن الإنسان المسلم المعاصر يعاني من تأزم نفسي مخيف.. لم يشهد له تاريخ الإسلام



مثيلاً.. ما في هذا شك إذا أردنا أن نكون صريحين.. إنه فريسة ضغوط هائلة لا تطاق، تنصب عليه من كل مكان لكي تسحقه وتدمره وتزيده تأزماً وتعقيداً.. ضغوط حضارة مادية وعلمانية مضادة ومتفوقة تسعى لاقتلاعه من الجذور.. ضغوط هزائم عقيدية وسياسية واجتماعية متلاحقة كانت تتزايد مع الأيام بحساب المتواليات الحسابية وربما الهندسية.. ضغوط حملات إعلامية قاسية لا تدعه يرتاح ساعة من نهار.. ضغوط فتن اجتماعية تسعى لأن تقذف إلى الشارع بكل ما تبقى له من قيم والتزامات وقناعات كما تقذف أثاث وبقايا أولئك الذين حجز على أموالهم، وجردوا من الدور التي بنوها بكدهم وعرقهم.. ضغوط شتى من كل مكان وبمختلف الاتجاهات.. إن الإنسان المسلم موضوع اليوم بين المطرقة والسندان.. وواقع في كل لحظة بين ضربة من هنا ودفع من هناك.. فكيف لا يتأزم ويزداد تعاسة ونكدًا وتعقيداً؟!

إن صوت الأدب ينطلق هنا لكي يؤدي وظيفة نفسية ليست كالوظائف !!

إنه يغدو ضرورة محتومة إذا ما أريد لهذا الإنسان أن يتمتع على الضغوط وأن يتحصن ضد عوامل التفكيك والتدمير والإفناء.. إذا ما أريد له أن يتطهر من مخاوفه وهزائمه وعقده.. ويستعيد توحده وتحرره واعتداده وقدرته على المضي في الطريق..

إننا نتذكر هنا (كائرسيس) أرسطو : التطهير الذي قال: إن مشاهدة الأعمال الفنية، أو قراءتها، تحققه للمأزومين بمجرد أن يروا بأم أعينهم نماذج تعاني مما يعانون منه.. فكأنهم يخلعون أو يستخرجون هذه المعاناة من أعماق نفوسهم - بعبارة أدق - لكي يسقطوها على الآخرين فيتحرروا منها.. إن مشاهدة الخوف متجسداً بهذا البطل أو ذاك يحرك من الخوف.. هكذا قال الفيلسوف والناقد اليوناني القديم.. وإننا نستطيع أن نتصور كيف سيلعب الأدب الإسلامي دوره في التطهير والتحرير.

ثم إن تحليل معاناة المسلم، وتفكيك عقدها، وفك ارتباطاتها المؤلمة في طبقات نفسه العميقة، لن يعينه على رؤية البعد النهائي لشقائه فحسب، ولكنه قد يعينه على ممارسة ما يسميه علم النفس بالتصعيد.. تحويل هذه الآلام والعذابات إلى طاقة إبداعية قد تخدم ما يعتقد ويؤمن به من قريب أو بعيد..

إن (نمذجة) الأزمات التي يعانيها الإنسان المسلم المعاصر - إذا صح التعبير - وتجسيدها بلغة الفن، سوف تجعل كل واحد من هؤلاء يدرك أنه ليس وحده في ميدان العذاب.. وإن آلاماً مؤلفة من بني جلدته يعانون مثلما يعاني، وسوف تمكنه - وهذا هو الأهم - من التفوق على مأساته، والانطلاق إلى أهدافه وهو أكثر قدرة على المقاومة والتحمل.. متحرراً حتى الأعماق من كل إسقاط قد يعيق تقدمه، ويشله عن مواصلة الطريق..

إن وظيفة الأدب النفسية لهي وظيفة جديدة بالاهتمام... حقاً..

هنالك أيضاً الوظيفة التاريخية أو (التوثيقية) إذا أردنا التعبير الدقيق.. يعني أن يمارس العمل الأدبي الإسلامي مهمة تصوير وتحليل وتثبيت بعض التجارب الإسلامية المؤطرة زماناً ومكاناً.. يوثقها بلغته الخاصة.. كيلا تتعرض للضياع أو للتحريف والتزوير..

وإذا كانت مهمة التاريخ أن توثق بمنهجها العلمي هذا الجانب أو ذاك، وهذه التجربة أو تلك مما عرفه تاريخ أمتنا عبر مسيرته الطويلة.. ثم تسعى لتحليل هذه المعطيات الموثقة تحليلاً علمياً يبحث في الأسباب والارتباطات والنتائج.. فإنه يتوجب على الأدب أن يمارس مهمته التوثيقية إزاء التاريخ هو الآخر.. ولكن بلغته الخاصة.. لغته التي تسعى إلى ما يشبه الاستعادة أو الإحياء، من أجل عرض التجربة التاريخية كما لو كانت تحدث الآن، أمام أعيننا، وتتخلق، وتكون..

إن المؤرخ ينظر من الخارج لكي يلم شتات الأحداث بعد أن وقعت واكتسبت ملامحها النهائية.. ولكن الفنان يتمعن من الداخل، ويمد رؤيته إلى

الأعماق.. إلى الوقائع والشخوص والأحداث وهي تتخلق، وتتفاعل وتلتقي وتفترق وتشابك لكي تتشكل بهذه الصيغة أو تلك.. إن المؤرخ يدرس الواقعة، ولكن الفنان يعيشها.. من ثم هو أقدر على حمل الطابع التأثيري لهذه التجربة، ونقله للأجيال.. قديراً على أن يحركهم بها.. أن يكويهم بجمرها.. أن يدفعهم عبر الطريق إلى أهدافهم بشحناتها وكهربائها..

إن استمداد القيم التأثيرية من حقول التجارب التاريخية الخصبة، الواعدة بالعطاء.. هو صيغة من العمل الأدبي، مارسها الكثير من الأدباء.. وما أخرى الأدباء الإسلاميين أن يمارسوها، ولا سيما أن تاريخهم يعد أكثر من تاريخ أية أمة في الأرض، بالدفع والعطاء، ولا سيما وأن الأمة الإسلامية المعاصرة، لها بأمس الحاجة، بما لا يقارن مع حاجات أية أمة أخرى في الأرض، إلى استلهاهم تاريخها فنياً، لمجابهة عالم يسعى لأن لا يكون لها تاريخ على الإطلاق !!

هذا يقودنا إلى ما يمكن تسميته الوظيفة (المنهجية).. وهي أن يكون الأدب الإسلامي عنصر توازن منهجي في طرح المعطيات الإسلامية على المثقف المعاصر..

إن تحقيق قدر من التوازن في الطرح بين الطرائق العلمية الأكاديمية الصرفة، وبين الأساليب والصيغ الأدبية والفنية.. بين مقولات الفكر ومطالب الوجدان.. بين الصيغ العقلية الصارمة وآفاق الإبداع الواسعة الممتدة.. هو أمر ضروري، يمنح المعطيات الإسلامية فرصاً أوسع بكثير للتعبير عن نفسها، وفرض وجودها، وملامسة أكبر قدر من اهتمامات الناس ومتابعاتهم وقضاياهم.. ويجعلها تكسب إلى صفوفها حشوداً أوسع من الجماهير..

ليس محتوماً أن يطرح الإسلام بالصيغ العلمية وحدها.. إن طرحه من خلال المنطوق العلمي أمر ضروري.. ولكنه لن يحجب أبداً وجود

الفنان.. إنهما ليسا نقيضين، بل إن أحدهما ليكمل الآخر.. وإن وظيفة كل منهما لتعد ضربة لازب في صيرورة الحركة الإسلامية، وعلاقاتها الديناميكية مع جماهير المثقفين.

قد تقرأ أنت بحثاً تاريخياً صرفاً لكي تعرف مدى تحقق الإسلام في إطار الزمان والمكان، أي في واقع الحياة.. ولكن غيرك قد يقرأ رواية تاريخية إسلامية بحثاً عن المطلوب نفسه.. وقد تلتقي أنت وهو عند قنعة واحدة.. قد تكتفي أنت بقراءة (التفسير) للطبري أو الزمخشري أو ابن كثير.. ولكن غيرك يجد في قراءة (التصوير الفني في القرآن) ما يجعله أقدر على فهم معجزة هذا الكتاب العظيم..

إن مهمة الأدب المنهجية هي في توسيع نطاق العرض، وفتح آفاق جديدة لتحقيق التواصل بين العقيدة والإنسان.. وإنها (لحكمة) يتوجب على كل مؤمن أن يلتقطها.. لأنها (الضالة) التي تعينه على أداء دوره في العالم..

إن انفتاح المسلم على التعبير الأدبي، يمنحه ولاريب أسلوباً أكثر حيوية وتأثيراً في طرح قضاياها، ويمكنه في الوقت نفسه من أن يعيش العصر بصيغة أكثر كثافة - إذا صح التعبير - لأن آداب هذا العصر وفنونه لتمثل بحق واجهته الثقافية التي يتوجب أن نخبرها جيداً إذا أردنا أن نفهم عناصر التخریب التي تهدد وجودنا الحضاري.

وثمة - أخيراً - الوظيفة التربوية، الأخلاقية بدءاً من تحقيق أكبر قدر من الانضباط الخلقي، وانتهاء بتنمية الحس الجمالي للإنسان المسلم.. وقد سبق وأن تكلمت عن هذه الوظيفة في بحث بعنوان «نحو آفاق تربوية في عرض التاريخ الإسلامي على الشاشة الصغيرة»<sup>(١)</sup>. ولا بأس إن اقتبس هنا بعض فقرات المقال المذكور من أجل استكمال الموضوع. إن سلم القيم التربوية التي ينشدها العمل الفني الهادف سلم واسع المدى كثير الدرجات،

(١) صدر في كتاب "مع القرآن في عالمه الرحيب".

يمنح الأديب والفنان مقداراً واسعاً من الحرية والعفوية في الاختيار والتركيز دونما أي قدر من التوتر والمباشرة.. إن بمقدوره أن يتحرك عبر هذا المدى الواسع، لكي يقف عند هذه القيمة التربوية أو تلك، حيثما وجد في وقفته تساوقاً عفويّاً منغمّاً مع هيكل عمله الفني ومعطياته وجزئياته، وحيثما رأى تناسباً وانسجاماً في اللون والإيقاع والتكوين بين ما يسعى إلى تحقيقه وتعميقه وبين طبيعة نسيج إبداعه الفني : لحمته وسداه.

ونستطيع بقراءة ذكية لكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وبتتبع عميق لحركة الجماعات الإسلامية عبر تاريخها الطويل، أن ننبين العديد من هذه القيم التي تصلح دونما تعسف لأن تكون محاور لأعمال فنية مبدعة، تعتمد وقائع وأحداث تاريخنا المزدحم الكثيف.

هنالك السعي من أجل تحقيق النقاء الروحي، وتأكيد التوازن الفعال بين العقل والروح والجسد، بين العلم والإيمان.. وهنالك العمل من أجل تنمية قيم البطولة، وتعميق مواقف الرفض والثورة، يقابلها العمل من أجل التحقق بالصفاء والانسجام والإحساس الغامر بالتعاون مع سنن الكون والعالم ونواميسهما وموجوداتهما.. وغير هذا وذاك الكثير من القيم التي يتوجب غرسها وتنميتها في كيان الفرد المسلم والجماعة المسلمة، من أجل تعزيز شخصيتها، وتأكيد ذاتها الحضارية، وتمكينها من الوقوف على قدميها لمجابهة صراع العقائد والأفكار والدول والحضارات في عالم يضع فيه ويفنى من لا يملك شخصية ولا ذاتاً.

هنالك - على سبيل المثال لا الحصر - ضرورات الالتزام الخلقي بمفهومه الواسع.. الاستعلاء على الدنس والمغريات.. تكوين النظرة الشمولية التي ترفض التجزئة والتقطيع.. التوحد بين المعتقد والممارسة، أو النظرية والسلوك.. تنمية الحس الجمالي الخالي من الشوائب.. تغطية الفراغ الواسع الذي تمنحه الحضارة المعاصرة بترفيه منضبط.. تجاوز

الرومانسية المريضة والذاتية المنغلقة، من جهة، ورفض القطيعة البكماء والجماعية الصماء من جهة أخرى.. إدانة الهروب والانزواء أو الذوبان والاندماج.. هناك التنمية العاطفية والوجدانية وفق طرائق سليمة.. امتصاص وتصعيد الطاقة الجنسية المكبوتة.. حل وتفكيك الخوف والإحساس بالنقص وفقدان الثقة.. وسائر العقد والأزمات النفسية التي تجنب بالشخصية عن الحد الأدنى من السوية المطلوبة.. مجابهة القلق البشري المدمر ومنح اليقين.. ومجابهة الإحساس العبي الغاشم وطرح البديل الإيماني في الغائبة والجدوى.. وهناك - فوق هذا وذاك - تحقيق الاقتران الشرطي السليم بين الفن والقيم، وطرح بدائل إسلامية مقنعة لمعطيات الفنون الوضعية في ميدان القيم التربوية : البراغمية، الوجودية، المثالية، المادية... ولن ننسى - بطبيعة الحال - ضرورات المجابهة الإبداعية لعمليات الهدم والتشويه والتدمير الصهيونية التي نستطيع أن نتلمس أبعادها في معطياتهم النظرية والتطبيقية على السواء.

إنه سلم قيمى واسع الامتداد، كثير الدرجات، ما دام أن الإسلام جاء لكي يغطي تجربة الحياة البشرية بأسرها في امتدادها الأفقي والعمقي على السواء، وما دام أنه - أي الإسلام - كان، وسيظل، بمثابة موقف متكامل، ورؤية شاملة لدور الإنسان في العالم، بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معنى.

ومن ثم فإن لنا أن نتصور المدى الواسع الذي يمكن أن يتحرك فيه الأديب المسلم، وهو يعتمد في مقابل هذا وقائع وأحداثاً وخبرات هي بمثابة عينات مكثفة لهذه التجربة البشرية أو تلك، ولهذا الموقف أو ذاك، وصولاً إلى دلالاته التربوية الهادفة.





## الفصل الرابع

### المنظور النقدي

## ١

أشرنا في فصل سابق إلى ضرورة أن تكون هناك (حركة نقدية) في ساحة الأدب الإسلامي... ولكن ماهو (النقد)؟

إنه، بإيجاز شديد «محاولة لتحديد الأهداف التي يرمي إليها، والطرق والأساليب التي يستخدمها، وهو يقوم على دراسة الأدباء القدامى والمعاصرين وتفحص مؤلفاتهم بغية توضيحها وشرحها وتقديرها حق قدرها»<sup>(١)</sup>.

والنقد الأدبي الحديث على وجه الخصوص يطرح عدداً من الأسئلة، لم تكن في معظم الأحوال تسأل في الأدب من قبل، في محاولة للإجابة عليها، من ذلك : ما أهمية العمل الفني من حيث علاقته بحياة الفنان، بطفولته، بعائلته، بحاجاته العميقة ورغباته، وما علاقته بالجماعة، بحياته الاقتصادية، بمجتمعه الكبير؟ ماذا يؤدي هذا العمل لصاحبه، وكيف؟ ماذا يؤدي للقارئ، وكيف؟ وما العلاقة بين هاتين الوظيفتين؟.. ما الصلة بين العمل الفني وبين المادة الأدبية الموروثة، بينه وبين الأفكار الفلسفية المعاصرة له وغير المعاصرة؟ ما الترتيب الذي اتبع في صوره وعباراته وشكله العام؟ ما الممكنات المحتجبة في أبرز كلماته؟ وإلى أي مدى يضطلع محتواه بما هو برهاني ذو معنى، وأخيراً يبلغ النقد الحديث عتبات الأسئلة القديمة مثل: ما غايات هذا العمل؟ وإلى أي درجة هي سليمة؟ وما مدى تحققها؟ وما معانيه؟ وهل هو عمل جيد أو رديء، ولماذا؟<sup>(٢)</sup>.

ولا بد للناقد من (أعمال) يتخذ منها مادته وموضوعه، ويقدم بديلاً عنها خدمات ثانوية بالغة القيمة، كأن يساعد القارئ على فهم العمل الفني،

(١) كارلوني وفيللو «تطور النقد الأدبي» ص ٥.

(٢) ستانلي هايمن : «النقد الأدبي ومدارسه الحديثة» جزء ١ ص ١٦.



وتذوقه، ويساعد الفنان على أن يفهم فنه ويقومه، ويعين على تقدم الفن وتطوره بتعميم المعايير المطلوبة، أو بتحديددها وتجهيزها، وهو في حالات خاصة يوقظ جيلاً من الشعراء كما فعل (أمرسون) أو (فان ويك بروكس) في أول عهده، وهو قد يعين موضوعات للأدباء يكتبونها مثلما يفعل (غوركي) و(برنارد دي فوتو)، وقد يغير اتجاه الفن أو يحاول ذلك مترسماً خطى (تولستوي) والأخلاقيين في محاولة التغيير، وخطى (بوالو) والنقاد الرومانتيكيين الإنجاز في تحقيق التغيير نفسه، أو قد يمدّ الفنان (وأحياناً نفسه) بموضوعات محددة وتقنيات وقواعد عملية مثلما يفعل عدد من نقاد الشعر المعاصرين<sup>(١)</sup>.

وما دمنّا بصدد تعريف النقد فلا بدّ من اقتباس العبارات الدقيقة (لستانلي هايمن)، والتي يفرق فيها بين الناقد وعالم وفيلسوف الجمال والقارئ العادي، فعلى «حد النقد الأدبي من إحدى ناحيتيه تقع المراجعات (أي مجرد القراءة الأدبية) وعلى الناحية الأخرى منه يقع علم الجمال. أما المراجع فإنه يرى في الكتب متاعاً، وأما الناقد فيرى فيها أدباً، أو كما يقال في الاصطلاح الحديث، يرى عملاً أو سلوكاً أدبياً، وأما الجماليّ فيهمه من الأدب التجريد، وليست له رغبة في كتب معينة، ومثل هذا التمييز بين هؤلاء الثلاثة إنما هو تفرقة في الدور الوظيفي الذي يؤديه كل منهم، وليس تفرقة صارمة الحدود، فقد يتجاوز كل واحد منهم مجاله إلى غيره، فإذا غفل المراجع عن خصائص المتاع، وهو يتحدث عن كتاب، وأخذ في الحديث عما في الكتاب من مميزات من حيث هو إنتاج أدبي، أصبح لهذه المراجعة على الأقل يعد في صف النقد، والناقد الذي يرسل التعميمات عن الطبيعة المجردة للفن والجميل يصبح مؤقتاً في عداد الجماليين،

والجمالي الذي ينقد أعمالاً أدبية محددة، مستعملًا المصطلح الذي يكشف عن خصائصها الفذة إنما هو ناقد في تلك الحال»<sup>(١)</sup>.

## ٢

النقد الإسلامي نقد (معياري)، ولكنه يعطي مساحة (للذات). . فهو إذاً نقد شمولي، متوازن، شأنه في ذلك شأن سائر الفعاليات التي تتحرك في إطار الإسلام، لأنها تستمد من رؤيته الشاملة المتوازنة، مقوماتها وملامحها. . إن هذه الرؤية ترفض أشد الرفض تلك الخطيئة المنهجية التي مارسها الغربيون كثيراً واستمرؤوها طويلاً: النظرة أحادية الجانب. . التشبث بوجهة النظر المحدودة رغم أنها تصدر عن زاوية ضيقة، بينما هنالك، إذا أردنا الاقتراب من الحقيقة عشرات الزوايا الأخرى لالتقاط صورة أقرب إلى الواقع.

ها هم الغربيون وتلامذتهم هنا وهناك يتأرجحون في موقفهم النقدي بين النقيضين فهم حيناً يدعون إلى نقد (تأثيري) يعطي للذات الحق المطلق في الحكم على الموضوع الفني أو الأدبي. . وهم حيناً آخر يدعون إلى نقد معياري صرف تكون فيه البيئة والمؤثرات المحيطة هي الحكم الفصل، حيناً، وتنسحب من مختبره العلمي الصارم - حيناً آخر - ليس ذوات النقاد فحسب، بل ذوات الأدباء الفنانين أنفسهم لكي لا يتبقى هنالك سوى العمل الأدبي وحده، منتزعاً من بيئته، بعيداً عن عناصر ارتباطاته بالزمن والمكان والشخصية، و(بالخلفيات) الخاصة التي لعبت دورها في تكوينه وتلويحه.

إنه كردّ فعل للاتجاهات النقدية (الذاتية) السابقة، دعا مجموعة من النقاد الغربيين، مثل فيلمان وتين وهينكين وبورجيه، إلى موقف (موضوعي)

(١) نفسه ص ١٨.

يستبعد (الذات)، ويسعى إلى اكتشاف العلاقة التي تربط كتاباً ما بظروفه، وتعطيه نسبيته الأساسية، اكتشافاً تحليلياً.

ويحلل (كارلوني) و (فيللو) هذا التوجه النقدي الجديد بعد عرض طريف للأرضية التاريخية التي تحرك عليها «نحن في الواقع - يقول المؤلفان - في منتصف القرن التاسع عشر، والتطور الهائل الذي طرأ على العلوم الفيزيائية والكيميائية والناجم عن الاستخدام الجديد لطريقة تفسير تنطلق من الوقائع إلى قوانينها، وتنبه إلى حتمية تحكم العالم.. وهكذا سيطبقون إذاً، ولكن بإقدام وحتى بتهور، طريقة توضيح علمي على المؤلفات الأدبية، وهذا يعني أن المؤلف واقع غير لازم الوجود وإنه نتاج الإنسان التاريخي والسايكولوجي والاجتماعي، وهذا يعني ثانياً أن على هذا الواقع أن يتقبل، من النقد، شرحاً، وهذا يعني، ثالثاً وأخيراً، إن حكم النقد لا يمكن أن يكون إلا حكماً موضوعياً، تنحدر مبادئه من الشرح نفسه، إن هذا الموقف يرجع بلا شك، إلى مدام دي ستال وبارانت، ولكنه لم يصبح منظماً إلا مع فيلمان السلف المباشر لتين وبورجيه، وهكذا يبدو أن الطريق مفتوح أمام تجديد ضخم في النقد.

«ولكن لنكن حذرين، فكلمة علم يمكن أن تخفي في طياتها كثيراً من المذاهب الاعتقادية، وكثيراً من الأخطاء. وبسبب عدم وجود (مطلق) مقرر سلفاً فإن باستطاعة العلم أن يقدم لمن يحسن استخدامه (اعتقاداً) لا يمكن مسّه، ويخجل العامة في وضعه موضع الريبة، وكم هو مخيب للأمال أن نضطر إلى إضافة برونثير إلى لائحة (النقدة العلميين) وهو الذي ليست ادعاءاته النسبية سوى تغطية بارعة لاعتقادية ذات طابع هجومي، كما أنه ليس من الممكن، من جهة أخرى، جعل النقد علماً، إلا إذا تخطينا المخطط الأدبي : فليس هناك من تفسير دون شرح، وليس هناك من شرح دون تغيير السجل ودون الانتقال من المسبب إلى السبب، هذا الانتقال

الذي هو خارج حتماً عن نطاق الأدب، ولكن تخطياً كهذا يتطلب استخدام معارف تاريخية وسايكولوجية اجتماعية ترتبط بصحتها مباشرة صحة النقد الجديد، وفي عهد المذهب العلمي لم تكن علوم الإنسان قد تخطت بعد مرحلة الطفولة، وكانت تصوراتها الأساسية ثمرة تأملات مثالية أكثر منها ثمرة ملاحظات خاضعة للمراقبة. . ولا عجب إذا لاحظنا، منذ الآن، أن الشروح المستندة على تصورات كهذه قد أخذت عنها عطياً وراثياً<sup>(١)</sup>.

ويعرض كارلوني وفيللو لاتجاهات عدد من أقطاب هذه (الموجة) النقدية : فيلمان . . تين . . برونثير . . هانيكان . . وبورجيه . . إلى آخره.

كان فيلمان ينادي (بالموضوعية). . على الناقد أن يحكم (بتجرد) تام . . عليه أن يكون «التاريخ، بعيداً عن كل هوى وكل نفع وكل حزب، عليه أن يحكم على المقدرة أكثر مما يحكم على الآراء. النقد المتجرد يسبق الرأي». والكتاب مسألة لا يظهر حلها إلا عند تحليل البيئة والبلاد والثقافة التي ظهر فيها . . ولكن إذا كانت تصورات فيلمان جديرة بالاهتمام فإن التطبيق مخيب للآمال . . فهو لا يشدد بما فيه الكفاية على سيرة الكتاب وعلى دراستهم السايكولوجية، كما كان يفعل سانت بوف، ولا على تحليل البيئة الاجتماعية الحقيقية.

والنقد لدى تين «يقتدي بعلم النبات الذي يدرس، بنفس الاهتمام، تارة شجرة البرتقال، وطوراً شجرة الصنوبر، تارة شجرة الصفصاف، وطوراً شجرة القضبان، وما النقد نفسه سوى نوع من علم النبات المطبق، ليس على النباتات، بل على المؤلفات الإنسانية». . إن علينا ألا نحكم إلا باسم المبادئ الموضوعية، وأن نفتش، دون كلل، عن تحديدات وأسباب، ومع ذلك فلم يكن تين سوى مثالي مولع بالتجريد، وفكر نظري ومذهبي غير قادر

(١) «نظور النقد الأدبي» ص ٤١-٤٣.

كثيراً على الملاحظة الصبورة والدقيقة، ولانجد في نقده، أي مفهوم قيم عن السببية الاجتماعية، وأي تصور جدي للسببية السايكولوجية، إذ أن كل شيء يؤول في النهاية إلى روحانية آلية مرتبطة، فضلاً عن ذلك، ارتباطاً وثيقاً بشمار مخيلته للفلسفة المراهقة.. لقد أراد تين أن يضع أسس نقد يعبر جذور المؤلف الأدبي السايكولوجي اهتماماً كافياً.. ولكن هذه الطريقة الفلسفية البحتة في فهم العلاقات المعقدة على كل وجه، والموجودة بين النفسانية والتعبير الأدبي، قادته لسوء الحظ، إلى صيغ ذات بساطة مفرطة، ولم تعد الطريقة التي يستخدمها في الواقع طريقة عالم نفساني حريص على الحقيقة العلمية.. بل إنه حكم أكثر ما يكون إلى افتراضات جمالية وأخلاقية سابقة، كما وأن طريقته في التفسير تتحول إلى تأثرية مجردة من أية قيمة موضوعية..

أما برونيتير فإنه يعتبر النقد، قبل كل شيء، هو الحكم على المؤلف، والحكم عليه بقدر ما يعبر عن جوهر هو الجوهر «الأدبي»، ولكن لا ينتج عن هذا أن النقد لا يمكن أن يكون «موضوعياً»، فالعكس تماماً هو الصحيح، وهدف برونيتير هو، بالتحديد، الوقوف في وجه مقاصد النقد التأثري «الذوق الشخصي» وذلك بإقامة «علم نقد» مرتكز على أسس موضوعية، ومع ذلك فلا يشترط أن يكون أحدنا عالماً كبيراً كي يدرك أن برونيتير يلعب على معنى كلمة (موضوعي) الملتبس، وأن نقده الذي حاول أن لا يكون (ذاتياً) قد فشل أيضاً في أن يكون (علمياً) وأنه يخفي، تحت ستار أبهة إيجابية، أكثر المذاهب الاعتقادية تقليدية.

أكثر من هذا، أن برونيتير يرى أن المعطيات الأدبية تتطور وفق قوانين كتلك التي تحكم الأجناس في نظرية دارون، حيث نجد أن هناك تنابحاً في تاريخ (الألوان) الأدبية، وليس تبديلاً فقط، فهي تولد وتتركز وتتحول، وتقوم بين مصنفات اللون الواحد، روابط نسبية على (الطريقة التطورية) أن

تكتشفها . فتفسير مصنف ما معناه إذاً تحديد موقعه كلون في التطور الأدبي . أما دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية فثانوية ، لأن الأساس هو تحديد موقع المصنف في الزمان الأدبي .

أخيراً - يقول كارلوني وفيللو - كم هي النقائص عند هذا الرجل المدعي كثيراً ! وكم هي اعتبارية هذه النظرية عن تطور الألوان المنقولة ، دون أن ندري لأي سبب ، عن مذهب دارون الافتراضي ! ونددهش أيضاً لأنه لم يدرك أن موضوع النقد ربما هو معرفة ما إذا كان هناك أم لا حقائق فن مطلقة بدلاً من أن يقبل بهذا الأمر دون براهين<sup>(١)</sup> .

وكان لابد من ردود الفعل كرة أخرى !! فبينما كان (العلميون) يريدون معرفة ، أو حكماً موضوعيين ، أي مستقلين عن نظرة النقد الخاصة ، أراد (التأثريون) بالعكس أن يكتفوا بتجديد لقاء المصنف بذاتيهم «أن كلمة (تأثير) تعني ، بالتدقيق ، هذا اللقاء المباشر والسادج بين النص والقارئ والتغيير الذي ينتج عنه في ذهن هذا الأخير ، كما وأن النقد التأثري يرجع نظرياً إلى تدوين ردود فعل الناقد الذاتية أمام مصنف أدبي تدويناً بحثاً وسيطاً . لماذا هذا الموقف . لقد رأينا كيف أن الموضوعية العلمية لم تتوان ، وهي تستخدم أدوات تفسيرية ضخمة أكثر الأحيان ، عن الدخول في مواقف اعتقادية مكرسة ، والتأثريون يكرهون قبل كل شيء الادعاء ، ولن تكون موادهم بطاقات مكدسة بصبر ، ولكن ذكريات قراءات يحتفظ بها ، بحب ، رجل مثقف صاحب عشرة صالحة وطريقتهم هي أن لا يكون عندهم أية بطاقة ، لأن كل مذهب يبدو لهم مشبوهاً سلفاً ، والتأثريون يكرهون أيضاً الخبث ، فهم يقولون : لنكن صريحين ، أو ليس كل نقد في الواقع ، وفي النتيجة ، انعكاس المصنف من خلال الناقد؟ ولماذا إذاً لا نقبل عن قصد

(١) المرجع السابق ص ٤٣-٥٣ (مقتطفات) .

هذا الشرط؟ و (لوميتر) يعبر بوضوح عن وجهة النظر هذه : «سواء أكان النقد نقداً اعتقادياً أم لا، وأياً كانت ادعاءاته، لا يهدف إطلاقاً إلا إلى تحديد التأثير الذي يتركه فينا في وقت معين، هذا المصنف الأدبي الذي دون فيه المؤلف نفسه الانطباع الذي تلقاه من العالم في ساعة معينة. وإذا كان الأمر على هذا الأساس لنحب الكتب التي تعجبنا.. والسبب الثالث هو أن التأثيرين لا يريدون أن يحرموا أنفسهم من لذة القراءة، فالناقد الذي يريد أن يفسر ويحكم يعرض نفسه لخطر فقدان الشعور بالسعادة الجمالية التي هي - بنظرهم - أساسية».

ولكن «هل من الممكن حقيقة قيام موقف تأثري متماسك؟ باستطاعتنا أن لا نقبل تبرير لوميتر السوفسطائي أكثر من اللازم، كما باستطاعتنا حتى أن نرد عليه بأن التأثيرية، التي هي أبعد من أن تكون هوى ساذجاً، تستخدم دائماً مقاييس وعقائد أو قواعد مقبولة في الوسط الأدبي أو الاجتماعي، وهذه خطيئة خطيرة.. ونظراً لأن التأثيرية تريد أساساً أن تكون ذاتية، فإنها تتخذ أشكالاً كثيرة بقدر ما هنالك من أشخاص يطبقونها»<sup>(١)</sup>.

عند لوميتر وأناطول فرانس تستجيب التأثيرية للاعتقاد الراسخ القائل بأننا لا نستطيع أن نخرج من ذواتنا عندما نتكلم عن كتب الآخرين، وأنه - نظراً لأن ما من يقين ممكن - لا نستطيع أن نقيم بشكل موضوعي حكماً نقدياً، ومن هنا كرههما لبرونتيير الذي يصفه لوميتر بأنه (شرس جداً)!! فالنقد بنظرهما إذاً محادثة شيقة بين أناس مثقفين، فهو يبتعد عن كل ادعاء، وعن كل بناء اعتباطي : (اللذة التي يقدمها مصنف ما هي القياس الوحيد لجدارته) يقول أناطول فرانس: وعند ريمي دي غورمون يقوم النقد على قدر كبير من الارتياحية والنسبية، وهو يعتقد أن ما من يقين ممكن. وهو يشك

في كل إيمان، كما يشك في كل ادعاء بمعرفة شيء ما فهو يقبل كل الأفكار إذاً وقتياً حتى يأتي واقع جديد ويحمله على مناقضة نفسه. وهو يريد أن يتمكن من تذوق كل الأفكار الواحدة تلو الأخرى. دون أن يقف عند إحداها، وهذا يعني الوصول بفلسفة تأثرية إلى أبعد حدودها.

«أما أندريه جيد فقد كان رسول عبادة الأنا، وخصم نزعة التمثيل، والمتنقل باستمرار من موقف إلى آخر، مدفوعاً بطبيعته إلى أن يطبق، بدوره، نقداً تأثرياً.. والواقع أنه يؤكد هو نفسه، في كتابه عن دوستوفسكي، أن هذا الكتاب ليس (سوى حجة للتعبير عن أفكاره الخاصة) ويعلن أنه (بقدر ما يضع كتاباً في النقد يضع كتاب اعترافات).. لقد أطلق عدداً كبيراً من الأحكام التي كثيراً ما يعيد النظر فيها وينقحها، لدرجة أنه يتعرض لخطر مناقضة نفسه»<sup>(١)</sup>.

ويقف رينيه ويليك، هو الآخر، عند معضلة تارجح الموقف النقدي في مدخل الجزء الرابع من «نظرية الأدب» فيقول: «المنطلق الطبيعي والمعقول في البحث الأدبي هو تفسير الأعمال الأدبية ذاتها وتحليلها، فبعد كل شيء، نجد أن الأعمال الأدبية ذاتها هي التي تسوغ كل اهتمام بنديه بحياة الأديب، وبمحيطه الاجتماعي، وبعملية التأليف الأدبي كلها، لكن من الغرابة بمكان أن تاريخ الأدب كان شديد الانهماك بإطار العمل الأدبي، بحيث كانت محاولات تحليل الأعمال ذاتها ضئيلة إذا ما قورنت بالمجهودات الهائلة التي بذلت لدراسة المحيط الاجتماعي، وليس من الصعب العثور على بعض أسباب هذا الإلحاح المبالغ فيه على الظروف المكيفة بدلاً من الإلحاح على الأعمال ذاتها، فقد بزغ تاريخ الأدب الحديث وهو على صلة وثيقة بالحركة الرومانسية، التي لم تستطع أن تهدم

(١) المرجع السابق ص ٦٣-٧٠ (مقتطفات).



النظام النقدي للكلاسيكية الجديدة إلا بالحجة النسبية التي تقول إن الأزمنة المختلفة تتطلب مقاييس مختلفة، وبذلك انزاح الإلحاح من الأدب إلى خلفيته التاريخية التي كانت تستعمل لتبرير القيم الجديدة المنسوبة إلى الأدب القديم. في القرن التاسع عشر غدا الشرح عن طريق عرض الأسباب كلمة السر السحرية، وخاصة في السعي لمضاهاة مناهج العلوم الطبيعية. أضف إلى ذلك أن انهيار النظرات الشعرية القديمة، وما رافقه من انزلاق الاهتمام إلى الذوق الفردي للقارئ، متن الاقتناع بأن الفن لكونه من حيث الأساس غير عقلاني، يجب أن يترك (للتذوق) وقد لخص السير سدني لي في محاضراته الافتتاحية نظرية البحث الأدبي الأكاديمية بقوله: (نحن نبحث في تاريخ الأدب عن الظروف الخارجية - السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، التي أنتج فيها الأدب) وأدى نقص الوضوح في مسائل النظرية الشعرية إلى عجز مدّش لدى معظم الباحثين، حين تواجههم مهمة التحليل الفعلي للعمل الفني وتقييمه».

«وقد حدثت في السنوات الأخيرة ردة سليمة، تُقرُّ بأن دراسة الأدب يجب أن تركز أولاً وقبل كل شيء على الأعمال الفنية الفعلية ذاتها. إن المناهج القديمة في علم البلاغة، أو النظرية الشعرية، أو العروض يجب أن تراجع ويعاد تقريرها في مصطلحات حديثة، إن منهج شرح النصوص في فرنسا والتحليل الشكلي الذي يقوم على التوازي مع تاريخ الفنون الجميلة في ألمانيا، ثم الحركة الألمعية للشكليين الروس، وأتباعهم التشيك والبولنديين. إن كل ذلك أوجد حوافز جديدة لدراسة العمل الأدبي الذي بدأنا نراه الآن فقط بشكل مناسب، ونحلله بصورة دقيقة. وفي إنكلترا قام أتباع آي. أ. ريتشاردز بتركيز انتباههم على نص من الشعر، وكذلك جعل فريق من النقاد في الولايات المتحدة دراسة العمل الفني مركز اهتمامهم، كذلك فإن دراسات عديدة عن المسرح تشدد على الفرق بينه وبين الحياة،

وتكافح البلبلة بين الحقيقة المسرحية والحقيقة الواقعية تنحو النحو ذاته، وبالمثل فإن هناك دراسات متعددة في الرواية لم تعد تقنع بالنظر إليها في حدود صلاتها بالبنية الاجتماعية، بل تحاول أن تحلل مناهجها الفنية، وجهات نظرها، تقنياتها القصصية<sup>(١)</sup>.

حتى إذا بلغنا (النقد الحديث)، الذي يسمى أحياناً بالنقد الجديد، وأحياناً بالنقد العلمي، والذي يعرف بأنه «استعمال منظم للتقنيات غير الأدبية، ولضروب المعرفة» غير الأدبية أيضاً، في سبيل الحصول على بصيرة نافذة في الأدب<sup>(٢)</sup>. وجدناه لا يقوم - هو الآخر - على معيار واحد ثابت وشمولي.. وإنما تقاسمته الاتجاهات، فكان بعض النقاد يعتمد على صنوف من المعرفة، غير تلك التي يعتمد عليها نقاد آخرون.. وفي كل الأحوال فإن الناقد يجد نفسه مسوقاً بإغراء الصنف المعرفي لاعتباره الضوء الكشاف الوحيد للعمل الأدبي، متجاوزاً إلى حد كبير ما يمكن أن تقدمه الأصناف الأخرى من إضاءات.. إننا هنا إزاء النظرة أحادية الجانب مرة أخرى.

إن (جو كرو رانسوم) - الذي له أثر كبير في ترويج اصطلاح (النقد الجديد) لكتاب ألفه بهذا الاسم، مؤكداً الفرق في النوع بينه وبين النقد القديم - يذهب إلى أن عصرنا هذا يتميز تمييزاً غير عادي في النقد، وإن الكتابات النقدية المعاصرة، من حيث عمقها ودقتها، قد فاقت جميع النقد القديم المكتوب باللغة الإنجليزية، ويعلق (ستانلي هايمن) على ذلك بقوله: إن هذا الكلام لا يعتوره الشك، ولكننا لا نستطيع أن نتملق أنفسنا فندعي أن تفوقنا إنما سعة باع نقادنا إذا قايسناهم بأسلافهم، كلا، بل من الواضح أن هذا التفوق إنما يكمن في الأساليب والمناهج، ففي متناول النقد

(١) «نظرية الأدب» ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) ستانلي هايمن «النقد الأدبي ومدارسه الحديثة» جزء ١ ص ٩.

الحديث ضروب من المعرفة عن السلوك الإنساني، وفي جعبته تقنيات جديدة مثمرة، فإذا أمكن تركيز بعض هذا كله، وأمكن توحيد أعمال عدد من النقاد، كل يعمل على شاكلته، وبُعث الانسجام فيما هو لاعم مبدع منها، لأنها تحيي أحياناً متأرجحة أو ناقصة، إذا أمكن ذلك كله، اتسعت في مستقبل النقد دروبه ومناظره<sup>(١)</sup>.

ولكن.. حتى ذلك الحين الذي قد لا يكون قريباً.. فإن النظرة أحادية الجانب، واعتماد هذا الجزء أو ذاك من المعرفة، يجعل العمل النقدي نشاطاً نسبياً ذا نتائج سلبية، لا يمكن بحال اعتبارها من المطلقات.

إن هذا الوضع الذي يأخذ برقاب النقد يدفع (ستانلي هايمن) إلى طرح الافتراض التالي : «لو كان في مقدورنا، وهذا مجرد افتراض، أن نصنع ناقداً حديثاً مثالياً لما كانت طريقته إلا تركيباً لكل الطرق والأساليب العملية التي استغلها رفاقه الأحياء، وإذا لاستعار من جميع تلك الوسائل المتضاربة المتنافسة، وركب منها خلقاً سوياً لا تشويه فيه. فوازن التقصير في جانب بالمغالة في آخر، وحد من الإغراق بمثله حتى يتم له التعادل واستبقى العناصر الملائمة لتحقيق غاياته، وإذا لأخذ من آدموند ولسن مهمة التفسير أو التوضيح لمحتوى الأثر الفني، وأضاف إلى ذلك الاهتمام بالقيم الشعرية والشكلية التي قد يجدها في بعض النقد التفسيري عند عزرا بوند، واستعار من أيفور ونترز الاهتمام بالتقويم والحكم المقارن وشجاعة ونترز إزاء الآراء التقليدية في أحكامه لا تلك الأحكام نفسها، واستغل اهتمام اليوت بأن يخلق للأدب موروثاً، ونحا في طبيعة الموروث نحو بانغتون - مثلاً - وأفاد من موقف أليوت الذي يجمع بين الشعر والنقد في يده، أما من فان ويك بروكس فإن ناقدنا المثالي قد يستمد الطريقة القائمة على كتابة السيرة

(١) نفسه، جزء ١ ص ١١-١٢.

والاهتمام بالجو الثقافي العام من حول الأديب، وسيكون من نصيب كونستانس رورك أن تسهم بالنص على الفولكلور المتصل بالأثر الفني، ويتأكد أنها أن هذا النوع من الموروث متعلق بالشكل لا بالمحتوى، وأنه تجريدي لا واقعي، وسيدخل في هذا «المركب» طريقة مودبودكين في التحليل النفسي موشحة بنظريات وأساليب جشطالتية وفرويدية وغير ذلك من فروع المعرفة النفسية، وسنضاف إليها أيضاً طريقو كودول الماركسية ملطفة بآراء بليخانوف في النسبية التاريخية، وسيحشد فيه اهتمام أليك وست بالنصوص المعينة مشفوعاً بكثير من الكشوف المستمدة من سائر العلوم الاجتماعية»..

ويمضي هايمن إلى القول بأن ناقدنا المثالي إذا أخذ كل ذلك «طرح في الوقت نفسه كل تافه محدود غير ملائم من أعمال أولئك النقاد، واستصفى النواحي الموضوعية لديهم بعد أن ينزع عنها ما يحيطها من مظاهر ضعفهم ومماحكاتهم وفرديتهم، وإذاً فلا شأن له بسطحية ولسن واستغلاله لأفكار سبقه إليها غيره، وقلة صبره على الشكل الشعري، ولا حاجة به إلى خلفية ونترز المتسلطة أو تعسفه في الحكم دون علة واضحة، أو سوء طبعه أو كثرة أخطائه، وهو في غنى عما يحيط اتباعية أليوت من تحيز مذهبي وسياسي، وإذا استمد طبيعة التكامل بين النقد والشعر عند أليوت فلا ريب في أنه سيحرص على استقلال النقد، وتكامله، وسيرفض افتراضات بروكس (المسبقة)، واحتقاره للأدب الخالق، ولن يستعمل طريقته كما يستعملها صاحبها بمطها أو تقصيرها حسب مقتضى الحال، ولن يتخذ من دراسة الشخص عذراً للهرب من دراسة آثاره، أو ليجعلها ملحة شهية وحسب، فإذا انتحل طريقة الأنسة رورك تجافى عن سطحيته، وتزود بعلم أوسع من علمها، وإذا مارس طريقة الأنسة بودكين تجنب نزعتها الدينية الصوفية، واطرح ما تجنّبته هي من مذهب يونج في شؤون التميز العرقي والدموي،

كما نفى عن نفسه تحيز كودول ضد التحليل النفسي وضد الشعر نفسه، ونفى عنه التعلق بالطبقية والحتمية وإيثار التعميمات على دراسة نصوص بأعيانها، واستعمل مبادئ فرويد وماركس بحدة ومضاء لا بكلال وفتور ككلال أتباعهما وفتورهم...»<sup>(١)</sup>.

ولكن هايمن ما يلبث أن يعقب على دعوته تلك بقوله: «إن صورة ناقدنا المثالي هذه شقشقة لسانية فحسب، ولكنها شقشقة مفيدة فيها سمو المثل الأفلاطونية واستحالتها معاً، فلنحطم هذه الصورة، ولنعد إلى عالم الحقائق ومجال الإمكانيات العملية التي هي في طوق الفرد من بني الإنسان، ونحن إنما نريد طريقة متكاملة، فلنقل إن قسطاً صالحاً كبيراً من التكامل ممكن، وإنه في طوق إنسان واحد أن يستعمل عدداً من الطرق والمذاهب»<sup>(٢)</sup>.

إن رينيه ويليك يطرح في «نظرية الأدب» هذا السؤال: «كيف نعالج الفن معالجة فكرية، والفن الأدبي منه بشكل خاص؟ هل هي ممكنة؟ وكيف؟ تقول إحدى الإجابات: المعالجة ممكنة بمناهج مطورة عن العلوم الطبيعية، وهي لا تحتاج لغير التحويل إلى دراسة الأدب؟ وبالإمكان أن نميز عدة أنواع من التحويل؛ إحداها أن نحاول مجازاة المثل العلمية العامة في الموضوعية، واللاشخصانية، واليقينية، وهي محاولة تفيد على العموم في جمع وقائع محايدة. والأخرى هي السعي إلى تقليد مناهج العلوم الطبيعية من خلال دراسة الأصول والعوامل المسببة، ومن ناحية الممارسة يسوغ هذا «المنهج التكويني» تفصي أي نوع من الصلات ما دام ذلك ممكناً على صعيد التسلسل الزمني، ولدى التطبيق الصارم يمكن استخدام العلية العلمية لتفسير الظواهر الأدبية بإسناد العلل الفاصلة إلى الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

(١) المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٤٥-٢٤٨.

(٢) المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٥٤-٢٥٥.

وهنا نجد كرة أخرى إقحاماً للمناهج الكمية التي تصلح لبعض العلوم، كالإحصاء والرسم والخطوط البيانية، وأخيراً هناك محاولة استعمال المفهومات البيولوجية في تتبع نمو الأدب<sup>(١)</sup>.

وماذا كانت النتيجة؟ «اليوم - يقول ويليك - ثمة اعتراف يكاد يكون عاماً بأن هذا التحويل لم يحقق ما كان منتظراً منه في الأصل، فقد تثبت المناهج العلمية قيمتها أحياناً في مجال محدد بعينه، أو في تكنيك محدد كاستعمال الإحصاء في مناهج معينة لنقد النصوص أو لدراسة الأوزان، على أن معظم المشايخين لهذا الغزو العلمي للدراسة الأدبية إما أنهم انتهوا للاعتراف بإخفاقهم والاستسلام للتشكيك، أو لتعليل أنفسهم بالأوهام حول النجاح المقبل للمناهج العلمية. ولهذا دأب ريتشاردز على أن يشير إلى الانتصارات المقبلة لعلم الأعصاب بوصفها ضماناً لحل المعضلات الأدبية جميعها»<sup>(٢)</sup>.

ونرجع إلى هايمن ثانية، فنجدته يقول في مقدمة كتابه «النقد الأدبي ومدارسه الحديثة»: «إن من المضامين الرئيسية في النقد الحديث تطوره ليكون علماً، أما في المستقبل الذي يمكن التكهن به والحكم عليه، فالنقد لن يصبح علماً سواء أتقبلنا هذه الحقيقة مستسلمين أو شاكرين، ولكننا نتوقع منه أن يزداد تدرجاً في الاتجاه العلمي، أي نحو تكوين منهجية شكلية ونظام للمعالجة قابلين للنقل والاحتذاء موضوعياً. أما الحساسية الخاصة، فشيء يتفرد به الناقد، ويموت بموته، وأما وسائله فإن نقلها موضوعياً سيصبح أمراً ممكناً، وسيحتاج من يعيد استعمالها محتثاً - ولا بد - حساسية ومميزات أخرى تقارب ما كان لدى الناقد الأصيل، على حال لا تنطبق على العلوم الطبيعية منذ بدء الطريقة التجريبية. ففي مجال الطبيعيات يستطيع

(١) «نظرية الأدب» ص ١٢.

(٢) نفسه ص ١٥.

الأحمق والجلف إذا توفرت لديهما الكفاية الأولية أن يصلا إلى النتائج التي توصل إليها بويل إذا هما أعادا تجارب هذا العالم. ثم إن الناقد في طريقة التحليل النقدي مهما تبلغ هذه درجة التجارب الموضوعية سيظل داخلاً في المجال الذاتي المحض، ما دامت هنالك مصطلحات مثل (تقويم) و(تذوق) سيظل الأمر كذلك سواء كان النقد بناءً مؤسساً على التحليل الموضوعي الركين، يقيمه امرؤ عارف عاقل، أو كان نزوة لا محمل لها، أو هوى يصدر عن رجل أحمق<sup>(١)</sup>.

ولابد من الإشارة - أخيراً - إلى ما كتبه (أناطول فرانس) في نقد (برونتيير) في كتابه «الحياة الأدبية»، مؤكداً استحالة خضوع النقد للعلم بشكل نهائي : «إن الطريقة النقدية لا بد - نظرياً - من أن تشارك العلم بثبوته ما دامت تركز إلى العلم نفسه.. ولكن الأمور في هذا الكون متشابكة تشابكاً لا ينفصم، وحلقات السلسلة - في أي موضوع منها اختبرته - مختلطة متراكبة.. ولايستطيع أحد أن يتنبأ اليوم - مهما يقل - بحلول زمان يصبح للنقد فيه دقة العلم اليقيني، ولقد يمكن للمرء أن يعتقد - وهو محق في ذلك - بأن ذلك الزمان لن يحل أبداً.. وفي الكون أشياء قليلة تخضع خضوعاً مطلقاً للعلم، وتدعه يعيد تكوينها أو ينسج عنها، ولكنني على يقين من أن القصيدة أو الشاعر لن يكونا في نطاق تلك الأشياء..»<sup>(٢)</sup>.

٣

إن النقد الفني والأدبي - في حقيقته - فكر وعلم وذوق وإحساس ورؤية ومعرفة ومشاركة وتأمل واندماج.. وعبث أن ننفي عن النقد صفة واحدة من

(١) ص ٢٠-٢١.

(٢) نفسه ص ٣١.

صفاته هذه، أو أن نهدم لبنة من لبناته تلك.. عبث أن نتشبث في نقدنا بموضوعية ما أنزل الله بها من سلطان، إذ أن ذلك ليس بمستطاع مخلوق يمتلك ذرة من دهشة وإعجاب، وقدرة على المشاركة والاندماج.. وعبث كذلك أن نفقد مقوماتنا الذاتية ومعاييرنا المستقلة، ونذوب في العمل الذي ننقده.. نضيع في ثنياه إعجاباً وتقديراً.. النقد لا هذا ولا ذاك.. لا هو بالتجريد الرياضي الميت، ولا بالذوبان الصوفي الهيمان.. ليس النقد رقماً في معادلة رياضية، ولا ذرة من سكر يذيبها الماء الحار.. النقد هو مزيج معقد من صرامة الأرقام وهيام الروح العاشقة وتشبثها بالمحبوب.. النقد هو موازنة فذة بين الذات والموضوع.. وقوف في نقطة وسط بين الصدود جامدين ميتين إزاء ما نقرؤه أو نراه أو نسمعه من معطيات الأدب، وبين الارتواء في الأحضان بخفة مجنونة، ننسى معها كياناتنا ونضيع، ليس النقد موتاً ولا ضياعاً.. لكنه - باختصار - بعثاً وتماسكاً، ذاتاً وموضوعاً، دهشة وإمعاناً، تأملاً وإعجاباً، علماً وشعراً، تحيزاً وحياداً.. والذي يقول غير هذا يكذب على نفسه وعلى الآخرين، وحتى لو ألزم نفسه بدعوته الزائفة هذه، فكأنما اختار بنفسه أن يحكم على نفسه بالنفي من حضرة العمل الأدبي.

قد يتساءل أحدنا، إذاً ما جدوى الدعوة إلى نقد إسلامي؟ وهل ثمة فرق - أساساً - بين نقد إسلامي وغير إسلامي، إذا كان النقد يحمل في بنيته هذا التركيب المعقد، والتداخل المحتوم بين الذات والموضوع، أليس من قبيل التحمل أن نقحم على الإسلام تصوراً وعقيدة وسلوكاً، أمراً ليس بمستطاع أصحابه أن يكونوا موضوعيين وحياديين؟

وجواباً على التساؤل، نتذكر هنا حديث الرسول ﷺ: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك».. ذلك هو المفتاح الذي نفتح به الأبواب.. إبداعاً كانت أم نقداً لمعطيات الإبداع..



إن تجربة المسلم تجربة حياة واحدة غير مجزئة.. والمعطيات الأدبية هي الأخرى تجارب حياة واحدة غير مجزئة، والجسر الذي يصل بين الحياتين، أعني النقد، وجب أن يكون هو الآخر حياة واحدة غير مجزئة، ولن يكون لدى الناقد المسلم إلا ذلك.. والذي يقول للمسلم المتوفز الحساس لتكف يداك عن أن تكتب تجارب حبك ولوعتك وشوقك وخوفك وإيمانك وصراعاك وهزيمتك وانتصارك.. ولتكف عيناك عن أن تكونا ريشتين ترسمان على الصخور والحجارة صور الآفاق التي رأناها، وألوانها وتكويناتها.. هو كالذي يقول للمسلم ذاته: لا تنظر إلى معطيات (الغير) أو تقرأها، أو تنصت إليها، لئلا تضطر أن تصدر عليها حكماً قد يبعد بك عن دائرة إسلامك.. أو كالذي يقول - متسامحاً - انظر واقرأ واستمع، ولكن حذار من أن تعجب أو تندمج أو تدهش، فيجيء نقدك متحيزاً بعيداً عن المقاييس التي منحك الإسلام إياها..

إن أحكاماً جازمة كهذه مرفوضة في عالم الأدب والنقد الإسلاميين، إذ ما دام المسلم قد غدا مسلماً بحق، فلماذا لا يكون ميزاناً صادقاً في كل حال من الأحوال؟ ألم يعلمنا حديث الرسول عليه السلام هذا، سواء وقفنا بعيدين عن مواطن الجمال والجلال في معطيات الناس أم اقتربنا منها، دهشنا لها أم أعجبنا بها واندمجنا فيها.. من الذي يدعونا إلى هذا القرب والدهشة والإعجاب والاندماج غير الإسلام نفسه؟

في تاريخنا الحضاري الكثير من تجارب إسلاميين منحوا وجودهم وطاقاتهم شتى الحقول؛ من أجل أن يصوغوا مساحة الحياة التي أتيح لهم أن يتحركوا فيها صياغة إسلامية خالصة.. ولست أقصد هنا صياغة حدادين أو نجارين أو صاغة.. وإنما صياغة أناس عاشوا (إسلامهم) بعقولهم وأرواحهم وأعصابهم وأفئدتهم ووجدانهم.. فهؤلاء يمكن أن نجد لديهم الجواب.. لقد أدركوا الأمر بوضوح: لم يكن النقد لديهم فقهاً، ولم يكن

الفقه لديهم نقداً.. هؤلاء لم يكن نقادهم فقهاء، ولا فقهاؤهم نقاداً..  
 الفقهاء - وهم قادة الفكر والمنطق والتحليل العقلي والروح الرياضية بمرونتها  
 وصرامتها على السواء - سعوا إلى صياغة الحياة الإسلامية، ابتداء من  
 قضاياها الكبيرة، وانتهاء بأدق أمورها وأشد جزئياتها خفاءً وتعقيداً، وفق  
 مقاييس قانونية لا محيص لهم عن الالتزام بها وإلا ضاعوا.. وكانوا يحيلون  
 كل صغيرة وكبيرة إلى مصادرهم الأساسية من القرآن والسنة وإجماع  
 الصحابة.. ثم إذا لم يجدوا بغيتهم المباشرة هناك أعادوها إلى العقل  
 المجتهد، الذي استنار بهدي القرآن والسنة فقاسها عليهما، واستنبط حلها  
 استنباطاً.. القضية لدى الفقهاء قضية مسؤولية جماعية صارمة، والالتزام مطلق  
 تجاه طرفي الحياة الإسلامية : الله ورسوله من جهة، وجماهير المسلمين  
 والتاريخ من جهة أخرى.. لم يكن الفقه لديهم مسألة ذوق شخصي، أو  
 إعجاب ذاتي، أو اندماج وجداني في المشكلة التي كانوا يعرضون لها..  
 كان لابد لهم أن يقفوا بعيدين، يعاينون القضية من كل أطرافها، يدورون  
 حولها مراراً وتكراراً، دون أن يتيحوا لأنفسهم أن تجذبهم إليها وتذبذبهم  
 فيها.. يظلون بعيدين من أجل أن يظل منطق العقل والرياضة والقياس  
 موضوعياً بحتاً، ومن أجل أن يكونوا مستعدين في كل لحظة لعملية الإحالة  
 إلى الأصول دون أن تصدهم عن ذلك رؤية ذاتية أو شوق قريب أو انحياز  
 عاطفي.. صحيح أن معظم فقهاءنا، وأرباب تشريعنا، كانوا - في حياتهم  
 الخاصة - أدباء وفنانين، بلغوا درجات متقدمة من الذوق والإعجاب.. كان  
 (الشافعي) شاعراً حكيماً.. وكان (أبو حنيفة) من أرباب البديهة المتوقدة  
 كالنار.. وكان مالك ثائراً.. وكان (ابن حنبل) حاد الإحساس، رقيق  
 العاطفة، عميق الأشواق، وكان (ابن حزم) أديباً ذواقة، ناقداً.. وصحيح أن  
 أرواحهم - وقد وهبوا أنفسهم لله والجماهير - بلغت حدّاً عجيباً من التوفز  
 والاحتراق.. إلا أننا لم نسمع عن أحد منهم يوماً أنه أتاح لمواجيده

الشخصية أن تدخل طرفاً ثالثاً في تشريعاتهم وقوانينهم واجتهاداتهم ومعطياتهم الفقهية.. لقد ظلوا - كمسؤولين - في حدود الأصول التي أدركوا أنهم بعدم التزامهم برد قضاياهم إليها، فكأنما خرجوا عن جادة الإسلام، وأخرجوا جماهيرهم عنها، وهو مصير رهيب، تهتز له الأفئدة رعباً وهلعاً.

أما الأدباء والنقاد فلم تكن زاوية نشاطهم ورؤياهم زاوية الفقهاء والمشرعين.. هم أيضاً عادوا إلى كتاب الله.. ولكنها غير عودة الفقهاء والمشرعين.. عودة حياة لا عودة (إحالة).. أولئك عادوا ليجدوا قاعدة يقيسون عليها قضاياهم، أما هؤلاء فقد عادوا لتذبيهم الآيات حباً وشوقاً.. ليبهرهم جمال الأداء وتدهشهم موسيقاه الإلهية المعجزة، وتضحكهم وتبكيهم إيقاعات الكلمات وهي تنزل حيناً كالصواعق، وتنساب - حيناً آخر - كالجدول الرقراق في روابي الربيع.. عادوا لكي يقفوا في نقطة التوازن الحرجة - التي أشرنا إليها - بين العقل والفؤاد، والبعد والقرب، والرؤية الخارجية والاندماج الباطني، والتماسك والذوبان، والموضوعية والذاتية.. إن القرآن الكريم ما علمهم يوماً - وهم يقرؤون آياته - أن يظلموا بعيدين، صارمين كالأرقام.. وما علمهم - كذلك - أن يتهافتوا كالدرأيش على مواطن الجمال الإلهي ويضيعوا هناك.. ولكنه علمهم أن يكونوا نقاداً أدركوا أبعاد هذه الفعالية ومتطلباتها وشروطها وتوازنها الفذ بين الذات والموضوع.. لقد هزتهم كلمات الله وآياته وسوره حتى الأعماق، ولكنها - في الوقت - أعطتهم الكثير من التعاليم.. حركت أفئدتهم، أزالَت رين قلوبهم، أذابت صداً أرواحهم، مزقت غشاوة أبصارهم، أَلقت شعلة المعرفة في عقولهم، أعطتهم القيم والمقاييس في عالم جديد يضيع من لا يستهدي في خضمه بالقيم والمقاييس.

إن القرآن جاء لكي يخاطب كينونة الإنسان.. عقله وحسه وروحه وأعصابه ووجدانه وجسده وأحلامه ورؤاه.. ومن هنا انبعث من بين دفتيه

آلاف الخريجين على مرّ العصور، كلهم كانوا ذواقين وكلهم كانوا نقاداً.. لأن مخاطبة كينونة الإنسان - هكذا علمنا الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء - لن تؤتي ثمارها إلا بأن تصاغ النداءات وفق أكثر الأساليب روعةً وجمالاً، وأشدّها استثارة لطاقات الإنسان ومكوناته جميعاً.. فكراً وقلباً وعقلاً وضميراً وفؤاداً وعاطفةً وروحاً وأحلاماً ووجداناً..

والحق أن ما يفرق (الأسلوب الديني) بمفهومه الواسع عن (الأسلوب الوضعي العلماني) هو هذا، الوضعيون قدموا معطياتهم وتعاليمهم وفق إحدى صيغتين لا لقاء بينهما: إما أرقاماً صارمة، ومسلمات عقلية جافة، وجدلاً كلامياً ميتاً لا روح فيه.. أو أحلاماً ذاتية ورؤى وخواطر، وتحليقات هائمة في الملكوت.. وأما الأديان فقد اختار الله الخلاق أسلوبها الفذ الذي يجمع بين منطق الرياضة وروح الوجدان، بين صرامة العقل وشفافية الروح.. ذلك أنه سبحانه يرى من فوق.. ويعلم أن الإنسان هو هذا وذاك، وأن النداء الذي يستفزّه ويحرك كل طاقاته لن يكون إلا ذلك الذي علمنا إياه القرآن..

لقد انطلق (الجرجاني) و (الأمدي) و (القبرواني)، ومئات غيرهم، من بين صفحات القرآن.. وراحوا - من ثم - يتجولون في معطيات الشعر والنثر والفنون، بعد أن علمهم كتاب الله الكثير من أسرار البلاغة والبيان، وطرق الأداء والتعبير، ومقاييس التذوق والنقد، وأساليب الإبداع والجمال.. ولئن كان أولئك النقاد أبناء عصرهم، وكان ذلك العصر جديداً بعد على النقد، غصاً على تجاربه وفنونه، فليس من الصواب أن نصبّ لومنا عليهم، ونطلب منهم أكثر من الذي قالوه وكتبوه.. وأحرى بنا أن نصبّ اللوم على أنفسنا، نحن أبناء العصر الذي بلغ (النقد) فيه أقصى ما يطمح إليه أديب أو فنان من انفتاح ونضج وامتداد إلى شتى حقول الآداب والفنون، وحوار خلاق بين

قيمه ومقاييسه لدى شتى الأمم والشعوب والحضارات التي قربت بينها وسائل التقنية الحديثة.. وأزالت الحواجز والجدران.

لقد فتح القرآن مدرسته الكبيرة لتخريج الناقدين.. وكان آباؤنا وأجدادنا أبناء عصرهم وبيئتهم وحضارتهم.. لكن القرآن الكريم نفسه لم يكن، ولن يكون، وليد عصر أو بيئة أو حضارة.. إنه كلام الله الخالد، ومدرسته الفذة التي لن تسد أبوابها - أبداً - على توالي العصور والأزمان<sup>(١)</sup>.

#### ٤

ومهما يكن من أمر فإن الناقد المسلم يجد نفسه في مركز الالتزام والمسؤولية والحكم.. وسواء شئنا أم أبينا فإن الناقد لا بد أن يكون حكماً! إن (أندرية تيريف) يقول: «كل نقد يحمل في طياته أحكاماً تقييمية، حتى ولو تظاهر بأنه يتفادها»<sup>(٢)</sup> ويؤيد (كلود روا) هذا الموقف بقوله: «إن يحكم؟ ليس مضطراً إلى ذلك حتماً، ولكنه - أي الناقد - لا يستطيع بكل تأكيد أن يفعل غير ذلك، فلديه سلسلة قيم واعية نوعاً ما، تركز عليها فكرته»<sup>(٣)</sup>.

وقد يرفض الناقد الحكم بسبب عدم وجود حقائق يقينية لديه، ولكن ليس هذا الوضع سوى وضع مؤقت، ولا يمكن الدفاع عنه في الواقع<sup>(٤)</sup>. إن كل نقد - يقول أراغون الشاعر الفرنسي المعروف - ينبع من مفهوم عام للعالم، وقد نلاحظه بدرجة أو أخرى، والكاتب يتفاهم مع قرائه عن طريق هذا المفهوم السائد، ومن هنا يستمد الكاتب نفوذه، فيؤثر على الأفكار التي في طريقها لأن تصبح كذلك<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر بالتفصيل مقدمة كتاب «في النقد الإسلامي المعاصر» للمؤلف.

(٢) كارلوني وفيللو: «تطور النقد الأدبي» ص ١٣٧.

(٣) نفسه ص ١٣٨.

(٤) نفسه ص ١٣٨.

(٥) روجيه جارودي «واقعية بلا ضفاف» المقدمة ص ٦.

والناقد المسلم لا يحكم على المعطيات الأدبية التي يجدها بين يديه، ليهوى في نفسه، أو لإشباع رغبة ذاتية.. بقدر ما يستهدف تحقيق (حاجة) ثقافية أكثر عمومية واتساعاً، وتسعى إلى تأصيل الحركة الإسلامية من خلال ضبطها وتوجيهها والأخذ بيدها عبر طريق الإبداع الصعب الطويل.. وهذا لن يتأتى إلا بتمكن الناقد المسلم من أدواته ومعاييره على مستوى الشكل والمضمون معاً.. وإلا بثقافته الأدبية الواسعة، التي تمكنه من المقارنة الدقيقة بين الأعمال الأدبية التي تتخلق في محيط واحد، أو تنتمي إلى نوع واحد، للوصول إلى تقييم أكثر عدلاً بالنسبة للعمل الذي يقبله بين يديه..

وكما يقول الرسول عليه السلام في حديثه الشريف: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته..» فإن الناقد يبرزها هنا مسؤولاً عن حشود الأدباء التي تنتظر التقويم والتوجيه، لكي تواصل إبداعها على هدى وبصيرة.. ومن ثم فإن التزام الناقد المسلم يحتم عليه أن يكون ضابطاً وموجهاً في الوقت نفسه، من أجل حماية الحركة الأدبية الإسلامية من الضياع وفقدان الشخصية - من جهة - وإغنائها بالقيم والمؤشرات والمعطيات المقارنة من جهة أخرى.. وهو لن يتمكن من ذلك إن لم يفتح عقله وقلبه على كافة المعطيات والتقنيات العلمية (المساعدة) أو (الموصلة) على مستويي المنهج والموضوع، وبخاصة علوم الاجتماع، والنفس، والتاريخ، والفلسفة، والاقتصاد، والجغرافية.. لكي يحقق إنارة أشد للأعمال التي يمارس نقدها.. شرط أن يملك دوماً معاييره النقدية الواضحة المستقلة، وألا يقع في مظنة (الاستهواء) لبعض المعطيات الوضعية الخاطئة التي تقود بالضرورة إلى نتائج خاطئة، فضلاً عن كونها ترتطم في تراكيبها الأساسية مع المنظور الإسلامي نفسه.. ولنتذكر - على سبيل المثال - معطيات التحليل النفسي (لفرويد) في ميدان علم النفس، والمادية التاريخية (لماركس) و(أنغلز) في ميدان التاريخ، ومذهب النشوء والارتقاء (لدارون) في ميدان علوم الحياة، والعقل الجمعي (لدركايم) في ميدان علم الاجتماع.. إلى آخره.

إن العمل النقدي الذي يستسلم بالكلية لإغواء معطيات كهذه، ينتهي إلى حشد من الأخطاء، عرضنا لبعضها، ولم يتسع المجال لبعضها الآخر.. فضلاً عن أنه يمثل - كما قلنا - ارتطاماً وتضاداً مع بدايات المنظور الإسلامي نفسه.. وهكذا فإن بمقدور الناقد المسلم أن يتجول عبر هذه المعطيات الوضعية، منهجاً وموضوعاً، ولكن شرط أن يملك دوماً رؤيته الإيمانية النافذة، وتصوره الإسلامي المستعلي الذي يحكم به على المعطيات، ويوظف عناصرها الصالحة لتحقيق نفاذ أعمق في صميم العمل الأدبي.

ومن خلال هذا المنظور نفسه، يمكن للناقد المسلم أن يفيد، إلى حد ما، من النظريات والوجهات العديدة التي طرحت عبر الزمن، لتفسير النص الأدبي : بالمؤثرات البيئية حيناً، وبالذوافع النفسية حيناً آخر، وبالتركيب الاجتماعي حيناً ثالثاً، وبالعوامل الجمالية الصرفة حيناً رابعاً... إلى آخره، ولكنه يتوجب أن يظل على طول الخط ممسكاً بالعصا من أوسطها، محاذراً تجاوز نظريته الشمولية، وموقعه الوسطي، ساعياً إلى الابتعاد عن مظنة الرؤية أحادية الجانب، محاولاً أن يلم شتات التفاسير جميعاً، ويكامل بينها، من أجل التحقق برؤية أكثر عمقاً وشمولاً للنص الذي بين يديه.

ولنتذكر هنا ما قاله (ويليك) في مقدمة الجزء الثالث من (نظرية الأدب) والذي ينصبّ على (الاتجاه الخارجي لدراسة الأدب) : «مع أن الدراسة الخارجية قد تسعى إلى تفسير الأدب في ضوء سياقه الاجتماعي، وما سلفه، فإنها تغدو في معظم الحالات شرحاً (تحليلياً) تتصدى لتعليل الأدب وشرحه، وأخيراً لإرجاعه إلى أصوله (ضلالة الأصول) ولا ينكر أحد أن كثيراً من الضوء قد ألقى على الأدب عن طريق معرفة مناسبة بالشروط التي أنتج في ظلها الأدب، ويبدو أن الشك لا يرقى إلى القيمة التوضيحية لمثل هذه الدراسة، ومع ذلك فمن الواضح أن الدراسة التعليلية لا تستطيع أبداً

أن تتخلص من مشكلات وصف موضوع كالعمل الأدبي وتحليله وتقييمه . . إن العلة لا تتناسب مع المعلول: إذ على الدوام لا يمكن التنبؤ بالنتيجة العينية (وهي العمل الأدبي) لهذه الأسباب الخارجية».

«التاريخ كله، وعوامل المحيط كلها، تجتمع لتصوغ العمل الفني، كما يمكن أن يقال، لكن المشكلات الفعلية تبدأ حين نقيم ونقارن ونعزل العوامل الفردية التي يفترض أنها تحدد العمل الفني، يحاول معظم الدارسين أن يعزلوا سلسلة معينة من الأفعال البشرية والمبتكرات، وأن يعزوا إليها وحدها تأثيراً محدداً على العمل الأدبي، وهكذا ففريق يعتبر الأدب بصورة رئيسية نتاج الفرد الخالق، ومن ثم يستنتج أن الأدب يجب أن يبحث بشكل رئيسي من خلال سيرة الكاتب ونفسيته، وفريق آخر يبحث عن العوامل الرئيسية المحددة للإبداع الفني في المؤسسات المعاشية؛ في الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفريق ثالث قريب منه يبحث بشكل واسع عن الشرح السببي للأدب في الابتكارات الجماعية للعقل البشري، نحو تاريخ الأفكار واللاهوت وبقية الفنون . . وأخيراً هناك فريق من الدارسين يسعون إلى شرح التاريخ بمصطلحات (روح العصر)، وبعض هذه المصطلحات يتعلق بروح العصر تعلقاً جوهرياً، وبعضها يدور حول الجو الثقافي، أو (مناخ) الآراء، وفيها شيء من القوة الموحدة التي تجرد إلى حد كبير من خصائص الفنون الأخرى»<sup>(١)</sup>.

إن التزام الناقد المسلم وموقعه الريادي يحتمان عليه مزيداً من التجرد في الحكم - الذي يصعب فصله كلية في مجال الأدب والفن عن الميول الذاتية - ومزيداً من التحقق بالقيم (الأخلاقية) خلال عمله . . إن الصدق، والمحبة، ونكران الذات، وتجاوز الظن والهوى، والتجرد عن المصالح



الخاصة، وغيرها من المزايا، إنما تقود الناقد المسلم عبر أكثر الطرق، اقتراباً من الحق، وتمكنه من تقديم معطياته في صيغ عادلة سمحة، هي أقرب إلى العدل والموضوعية، وأبعد عن الكذب والادعاء، ولن نجد في النقد الإسلامي - إذا أردنا الحق - تلك السخائم السوداء، والمساحات المدخنة التي تملأ مئات الكتب النقدية وألوف الصفحات.. صدرت من نقاد ما كان هدفهم سوى تحقيق ذواتهم على حساب الآخرين، وما كانت طرائقهم في العمل تلتزم القيم الخلقية التي يستلزمها العمل النقدي الجاد..

إن (الحق) و (العدل) قيمتان أساسيتان في بنية الكون والعالم، وفي نسيج التصور الإسلامي.. وهما كذلك قيمتان أساسيتان في سلوك المسلم ومنهجه.. ومن ثم نجد الناقد المسلم يسعى، من أجل أن يكون تعبيراً صادقاً عن فكره، إلى التزامهما في ميدان عمله، الأمر الذي يتيح له شروطاً أكثر فعالية في تحقيق المهمة الملقة على عاتقه.

ومن أجل ذلك كله، يجد الناقد المسلم نفسه مسوقاً، وهو يمارس عمله إلى تجاوز جزئيات العمل الأدبي، والبحث في نسيجه الشامل - بالضرورة - لأن المعنى النهائي يكمن هناك.

لا ريب أنه يتوجب عليه تسليط رؤيته النقدية على جماليات الشكل، كالأسلوب، والتكوين، والتناسب الهندسي، والتناسق الشكلي، وتوزيع الألوان والمساحات، والصيغ اللغوية المعتمدة، وطرائق تفجير القدرات المعقدة المتشابكة للكلمة.. ورغم الارتباط المعروف والمتفق عليه بين الشكل والمعنى، فإن على الناقد المسلم ألا يقف عند حدود الشكل ويطلق الوقوف، بل إن عليه أن يمضي إلى المضامين.. إلى ما يستثيره العمل الأدبي في وجدان الإنسان وفكره؛ من معانٍ وتفسيرات للقضايا التي تجابه الإنسان إزاء الكون والعالم.. إن ذلك يعني أن الناقد المسلم قد تجاوز

حدود الجماليات الشكلية إلى مرحلة البحث عن الحق، رغم ما ينطوي عليه الحق أحياناً من صور قد لا يستجملها الإنسان للوهلة الأولى.

إن (جويو) فيلسوف الجمال المعروف، يعلن رفضه لهذا التشبث بالأشكال، ويعتبره نزولاً بقيمة الفن «إن الفنانين أنفسهم - يقول الرجل - يساهمون اليوم في إنزال قيمة الفن بما يذهبون إليه من جعل الفن شكلاً وصناعة لا أكثر. فالرسامون يفخرون بما يسمونه في لغة المهنة Chic patte، والشعراء يفخرون بالقافية الغنية، حتى أصبح الشكل هو الغرض الوحيد الذي ينصرف إليه اهتمامهم، وأصبح الفن يبدو حذقاً ومهارة، لا نظرياً فحسب، بل عملياً أيضاً»<sup>(١)</sup>.

إن الناقد الشكلي يؤكد على الأجزاء، ويضخمها حتى تستحيل على يديه إلى شيء ثقيل ممتد يحتل جل مساحات العمل الأدبي، وكأنه لا شيء هناك سوى ما نقله لنا واقتطعه من بنية الطبيعة والواقع اقتطاعاً تعسفياً.. إنه يقف عند النبتة الخضراء المطعم بالظلال الخريفية الحمراء، لأنها جميلة وحدها فحسب، أما الناقد (الشمولي) فإنه يتوخى دائماً البحث عن المغزى.. عن العلاقة بين هذه النبتة وبين شفق المغيب.. إنه يسعى ليستجلي في عمله كل الارتباطات الظاهرة والخفية بين كل ما تعرضه علينا الطبيعة والحياة والتاريخ من خلائق وظواهر وحوادث وأشياء.

إنه بكشفه للعلاقات الظاهرة والخفية في بنية العمل الأدبي، يكون قد أدى دوره بشكل أقرب إلى الكمال، وذلك بكشفه عن الحق المتمثل بهذه الارتباطات، وتساقفها مع النواميس والقيم أو ارتطامها بها.

والناقد المسلم، وهو يمارس نشاطه التحليلي الكشفي هذا، من خلال الأعمال الأدبية لا يرتجل عملية الخوض في بحر العلائق والقيم، أو

(١) «مسائل فلسفة الفن المعاصرة» ص ٢٠.

يتحزب لها، وإنما يستنير بما طرحته عقيدته من أطر شاملة، تمنحه رؤية نافذة، وتهبه من الحقائق والمعطيات عن طبيعة العلائق والارتباطات في صميم الكون والعالم والحياة ما يجعل أحكامه تجيء كالميزان، وضوابطه ومعايره تضع العمل الأدبي في مكانه الحق بين الأعمال؛ قريباً أو بعداً.

٥

ثمة مسألة نقدية دارت حولها مناقشات شتى بين الإسلاميين ولا تزال تدور.. هل هناك ارتباط محتوم للعمل الأدبي بصاحبه خلال الحكم على (إسلاميته) أو عدمها؟ لقد ناقشنا قبل قليل ذلك الارتباط الوثيق في الرؤية النقدية بين العمل وصاحبه، وضرورة فرش كافة الخلفيات والتجارب والمؤثرات التي صاغت قدرات الأديب صاحب العمل.

والسؤال هنا ليس بهذا الاتجاه، لأن فصل العمل عن صاحبه سوف يفقد المحاولة النقدية قدرتها الشمولية على فهم العمل وتحليل مقوماته.. وإن كان هناك من يدعو إلى اتجاه كهذا كما رأينا.

ولكن السؤال - هنا - يتحرك باتجاه آخر، وقد يتضح بالصيغة التالية: لنفرض أننا وقعنا على عمل أدبي، أو مجموعة أعمال، تحمل رؤية إسلامية، وتلتقي مع هموم الأدب الإسلامي وتوجهاتها في كلياتها، وربما في تفاصيلها.. فهل يبيح هذا للناقد المسلم أن يصنفها ضمن المعطيات الإسلامية، رغم أن صاحبها قد يكون - في فكره عموماً - وفي سلوكه كذلك، بعيداً عن الإسلام وقيمه، وربما في تعارض معهما بهذه الدرجة أو تلك؟

إن (محمد قطب) يقدم جوابه بالإيجاب في كتابه المعروف «منهج الفن الإسلامي» فينتقي تحت عنوان (في الطريق إلى أدب إسلامي) نماذج لأدباء

غير إسلاميين، بل غير مسلمين بالاسم، حتى كطاغور الهندي (البوذي) وسنج الإيرلندي (الكاثوليكي).. وهو يحاول أن يقدم لذلك الاختيار تبريراً معقولاً، بل تفسيراً مقنعاً، إلى حد ما، فهو يقول: «إن الفن الإسلامي ينبغي أن يصدر عن فنان مسلم، أي (إنسان) تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة، والواقع بمعناه الكبير، وزود بالقدرة على جمال التعبير، وهو في الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها، ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عاناها في صورة جميلة موحية.. ولكنه - بهذا المعنى - ليس وقفاً على المسلمين وحدهم من الفنانين.

صحيح أن المسلم الحق - بطبيعة إسلامه - يجد الطريق أمامه ميسراً حين يوهب الموهبة الفنية لأن يعيش المفاهيم الإسلامية بالفعل، وينفعل بالأشياء والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم، دون جهد مبذول منه ولا افتعال، بل دون قصد واع منه إلى هذا الانفعال. وصحيح - من ناحية أخرى - أن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعي المباشر لحقيقة إسلامه، ولأن الإنسان لا يصل إلى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الإسلام وبمفهوم الإسلام».

«ومع ذلك فإن التصور (الفني) الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو تصور كوني إنساني، مفتوح للبشرية كلها، لأنه يخاطب (الإنسان) من حيث هو إنسان، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان. ومن ثم يستطيع أي إنسان أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله - بمقدار ما تطبق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب - فيلتقي مع الفن الإسلامي بذلك المقدار، ومن أجل ذلك لم نقصر النماذج التي أخذناها من (بواكير الأدب

الإسلامي) على المسلمين من الفنانين، بل اخترنا إلى جانبها نماذج من فنانين غير مسلمين، لأنها تلتقي - التقاءً جزئياً على الأقل - مع التصور الإسلامي، وتصلح بذلك أن تسير مع المنهج الإسلامي للفن في هذه الحدود<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره محمد قطب أن محاولة كهذه سوف تزيد من رصيد الأدب الإسلامي، وتغنيه بالمعطيات الخصبة، وتضع قبالة الأدباء الإسلاميين نماذج متقدمة على مستوى (التقنية) بوجه خاص، يمكن أن يحذوا حذوها، وأن تعينهم على رفع وتائر معطياتهم الإبداعية، وجعلها أكثر نضجاً واكتمالاً.

ومن خلال هذا الإغراء وجددني أخوض التجربة نفسها التي خاضها من قبلي محمد قطب، فاختار مسرحية الكاتب الإسباني المعروف (أليخاندر كاسونا) «مركب بلا صياد» لأضعها في صف الأدب الإسلامي وأكتب عنها بحثاً نقدياً بعنوان «القيم الإيمانية في مسرحية مركب بلا صياد»<sup>(٢)</sup>. ولقد قدمت للمحاولة بالتفسير أو (التبرير) التالي: «في مسرحية مركب بلا صياد يلتقي الشعر بالخيال الجميل بالإيمان، ويتعانق الفن والحياة في تكوين رائع هادف، ويتقابل قدر الله وإرادة الإنسان في تناغم وجداني مؤثر، وينتصر الخير على الشر، والحياة على الموت، والقيم على الانحلال في غنائية تنساب في جنبات الوجدان.. في مسرحية (مركب بلا صياد) نجد نموذجاً للأدب والفن اللذين ينبثقان عن تصور إيماني للحياة والعالم. والأشياء دون اعتساف ولا مباشرة ولا روح تعليمية، هذا الانبثاق العفوي للتصور الإيماني الذي كثيراً ما تُقنا إليه في معطيات الإسلاميين الأدبية والفنية، فلم نجده إلا في القليل النادر.. هذا الانفعال والتواجد مع الكون والعالم والأشياء الذي

(١) ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) انظر كتاب «في النقد الإسلامي المعاصر» للمؤلف ص ٦٧ - ٩٩.

يثير في النفس، في اللحظة الواحدة ألف معنى من معاني الإيمان والحب واليقين، ويدفع الإنسان الفنان إلى التعبير، إلى الاتصال بالعالم ثانية، ليقول لهم ما يحسه، ليعرض عليهم بعض جوانب رؤياه، ليقطع لهم جزءاً من وجدانه وحنانه، ليحدثهم عن أغوار تجربته وآفاقها البعيدة.. هذا التصور الحيوي للفنان الذي يرى في الإنسان طاقة من الإرادة والصراع بإمكانها أن تتحدى وتنتصر، وبإمكانها كذلك أن تسقط وتتمرغ في التراب، ولكن لكي تعود من جديد إلى التحدي وإرادة الانتصار.. هذه الواقعية التي تستند إلى خلفية صامدة من القيم الثابتة، التي لا يضيع معها الإنسان ولا يتوه في زحمة الواقع وثقله وتمخضه وتحركه اللانهائي، ولا ينحدر في منعطفاته ووديانه.. هذه العاطفية التي تحتضن في لحظة حب صامت عميق كل الناس والأشياء.. والجمالية التي تربط الأجزاء المبعثرة في النفس والآفاق، في وحدة متناسقة عبقرية الصنع والتألف والتوافق، وتضع كل مخلوق وكل شيء حيث أراد الله له أن يكون.. جمال رائع لصورة تنبثق في وجدان الإنسان عن رؤية واسعة المدى للكون والحياة والعالم.. وهذا الفهم للقدر والحرية، والإدراك الإيماني لموقع الإنسان في الكون، وللحكمة العليا التي تجعل القدر يتدخل في مصير الإنسان بعنف وفجائية مخيفة حيناً، وبهدوء وخفاء أحياناً، لا لكي يحطم الإنسان ويدخله صراعاً غير متكافئ، ولكن لكي يعلمه أن ينظر إلى بعيد، وأن يستبطن الأحداث والأقدار لكي يصل إلى هدفها ومداهها، ولكي يعرف أن الله سبحانه قد وضع له في كل حادثة أو مأساة أو فرحة أو انتصار فجائي عنيف: أملاً أو مصيراً عظيماً.

«هذا الفن الذي يصدر عن وجدان مترع عطفاً وحباً و يقيناً وإيماناً.. هو الذي نريد أن نراه من الإسلاميين في القصيدة و القصة.. في المسرح والرواية.. لكي نقول: إن الفن الإسلامي حقيقة واقعة، وإن الإسلام صنع القاعدة البشرية التي ترفد الحضارة بفن يربط الأرض بالسماء، والإنسان

بالكون والعالم، والقدر بالحرية، والواقع بما وراء الواقع، والحقيقة بالخيال، والظاهر بالباطن، والخطيئة بالتوبة، والسقوط بالانتصار.. فن يعمق العاطفة الإنسانية، ويوسع أبعاد الجمال، ويقدم - بغير ما مباشرة - تجربة المؤمنين الذين يسعون دائماً إلى حياة أشد تركيزاً، ويطمحون أبداً إلى رؤية أبعد مدى، ويعرضون لنا الحياة من خلال تعبيرهم الذاتي : ساحة رائعة جياشة من الصراع والتوحد، والتنافر والانسجام، والخير والشر، والحب والكراهية، والكفر والإيمان، والتناقض والتوافق، والتبعثر والتناغم، والله والشيطان.. لا لكي تقف عند هذا الحد لا تتعده، ولكن لكي تقول لنا - عن ثقة ويقين - أن الصراع - سيؤول إلى الانسجام، والخير سيغلب الشر، والحب سيكتسح الكراهية.. وسينتصر الإيمان على الكفر، ويقضي التوافق على التناقض، ويعيد التناغم الإنسان والعالم إلى موقعيهما بعد أن بعثرهما الشيطان»<sup>(١)</sup>.

وبعد عرض مركز لأحداث المسرحية جاء تحليل قيمها الإيمانية التي تلتقي في نهاية المطاف، بل في بدئه، بالقيم والمواقف الإسلامية ذاتها. واختتمت المحاولة بهذه الكلمات التي تؤكد دور (محمد قطب) في هذا التقليد النقدي الذي شق طريقه لأول مرة : «يوم يقدم المسرح الغربي لنا مسرحيات أخرى باتجاه (مركب بلا صياد) فإن رصيد الفن (الإسلامي) بمفهومه الواسع سيزداد، وسيمتد إلى مساحات أوسع من ذي قبل، فكل القيم التي طرحها (كاسونا) في مسرحيته تنبثق إلى حد كبير عن التصور الإسلامي للحياة والعالم والأشياء : الشيطان، العالم المشهود والغيب، إدانة الحضارة الجاهلية المعاصرة، التواجد مع الطبيعة، الحب، الإيمان، الغفران والقدر.. حيث يمكن أن يجد الإنسان المعاصر الفن الذي يقدم له صورة أخرى للوجود الكوني والإنساني.. ولكن.. هل أن مسرحية (مركب بلا صياد) هي المسرحية الغربية

(١) المرجع السابق ص ٦٩ - ٧١.

الوحيدة التي يمكن أن نجد فيها هذه الروح الإسلامية؟ إن على النقاد والأدباء الإسلاميين أن يبحثوا ويطلعوا - من زاوية رؤياهم - ما يأتينا من هناك . . وربما يجدون الكثير: أعمالاً كاملة أو مقتطفات.

لقد فتح الأستاذ (محمد قطب) الباب على مصراعيه أمام النقاد والفنانين الإسلاميين . . وبدأ الطريق فاخترنا نماذج من الأدب الإسلامي للشاعر الهندي طاغور، وللكتاب المسرحي الإيرلندي ج. م. سينج، وعلى الأدباء والفنانين الإسلاميين أن يواصلوا المسير<sup>(١)</sup>.

بعد عشر سنوات أعدت الكرة في كتاب «محاولات جديدة في النقد الإسلامي» فاخترت في فصله الأول المعنون بـ «الشعر العربي والرؤية الإسلامية الجديدة» نماذج شعرية لشاعر أبعد ما يكون عن الإسلام سلوكاً، إن لم نقل تصوراً . . بل إنه ليضرب به ويشعره المثل على مجافاة الإسلام والإبحار ضد قيمه وتصوراته وأعرافه . .

ذلك هو (أبو نواس) . . السكير . . العرييد . . الضائع بين زقوق الخمر في أزقة بغداد . .

ولكن الرجل . . تاب . . أخيراً . . وياب التوبة مفتوح لكل طارق . . ومن ثم وضعت تلك المختارات تحت عنوان (الباب المفتوح) . . وهي مقطوعات عذبة، سلسلة . . ولشدة عذوبتها وسلاستها أصبحت تجري على الألسنة مجرى الأمثال، وتلعب دورها في تعزيز (التوبة) كقيمة أصيلة في التصور والحياة الإسلامية، خلافاً للمذاهب والعقائد والأديان الأخرى . . سماوية كانت أم وضعية!!

ولكن . . هل حسمت المسألة بهذه السهولة؟

(١) المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩.



أبدأ.. وأذكر أنني وعدد من أساتذة الأدب والأدباء الإسلاميين أثرنا هذا الموضوع، وناقشناه طويلاً، مقلبين الأمر على وجوهه.. فمن مبيح بحجج مقبولة ومن محرم بحجج مقبولة هي الأخرى.. ولم نصل إلى نتيجة قاطعة.. إن (الموضوع) لينطبق عليه مبدأ (تكافؤ الأدلة) الذي كان يقول به أبو حيان التوحيدي رحمه الله.

ولن يكون سهلاً ميسوراً أن نرجح هذا الرأي أو ذاك.. وإذا كنا قبل قليل قد أشرنا إلى المبررات.. فماذا يمكن أن نقول إزاء المبررات المضادة، وهل يمكن دفعها وتفنيدها؟!

ماذا بصدد الارتباط العميق، والشائج المتداخلة بين العمل الأدبي وصاحبه؟

ماذا بصدد المعادلة الإسلامية الواضحة كالشمس، البينة التي لا جدال فيها حيث يكون الإسلام لقاء بين التصور والسلوك؟

ماذا بصدد الموقف النهائي أو النظرة الشمولية التي تصنف هذا الأديب أو ذاك، في خط مضاد للإسلام، رغم أنه قد يصدر عنه بين الحين والحين، عمل، أو أعمال، تحمل رؤيتها الإسلامية ونفْسُها الإيماني العميق؟ علماً بأن الأديب هو بعموم أعماله، وليس بهذه الجزئية أو تلك؟!

ثم ماذا لو أن أديباً ماركسي الهوى والفكر والانتماء.. ملحداً حتى النخاع، طرح بعض مقولاته الإبداعية فجاءت تلك المقولات - بالمصادفة المحضة - متوافقة مع المنظور الإسلامي؟

ولكن - من جهة أخرى - وعوداً إلى الوجه الآخر للمسألة التي بدأنا بها الموضوع.. ماذا بصدد حديث رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»؟ وماذا بصدد تقييمه لقصائد قالها شعراء ما كانت قصائدهم يوماً إلا حرباً على الإسلام، وتعزيزاً لمواقع خصومه؟

إنها معضلة (تكافؤ الأدلة) مرة أخرى.. ولن يستطيع المرء أن يحسمها بسهولة.. وإن كنت لا أزال أميل إلى الرأي الأول، لأن مزاياه أكثر من عيوبه، وما سنكسبه من خلاله، أكثر بكثير مما سنخسره..

## ٦

رغم أن تاريخ الأدب قد يُعدّ فرعاً مستقلاً في الدراسات الأدبية، فإنني أجدني مضطراً إلى تناوله - بإيجاز - في سياق المنظور النقدي، نظراً لكونه يخضع، في النهاية، أو يمرر، بعبارة أخرى، من خلال هذا المنظور.. وبدون ذلك فإن العملية لن تعدو أن تكون حركة على السطح.. وستكون حينذاك تاريخاً عاماً أكثر مما هي تاريخ أدبي..

ولقد قامت بالفعل، كما يؤكد (رينيه ويليك) «محاولات لعزل التاريخ الأدبي عن النظرية والنقد.. إلا أن هذا التمييز لا تقوم له قائمة. فبكل بساطة، ليس في التاريخ الأدبي معطيات تعتبر (وقائع) محايدة تماماً، إذ أن أحكام القيمة تدخل في صميم اختيار المواد الأولية: تدخل في التمييز التحضيري البسيط بين الكتب وبين الأدب، وفي مجرد فرز مكان مخصص لهذا الكاتب أو ذاك، حتى إن توثيق تاريخ ما أو عنوان ما ليفترض مسبقاً نوعاً من أنواع الحكم، الحكم الذي ينتقي هذا الكتاب أو هذه الحادثة، دون غيرها من بين ملايين الكتب أو الحوادث، بل لو سلمنا بوجود حقائق محايدة نسبياً وقائع كالتاريخ والعناوين والأحداث الشخصية، فإننا لا نكون قد سلمنا إلا بإمكانية تجميع حوليات تاريخية تتعلق بالأدب. إلا أن أي سؤال أكثر تقدماً بقليل، حتى السؤال الذي يتعلق بنقد نص من النصوص، أو بمصادر وتأثيرات معينة، سيتطلب دائماً تقديم أحكام.

إن أي تقرير، كقولنا على سبيل المثال (أخذ بوب عن درايدن) لا يفترض مسبقاً انتقاء درايدن وبوب من بين عدد لا يحصى من متشاعري

أيامهم، بل يتطلب معرفة بخصائص درايدن وبوب، ثم القيام بعملية دائمة من الدراسة إلى المقارنة والاختيار، وهذا كله عمل نقدي في جوهره»<sup>(١)</sup>.

ويخلص (ويليك) إلى المقولة التالية التي يستمدّها من (نورمان فورستر) في كتابه «الباحث الأدبي في أمريكا»: «يجب أن يكون مؤرخ الأدب ناقداً حتى لو أراد أن يظل مؤرخاً»<sup>(٢)</sup>.

وعكس ذلك صحيح أيضاً.. أي لا بد أن يكون الناقد الأدبي مؤرخاً «فتاريخ الأدب شديد الأهمية للنقد الأدبي حالما يخرج هذا النقد عن إطار الميل والنفور الذاتية، والناقد الذي يقنع بجهله في حقل العلاقات التاريخية سرعان ما يضل في أحكامه الأدبية، فليس باستطاعته أن يعرف أي الأعمال أصيل وأيها منقول، ولا بد أنه من خلال جهله بالشروط التاريخية، سيخطئ على الدوام في فهم عمل فني معين. إن الناقد الذي لا يحوز على معرفة بالتاريخ، أو يكتفي بالقليل منها، يميل إلى إطلاق التخمينات جزافاً..»<sup>(٣)</sup>.

إن الأدب الإسلامي، سواء بمفهومه الالتزامي الأصيل، أم بأبعاده التاريخية الصرفة باعتباره معطيات الزمن والمكان الإسلاميين.. أي معطيات (تاريخية).. لهو بأمس الحاجة إلى دراسة وتقويم شاملين، يسعيان، أولاً، إلى فرز ما هو (إسلامي) عما هو (تاريخي) صرف.. ليس بالصيغة الآلية الصارمة، أو الحسابية البسيطة.. وليس وفق طريقة انتقائية تتجاوز عناصر الارتباط والتداخل المعقد، الوثيق، بين التجربة الإبداعية والعقيدة والتاريخ، وتقع في شرك التسطّيح والتقريية، وإنما بمحاولات هادئة، متأنية، عميقة، تسعى للتوغل إلى الجذور البعيدة، بحثاً عن مكونات الظاهرة الأدبية، وخصائصها الأساسية، قريباً من التصور الإسلامي، أو بعداً..

(١) «نظرية الأدب» ص ٤٨.

(٢) نفسه ص ٥٤.

(٣) نفسه ص ٥٤ - ٥٥.

إنه فضلاً عن أن تاريخنا الأدبي لم يكتب (إسلامياً) لحد الآن في مجراه الشامل وتوجهاته الكلية.. فإن كثيراً من المسائل الرئيسية في هذا التاريخ لا تزال معلقة تنتظر الجواب..

هنالك - على سبيل المثال لا الحصر - المسألة الجمالية، وتطورها عبر التاريخ الإسلامي.. طبيعة العلاقة بين الشعر العربي والرؤية الإسلامية الجديدة.. غياب بعض الأنواع الأدبية أو انكماشها كالدراما والرواية، وتضخم أنواع أخرى كالشعر.. نمو وتطور الحركة النقدية عبر القرون.. حجم التأثيرات المتبادلة بين الأدب الإسلامي بصورتيه آنفتي الذكر، وبين آداب الأمم الأخرى.. طبيعة العلاقة بين الأدب الإسلامي والمجتمع.. مدى استمداد التيار الأدبي من منابعه الأساسية في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.. وغيرها من المسائل الأساسية.

والحق أن عدداً من هذه المسائل قد نوقش، ربما، كثيراً، وأشبع بحثاً وتحليلاً، ولكن من زوايا نظر لا علاقة لها البتة بالمنظور الإسلامي، بل قد تكون نقیضة لهذا المنظور ابتداءً. وإننا - على سبيل المثال كذلك - نجد في كتاب «موجز تاريخ النظريات الجمالية» لافسيانيكوف وسميرنوف، واحدة من هذه المعالجات، فنحن نقرأ فيه مقولات وعبارات قد لا يسلم بها الناقد الإسلامي، بل الباحث الموضوعي بسهولة، من مثل:

«وضع الإسلام الموسيقى والشعر ضمن الحدود الخائفة، والسبب واضح إذا علمنا أن العرب الوثنيين كانوا يتقربون من آلهتهم عن طريق الترانيم الشعرية المصحوبة بالأنغام الموسيقية»<sup>(١)</sup>.

و«يجدر بالذكر أن معظم الأدباء الذين مرّ ذكرهم (مثل الجرجاني وابن رشيق وقدامة وابن المعتز وابن قتيبة...) أعربوا عن الأفكار الجمالية للطبقة الحاكمة، طبقة الإقطاعيين، وقد كان لهذا تأثيره على طبيعة النظريات التي

أوردوها، ويظهر تقيدهم الطبقي في طريقتهم الشكلية عند دراستهم للإنتاج الأدبي، وفي تحديد اهتمامهم النظري بمسائل (جمالية الحديث) وفي استخفافهم بالمحتوى الفكري للإنتاج الفني، قبل أي شيء آخر<sup>(١)</sup>.

«لقد أثرت الديانة الإسلامية كما ذكر سابقاً تأثيراً واضحاً على تطور الفنون والنظريات الجمالية عند شعوب الشرق الأدنى والأوسط، ولكن هذا التأثير كان جزئياً. فقد أوجد الأدباء العرب في العصور الوسطى نظريات ذات خصائص مميزة، تدل على أن مؤلفيها لم يتقيدوا، من وجهة نظرهم، بأي مفهوم ذي صبغة دينية، وأكثر من هذا، فإن بعض النظريين الأدباء انتقدوا بشكل علني تدخل الديانة بمسائل النقد الأدبي»<sup>(٢)</sup>.

«فشلت مساعي المفكرين المسلمين ذوي النزعة المحافظة في أن يضعوا حاجزاً أمام الفن المتفائل المتصل بالحياة في فن العصور الوسطى العربية، باستثناء تلك الفترة التي كانت فيها الرجعية المتطرفة هي الغالبة»<sup>(٣)</sup>.

قد نكون بحاجة إلى إعادة النظر في التقسيمات الزمنية التقليدية لتاريخ الأدب الإسلامي. . قد نكون بحاجة إلى طرح صيغ نقدية جديدة في تحليل النصوص القديمة، تفيد - قدر الإمكان - من معطيات النقد والعلوم الحديثة، ولكنها تعض بالنواجز على رؤيتها الإسلامية، من أجل أن تحفظ شخصيتها وملامحها.

وقد نكون بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد لشرح وتفسير العديد من الظواهر والمعضلات التي لا تزال معلقة، والتي تنتشر عبر مساحة التاريخ الأدبي الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. . كما قد نكون بحاجة إلى تنفيذ عمل نقدي مقارن وشامل بين معطياتنا الأدبية عبر التاريخ، وبين معطيات الآداب العالمية الأخرى تأثيراً وتأثيراً.

(١) ص ٦٣.

(٢) ص ٦٣ - ٦٤.

(٣) ص ٦٤.

ولقد تضمن كتاب «محاولات جديدة في النقد الإسلامي»<sup>(١)</sup> محاولة لعلاج واحدة من تلك القضايا المعلقة في تاريخنا الأدبي : الشعر العربي والرؤية الإسلامية الجديدة، أوردتها - موجزة حسبما يسمح به المجال - كنموذج قد يكون مخطئاً وقد يكون مصيباً . لكن (منهجياً) يعد ضرورة من ضرورات التحقق الجاد بالمنظور النقدي الإسلامي لتاريخنا الأدبي .

إذا كان الإسلام يطرح - من خلال قرآنه وسنة نبيه - رؤية جديدة للكون والعالم والحياة والإنسان . . رؤية تجيء بمثابة انقلاب شامل على كل الرؤى المحدودة، والمواضعات البشرية القاصرة، والأعراف والقيم والتقاليد والممارسات المبعثرة الخاطئة . . رؤية تبدأ انقلابها هذا من صميم الإنسان . في عقله وقلبه وروحه ووجدانه وغرائزه وميوله ونوازعه لكي تصوغه إنساناً جديداً، قديراً على تحقيق التغيير المطلوب في بنية العالم وضرورة الحركة التاريخية . . من أجل تمكين الجماعة المؤمنة من تسلم زمام القيادة، والعودة بالتجربة البشرية إلى مجراها الأصيل المتوافق مع سنن الكون والعالم والحياة والإنسان . . فلماذا لم تنعكس هذه الرؤية الكبيرة الشاملة في معطيات المسلمين التعبيرية عبر أجيالهم الأولى . . وهم ماهم عليه من إيمان جاد، والتزام عميق، وتمثل لهذه الرؤية ما بلغت الأجيال التالية عشر معشارها؟

من أجل العثور على الجواب رجعت إلى هذه المعطيات في مظانها الأولى : دواوين شعر وتواريخ أدب . . . وقفت عندها وأطلت الوقوف . . ساعات طويلة مع حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، والخنساء، وكعب بن مالك، ولبيد بن ربيعة . . مع ابن الأثير في «أسد الغابة»، والأصفهاني في «الأغانى»، والحصري في «زهر الآداب» والجمحي في «طبقات الشعراء» والضبي في «المفضليات» وابن عبد ربه في

«العقد الفريد» وقدامة بن جعفر في «نقد الشعر» وأبي تمام في «الحماسة» وابن رشيق في «العمدة» وغير هؤلاء وهؤلاء.

ثمة لمحات كالبرق الخاطف تعكس الرؤية الجديدة الممتدة بلا حدود.. ولا شيء وراء هذه اللمحات سوى ركام من الشعر، يمثل امتداداً لعصور الجاهلية في (تقنيته) وكثير من مضامينه.. فإذا ما حاول تمثّل المضامين الجديدة، وما تفرضه من صيغ تقنية مختلفة لم يطق مجاوزة (القديم)، وبقي متشبهاً به يسير بمحاذاته، ربما خوفاً من السقوط في المجهول... وربما عدم تمكن من (تنفيذ) الرؤية الجديدة في مجرى العطاء الشعري.. وربما... من يدري؟

هذا ما كان يحدث في العقود الأولى.. تلك المرحلة التاريخية الخطيرة الحاسمة التي غيرت فيها طلائع الإسلام.. العالم.. عالم يتغير.. بكل ما تحمله العبارة من ثقل وامتداد.. ولكن الفن الذي يتوجب أن تنعكس عليه مجريات التغير الكبير لم يتحقق!!

وإذا كان شعراء الجيل المخضرم.. جيل الانتقال بين الجاهلية والإسلام، غير قادرين على تحقيق القفزة النوعية المنتظرة بسبب الاعتياد.. فما بال الأجيال التالية التي ولدت ونشأت وعاشت في صميم التجربة الإسلامية؟ إنهم هم الآخرون كانوا يخطرون في محاذاة القديم.. لم يجرؤ أحد منهم على القفزة التي ربما ما خطرت لهم على بال!!

احتمالات عديدة يمكن أن يفترضها الناقد الحديث لتقديم جواب مقنع، قد تخطئ، وقد تصيب، وقد ينضاف إليها فيما بعد.. كما سبق وأن طرحت احتمالات أخرى واحتمالات، وأبرزها وأشملها ولاريب تلك التي قدمها الأستاذ محمد قطب في كتابه «منهج الفن الإسلامي»<sup>(١)</sup>.

(١) «المقدمة» ص ٧-١٣ (الطبعة الأولى، دار القلم، القاهرة).

ومن بين هذه الاحتمالات - كذلك - ما ذهب إليه عدد من الباحثين المعاصرين (الحاجري في تاريخ النقد، والبهيتي في تاريخ الشعر، والبصير في عصر القرآن، والكفراوي في الجمود والتطور، وجورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية . . وغيرهم) من «أن المسلمين انشغلوا بأمر الدين الجديد وانصرفوا إليه، واتكؤوا في ذلك على قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه». ويعقب ابن سلام الجُمُحِيَّ (فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايتها)<sup>(١)</sup>. ويقول ابن خلدون في «مقدمته»: (ثم انصرف العرب عن ذلك - أي عن الشعر - أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين و النبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فاحترسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً. ثم استقر ذلك، وأونس الرشد في الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي عليه السلام، وأثاب عليه، فرجعوا حيثنذ إلى ديدنهم منه)<sup>(٢)</sup>»<sup>(٣)</sup>.

لكنّا - تاريخياً - لا نجد فترة زمنية كف فيها الشعر عن العطاء، عبر عصر الرسالة منذ لحظاتها الأولى، وحتى لحاق الرسول الكريم عليه السلام بالرفيق الأعلى، لكي نقول بأن المسلمين انشغلوا بأمر الدين الجديد فكفوا عن قول الشعر . . والاحداث الكبيرة لا تلهي الشعراء وتشغلهم، ولكنها تشدهم وتبههم، فيزدادوا تدفقاً . . ثم إن المسألة ليست مسألة توقف زمني عن العطاء الشعري، ولكنها معضلة شعر يعاني من الهزال والهبوط الفني ظل يقال، عبر لحظات الصراع المحتشدة، وعبر ساعات السلم الهيئية - على السواء - دون أن يكون، إلا نادراً، بمستوى ما تتطلبه هذه اللحظات من إبداع . .

(١) «طبقات الشعراء» ص ٢٢ (طبعة دار المعارف بمصر).

(٢) «المقدمة» ص ٥٨ (الطبعة الثالثة، نهضة مصر).

(٣) د. يحيى الجبوري «الإسلام والشعر» ص ٣٠-٣١ (مكتبة النهضة، بغداد - ١٩٦٤).



ومن بين الاحتمالات - كذلك - «أن الإسلام حرّم أكثر الأعمال التي يوجد فيها الشعر، وتنشط القرائح، كذكر الخمر، ومغازلة المرأة، وإثارة الضغائن والأحقاد والثأر.. وقد تغيرت الحياة العامة ومثلها، وتغيرت - تبعاً لذلك - الدوافع التي بها ينشط الشعر، ويتشجع الشعراء، فالإكرام والتشجيع الذي كان يلقاه الشعراء من الملوك وأصحاب الثراء والسلطان، قد حل محله زجر عمر (رضي الله عنه) عن المديح الكاذب، والقول الذي يشير الحفاظ، ويمس أعراض الناس»<sup>(١)</sup>.

ويتهافت هذا الاحتمال، بشقيه، بمجرد أن نتذكر كيف أن الإسلام، إذ سدّ نوافذ تتلقّى منها شرايين الشعر الدم الأزرق الفاسد، فتندفق بالزيف والخديعة والكذب، وتنفث نفسها المحترق ضد الإنسان وقيم الإنسان.. الإسلام إذ سدّ هذه النوافذ فتح - في المقابل - أبواباً عريضة واسعة على مصاريعها، فتدفع عبرها الدم النقي القاني، إلى رثات لو عرفت كيف تتمثل الدم الجديد الصافي لحلقت في السموات بألف جناح، ولذهبت إلى آفاق بعيدة نائية ما حلم بها يوماً شاعر من الشعراء أو فنان من الفنانين..

أما زجر المديح الكاذب، وإرغام قائله على الكف عن تزيينه شعراً.. فثمة ما يقابله - كذلك - في قيم الإيجاب: إعجاب الرسول عليه السلام وخلفائه الكرام رضي الله عنهم بكل قول جميل يتدفق صدقاً وعفوية وصفاء.. واحتضانهم لكل شاعر يرفض الزيف والتزوير والكذب.. يتجاوزها إلى معانقة القيم الجادة العميقة، التي بشر بها الدين الجديد لصالح الإنسان و (تعبيره).. على السواء.. والوقائع كثيرة معروفة، وليس من ضرورة - حتى - للإشارة إليها..

(١) الجبوري : المرجع السابق ص ٣١-٣٢ وانظر بالتفصيل : ابن عبد البر، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ١ / ٣٤٦ (طبعة البجاوي - مصر)، المرزباني : «الموشح» ص ٦٤-٦٥ (طبعة السلفية - مصر)، ابن قتيبة : (الشعر والشعراء» ص ١٧٠ (طبعة لندن).

وثمة ما يقوله الأستاذ خلف الله في «دراسات في الأدب الإسلامي»<sup>(١)</sup> من أن «الناحية الروحية في الإسلام لم تزل إذ ذاك - أي في عهد الرسالة - في مستهلها، ولم تكن قد نفذت بعد إلى قلوب المسلمين في شكل قوي ملهم يفجر ينابيع الفن الرفيع»..

فأما أن الناحية الروحية لم تنفذ، زمن الرسول عليه السلام، إلى قلوب المسلمين، فذلك أمر مردود جملة وتفصيلاً.

على العكس تماماً.. لقد نفذت هذه الروح إلى الأعماق، كما لم تنفذ ولن تنفذ في قلب أمة من الناس، في عصر العصور!! نفذت إلى الأعماق، فأعادت خلقهم من جديد.. بعثتهم أمة جديدة، بعد أن هزتهم هزتها المعروفة تلك، فغيروا تاريخ العالم، وصاغوا خرائطه الجديدة.. إننا إزاء أمة أخرجها الإسلام من الظلمات إلى النور، فصنعت ما صنعت.. رجال كان كل واحد منهم قرآناً يمشي على الأرض.. بإزاء تقابل فاعل خلاق بين العقيدة الجديدة الجيل الذي حملها، حيث تسقط كل مقولة بصدد وجود قدر من عدم التطابق بين المثل والقيم التي طرحتها هذه العقيدة، وبين الجماعة التي قبلتها والتزمتها..

لم تنفذ إذًا ما الذي صنعه جيل الرواد، أصحاب محمد عليه السلام، وكيف صنعه؟

وأما أن هذه الروح لم تنفذ إلى قلوب شعراء الجبهة الإسلامية على وجه التحديد؛ فإن علينا أن نثري قليلاً قبل أن نعطي الجواب بلا.. أو نعم..

هل إن الرؤية الإسلامية الجديدة لم تكن قديرة على أن تنطبع في ذهن الشاعر وضميره ووجدانه؟ هل أن الشاعر المسلم كان غير قادر على تلقي الرؤية الجديدة وهضمها وتمثلها؟.. إنه إذا تمنعت قلوب بعض الشعراء

(١) ٤٧ ص (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٧).

المسلمين على (التجربة) ولم تفتح لها الأبواب لكي تنفذ إلى الأعماق.. لسبب أو آخر.. فإن عدداً آخر تعاملوا معها حتى آخر قطرة من دمهم ووجدانهم.. وكانوا يتحركون بحسهم الجديد في قلب المعركة، ويسهمون في تحقيق العالم الذي رجوه وتمنوه.. ويستشهدون.. لكن ذلك لم يصنع (الشعر) الذي يوازي بإيقاعه إيقاع الحركة الكبيرة، ويعبر عنها، ويكون بحجمها... عملاقاً، كما هي عملاقة..

هل أن المعضلة تكمن في عدم وجود عدد من الشعراء الكبار في صف الحركة الإسلامية قديرين على تمثل مطالب الحركة التصورية، والتعبير عنها بالقوة والعمق والامتداد الموازي للحركة والآفاق؟

كلاً !! لأن عدداً من شعراء الجاهلية الكبار، لما انتقلوا إلى الإسلام عجزوا هم الآخرون عن أداء المهمة المرتجاة، وتنفيذ شعر إسلامي متميز أصيل.. ومع ذلك فلا بد أن نبقى احتمالاً كهذا في الحسبان، أو على هامش الحسبان، فلو أن عدداً من الشعراء الكبار من حجم زهير بن أبي سلمى، وامرئ القيس، والنابغة الذبياني، وعنترة العبسي، وطرفة بن العبد.. إلى آخره.. كانوا يعملون في قلب الحركة الإسلامية لكننا - ربما - عثرنا على قدرة أكثر - كمّاً ونوعاً - على الاقتراب من رؤى الإسلام وآفاقه وتصورات الشاملة.. لكن المسافة ستظل - يقيناً - واسعة، والهوة عميقة.. إذ ليس بمقدور أي من هؤلاء جميعاً أن يقفز في لحظة قصيرة في حساب الزمن الإبداعي ذي التقاليد طويلة الأمد لإبداع تقليد شعري جديد..

ومردود - كذلك - القول بأن الإسلام وقف في (تضاد) مع الشعر، وأن هذا الموقف بالذات هو الذي يفسر انتكاسة الشعر العربي، إذا صح التعبير.. إنها مقولة لا تقبل أبداً.. لأنها تخرج عن دائرة القناعة.. منذ اللحظة الأولى.. فالذي حدث هو عكس هذا تماماً - كما رأينا -.. نفخ في قريحة الشعراء أن يزدادوا تدفقاً وعطاءً.. وتأكيده القرآن الكريم على (قيمة)

الشعر الملتزم.. الشعر المؤمن المقاتل.. ومواقف الرسول عليه السلام مع الشعراء الذين انتموا إلى صف الإسلام، ونافحوا دونه بكلماتهم تنفي هذه المقولة.. تلغيها.. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام بنى لحسان بن ثابت في مسجد المدينة منبراً ينشد عليه! (١).

ثم إن العطاء الشعري يومها لم يكن يعاني من قلة على مستوى الكم، ولكنه كان يعاني - كما رأينا - من عدم قدرة على القفزة النوعية المطلوبة.. وأياً ما كان الأمر فإن مناقشة المقولة آنفة الذكر تغدو عبثاً لا طائل تحته..

إن المعضلة - فيما يبدو - محدودة في نطاق الفن عموماً، والشعر على وجه الخصوص.. ما الذي أقعد الشاعر المسلم عن اللحاق بركب الحركة الإسلامية وهي تذرع العالم لصياغته من جديد؟ ما الذي أعجزه عن تغطية صيرورتها الواقعة وأهدافها التي تركض إليها بسرعة أذهلت العالمين؟

أغلب الظن أن (الخلل) يتوجب البحث عنه في صميم العملية الشعرية نفسها، وفي علاقتها الجدلية بالزمن، من حيث إنها عملية دينامية متطورة، يزيدها مرور الزمن نمواً وازدهاراً بما يضيفه إليها من خبرات وتجارب على مستوى الأشكال والمضامين والاستشراف النقدي جميعاً..

فلو افترضنا أن الإسلام تنزل - على سبيل المثال - في أحد العصور العباسية في العراق، أو الإسلامية في الأندلس، لعثرنا - يقيناً - على حشد من الشعراء القادرين على تمثل التجربة والتعبير عنها بمعطيات شعرية أكثر عمقاً وحيوية ونضجاً على مستوى الشكل والمضمون.. لأن العملية الشعرية كانت يومها قد بلغت، بحكم التطور الدينامي، وتراكم الخبرات الفنية والثقافية، حداً طيباً من العمق والحيوية والنضج..

أما وقد تنزل في بيئة لم يكن الشعر فيها - على أصالته وقوة إمكاناته البنائية - بقادر على تجاوز القيود التي كان قد اختارها لعدة قرون.. قيود

(١) ابن رشيق «العمدة» ١ / ٧٣.

المعاني والأشكال... فإن من غير المعقول أن نطالب الشعراء يومها بتحقيق المعجزة بين يوم وليلة.. وإنه لا بد من فترة زمنية تحل فيها المعضلة، وتقود العملية الدينامية لتطور الفن الشعري، إلى تمكين الشعر من التعبير عن المطالب التصورية والحركية للدين الجديد، والتطلع إلى آفاقه التي ما لها من حدود..

إن العملية الشعرية في القرن العشرين، وما واكبها من معطيات ونظريات نقدية وفلسفات جمالية، هي غيرها في القرن العاشر.. إنها غدت ولا ريب أكثر عمقاً واستشراقاً ووعياً بطبيعة العملية عما كانت عليه يومها.. قد يسيء شاعر أو اثنان أو عشرة أو عشرون استخدام هذه الإمكانيات الكبيرة لدينامية العملية الشعرية.. وقد يكون شاعر أو اثنان أو عشرة أو عشرون في القرن العاشر، أكثر قدرة على الإبداع من رفاقهم بعد عشرة قرون.. إلا أن القاعدة تبقى هي القاعدة.. إن العملية الشعرية في القرن العشرين، شكلاً ومضموناً وبطانتها النقدية والفلسفية، غدت أكثر نضجاً بكثير مما كانت عليه في القرن العاشر..

وهذا يتيح للشاعر الحديث، إذا ما تهيأت له أسباب التمكن من ناحية الإبداع الشعري، أن يكون في القرن العشرين أكثر قدرة (تعبيرية) على تغطية مطالب الرؤية الإسلامية من سلفه في القرن العاشر، ويتيح للشاعر في عصر عباسي أو أندلسي أن يكون أقدر على التنفيذ الملتزم من سلفه في عصر نبوي أو راشدي أو أموي.. وشتان - على سبيل المثال - بين شاعر كجلال الدين الرومي، وآخر كحسان بن ثابت..

لا يستطيع أحد أن يقول بأن حسان لم يكن يريد اللحاق (الفني) بمسيرة الحركة الإسلامية.. إنه كان يتحرق شوقاً لذلك.. ولم تكن قدراته الشخصية وحدها هي العائق، بل كان هنالك ما هو أكبر منها: طبيعة العملية الشعرية يومها من حيث إنها كانت امتداداً لتأثيرات زمنية عمرها

عشرات القرون، كانت تحتّم على الشعر أن يتحرك في مسار محدد شكلاً ومضموناً.. وكان لا بد من مرور عشرات السنين لكي تجد العملية الشعرية نفسها تنطلق في مسارات جديدة.. ولو بعث حسان بن ثابت يومها لكان أقرب إلى روح التجربة الجديدة، وأقدر على التعبير عن مثلها ومطامحها وأحلامها وأمانيتها.. وبالمقابل فلو وجد جلال الدين الرومي نفسه في تلك (البيئة) لما تدفقت (مثنوياته) كالشلال ملئ حيوية.. وغنى.. وعطاء..

هذا على مستوى تطور العملية الشعرية عامة، وارتباطها العميق بالزمن.. أي بتراكم الخبرة، وصيرورتها، وتحررها..

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد.. إن هناك مسألة (خاصة) تنبثق عن هذه المقولة، وتسلب المزيد من الأضواء على المعضلة التي بين أيدينا.. تلك هي مسألة الالتزام.. إنها هي الأخرى ترتبط بالزمن، وبتراكم الخبرة، وبالتحرر.. تبدأ هشة، بسيطة، مسطحة.. ويمرور الزمن تزداد قوة، وامتداداً وعمقاً.. تمارس في البدء قدراً كبيراً من المباشرة والتقيرية، ثم ما تلبث أن تتجاوزها، بمرور الزمن، وبتراكم الخبرات، وازدياد الوعي الفني بين الذات والموضوع، صوب نوع من (التعبيرية) التي لا تصف الموضوع وصفاً شينياً تقريرياً من الخارج.. بل تدعه يصف نفسه بتفجير موحياته، وإثارة التداعيات المستمرة بينه وبين الذات، مبدعة، كانت أم متلقية..

وما أكثر التجارب العقائدية التي بدأ التعامل الفني معها بداية هشة مسطحة، ثم إذا بالعلاقة تتجاوز، بمرور الزمن، هذا الموقف إلى مواقع أكثر أصالة وعمقاً وإبداعاً.. إن الشعراء الرواد لأية عقيدة أو فكرة في التاريخ ليسوا - في الأعم الأغلب - كشعرائها التالين.. أولئك لهم سبق الريادة وفضلها، ولكن هؤلاء لهم فضل التألق بالتعبير والارتفاع به إلى قمم عليا..

قد تكون للأفكار في بدء التجربة ضرورات تاريخية تدفع الممتمين إليها، فنانون أو غير فنانيين، إلى التعامل المباشر معها، من أجل تمكينها في

الأرض وحمايتها بالنفس والنفيس . . ليس ثمة وقت للمداورة والمناورة . . ليس ثمة وقت للتحسين الجمالي الذي يبدو يومها أشبه بالكماليات، إزاء ضرورات تحتم - حتى على الشعراء - أن يلقوا بكل ثقلهم، وبشكل مباشر، في ميدان المعركة، من أجل تحقيق الانتصار للكلمة التي آمنوا بها . . والجماليات قد تأتي فيما بعد، يوم أن تضرب العقيدة جذورها في الأرض، ويوم يتاح للفنان من الوقت والاستقرار ما يمكنه من تجاوز المباشر إلى ما ورائه بحثاً عن التعبير الأكثر نأياً وبعداً . . التعبير الذي يتجاوز طرح المعاني المباشرة التي اقتضتها الضرورات التاريخية الأولى، إلى القيم البعيدة التي تتيحها لحظات الازدهار والاستقرار . .

وهنا - أيضاً - قد يبرز شاعر أو اثنان أو عشرون . . يضربون القاعدة ويتعاملون مع العقيدة الجديدة تعاملًا جماليًا بعيداً عن المباشرة والضرورات العملية - إذا صح التعبير - كما قد يبرز شعراء في عصور الازدهار، يرجعون القهقري، فيتعاملون بالمباشرة والتقريرية مع عقيدة كانت قد استقرت في الأرض والنفس وآت ثمارها . . ولكن القاعدة تبقى هي القاعدة . . ومن ثم فلا يقاس بالاستثناء .

لكن القول بدينامية العملية الشعرية لا يمثل الحقيقة كلها . . ونحن نرفض رفضاً قاطعاً ذلك الخطأ (المنهجي) الذي يأخذ بتلايبب العقل الغربي ويقوده في كثير من الأحيان إلى البوار : التثبيت المتشنج بالتفسير الأحادي الذي يعجز عن إضاءة جوانب الحقيقة كلها . . وتبقى الجوانب الأخرى هذه بحاجة إلى مزيد من التفاسير والمحاولات من أجل أن يصلها الشعاع . هاهنا، بصدد دينامية العملية الشعرية، نجد أنفسنا مقاطعين بحقيقة لا تقل ثقلًا وأهمية في ميدان الخلق الفني . . إن ظهور بعض العبقریات الفنية العملاقة، الكبار . . يند عن حكم الزمن، وتراكم الخبرات، ومعطيات التطور . . . فقد يظهر في عصر (سابق) شاعر أو مجموعة شعراء كبار يملؤون الدنيا ويشغلون الناس . . . وفي

عصر (تالي) عبثاً نحاول العثور على واحد فحسب يسامت أولئك الكبار، (في المرحلة الزمنية التي نعالجها، يجمع النقاد ومؤرخو الأدب على وجود عدد قليل من فحول الشعراء في الجاهلية، ثم تناقصهم في صدر الإسلام، وعودتهم إلى الظهور في العصور التالية) ..

لماذا هذه الظاهرة؟ ربما لأن الأرضية الحضارية عموماً، والثقافة على وجه الخصوص، أتاحت لهم الظهور والتعدد في الأولى ولم تتح لهم ذلك في الثانية. . . ربما لأن تقليداً ثقافياً أو فنياً يجعل العصر (السابق) أحفل بالإبداع الفني، وفي عصرٍ تالي، يُبتلى بالنضوب، ربما لأن ظهور شاعر أو فنان عملاق يمثل تحدياً للقرائح والعقول، فتتحرك للاستجابة، فيكون الشاعران والثلاثة والعشرة الكبار. . . وينعدم التحدي في عصر آخر فلا يستجيب أحد. . . . وربما. . . وربما. . . والمهم هو أنه ليس شرطاً أن يظل العمل الفني صاعداً على المنحنى صوب القمة بمرور الزمن. . . فثمة انتكاسات. . . . وثمة معطيات عكسية، لا تخلو منها حضارة من الحضارات. . .

فمع الدينامية، وما تعد به من نضج وتقدم واكتمال، بمرور الزمن، هنالك حتميات النمو الحضاري، والمعطيات الثقافية، والتقاليد الاجتماعية والنفسية، وهنالك أيضاً الإيماضات الميتافيزيقية التي تكمن خلف العمل الحضاري فتمنحه القدرة على الفعل والتشكل، بهذه الطريقة والصيغة، أو تلك. . .

ولابد إذاً من أن نأخذ بكلتا الإنارتين إذا ما أردنا فهماً أعمق للمعضلة!

هنالك أيضاً إضاءة أخرى قد تمنحنا قدراً أكبر من الفهم للمشكلة، تلك هي غياب أو تسطح الرؤية النقدية التي تمثل البطانة، كخلفية للإبداع الفني والتحدي الذي يبعث الاستجابات الكبيرة التي تصنع العمل الكبير.

وما من شك في أن الخبرة النقدية أكثر ارتباطاً بحتميات التطور الزمني، وتراكم التجربة، من العمل الإبداعي نفسه. . فها هنا، وكما رأينا قبل قليل،



قد تقطع العبقرية الفنية حكم الزمن.. تند عن تسلسله الرياضي الصارم، فتبرز في فترات مبكرة، وتغور وتختفي في فترات متقدمة، أما الخبرة النقدية فهي وليدة النمو الزمني والتطور الثقافي، لأنها عملية معرفية محددة، قد تلجأ للذوق والوجدان، وتتجاوز المنظور والملموس، ولكنها تبقى أكثر تحديداً واعتماداً على المعطيات المتطورة من العمل الإبداعي.

ومن ذا يرفض القول بأن الوعي النقدي في القرن العشرين قد بلغ حداً من النضج والتكامل والاتساع ما بلغ في القرون الأولى عشر معشارها؟

إن الحديث عن الالتزام والموقف الإبداعي، هو جزء أساسي من الوعي النقدي والرؤية النقدية.. ومن ثم نتوقع كيف أنه في العصر الذي نتحدث عنه لم تكن هناك قاعدة تصورية واضحة تفقد الحركة الشعرية إلى طرائق عليا من التعامل المبدع الملتزم مع العقيدة الجديدة.. ما كان هنالك وعي نقدي يتحدى الإبداع، ويتطلب منه أن يستجيب.

لم تكن العملية النقدية يومها بأكثر من استجابة وجدانية موقوتة تتخللها بعض إيماضات فكرية تضبط الحكم بالمعايير الجديدة التي جاء بها الدين الجديد.. أما أن تكون هنالك رؤية نقدية شاملة، أو وعي نقدي متكامل، فإننا سنكون مخطئين لو تطلبنا ذلك.. وإنه لمن الخطأ المنهجي الذي تعانيه بعض النظريات الحديثة في شتى المناحي الفكرية والثقافية، أن نمارس عملية إسقاط لمعطيات بعدية على (القبليات).. أن نرغم القرن الأول أو الثاني أو السابع الميلادي على أن يتصادى مع القرن التاسع عشر والعشرين، وأن يتقبل معطياته، فكأنه والقرن العشرين سواء!

هل ثمة احتمالات أخرى تعين على تسليط مزيد من الضوء؟ نعم... إنها مسألة أكثر (خصوصية) من الاحتمالات السابقة... إنه القرآن!!

لقد بهرت كلمات الله، وآياته المعجزة، عقول العرب وقلوبهم، قدمت لهم مثلاً أعلى في جمالية التعبير ما كان يخطر لهم على بال... وكيف

يخطر لهم على بال، وهو من عطاء الله الذي لو كان البحر مداداً لكلماته، والبحر يمدده من ورائه سبعة أبحر، ما نفذت كلماته.

وثمة روايات عديدة ما هذا مكان سردها، تبين لنا كيف شدة العرب، فتجاوزوا مرحلة الإعجاب أو الانبهار إلى ما وراء ذلك، وهم يستمعون لكلمات الله التي قادت فريقاً منهم إلى مواقع الإيمان، وفريقاً آخر إلى مواقع العناد والإصرار..

لقد استلب القرآن ألبابهم، وإن في الأمر لبعداً نفسياً قد يكون واحداً من الأسباب التي أعجزت الشعراء الرواد عن أن يكونوا على مستوى العقيدة الجديدة... لقد أصبحوا يحسون أنهم دون هذا التعبير القرآني بكثير.. إنهم يتحركون على السطح والقرآن يتشكل في القمة... واللغة هي اللغة، والأحرف هي الأحرف... ج. م. ي. س. ط. هـ. ع. ص. ولكن شتان.. شتان بين صناعة الله جل في علاه وبين صناعة المخاليق.. لعله نوع من الإحساس بالعجز؟ لعله نوع من الإحباط؟ مهما يكن من أمر فإن الشعراء الرواد في لحظات الانبهار ما كان بمقدورهم إلا أن ينساقوا وراء هذا (التأثير) النفسي الجارف..

فلما بعدت الأجيال التالية عن لحظات الانبهار، حيث كان القرآن الكريم يتنزل لوقته تنزيلاً، وعادت لكي تتعامل مع كلمات الله تعاملاً يتميز بانفصال أكثر من ذي قبل، لأسباب بعضها سلبي وبعضها إيجابي، كان بمقدور الشعراء أن يتمثلوا (التجربة) وأن يصوغوها أداءً أكثر (فنية) من ذي قبل، وأكثر بهاءً وجمالاً..

إنها مجرد احتمالات فحسب، احتمالات تقوم على التخمين الذي قد يتأكد وقد يبقى ظناً... وإلا فبم إذا نفسر عجز الشعر الإسلامي يومها، ولنقلها بصراحة عن أن يكون عملاقاً... عملاقاً على مستوى التجربة التي كان يعايشها، ويتشكل معها، ويعبر عنها؟

ومع ذلك، فثمة لمحات منحنا إياها هذا الشاعر أو ذاك، نستذوق فيها بعضاً مما جاء به الدين الجديد، لمحات تكسب قيمتها من قدرتها على تجاوز التقليد الشعري الراهن، والطموح المحدود بطبيعة الحال، إلى ملامسة معطيات الدين الجديد، ولكنها - على أية حال - تبقى استثناء من قاعدة، ولمن يريد التثبت أن يرجع إلى دواوين الشعراء المسلمين الأوائل فيقرأ فيها.. بل إنه حتى هذه النماذج<sup>(١)</sup> لا يمكن أن تكون أبداً بحجم الرؤية التي طرحها هذا الدين، إذ تظل تعاني من الهبوط الشعري - إذا صح التعبير - والمباشرة والتقريرية، وبإحالتها على ما قدمته الأجيال التالية من عطاء شعري، بمقارنتها بذلك السيل المتألق يبدو البون شاسعاً بعيداً.

والآن، فإننا لو مضينا مسرعين في بحر الزمن، وخلفنا وراءنا العقود والقرون، فإننا سنجد أنفسنا أمام تيار متدفق من العطاء الشعري الإسلامي الملتزم الذي ينأى عن التقريرية والمباشرة، ويعبر عن قيم الإسلام وآفاقه بعمق وعفوية، وتمتد رؤاه بعيداً وهي تجهد في أن تصل إلى مشارف رؤية الإسلام ذاتها لتغطيها، وتستجيب لنداءاتها وأمانيتها !!

بمرور الزمن يتحرر الشعر الإسلامي من رواسب البدايات الجاهلية شكلاً ومضموناً.. وبمرور الزمن يكتسب الشعر الإسلامي خبرة ومرونة وطول نفس، وتجد العملية الشعرية نفسها أكثر قدرة على الحركة والامتداد بما منحه الزمن إياها عبر نموها الدينامي.

وإذا كنا في العقود الأولى لا نكاد نعثر إلا على لمحات مبعثرة هنا وهناك، تكذّ العين في الوقوع عليها، فإننا في القرون التالية نجد أنفسنا في إसार صعوبة من نوع آخر تماماً : الكثرة المحيرة.. بحر من العطاء الشعري الذي لا يدري الإنسان ماذا يأخذ منه وماذا يدع!

(١) يمكن للقارئ أن يرجع إليها في كتاب «محاولات جديدة في النقد الإسلامي» للمؤلف ص

إن عشرات بل مئات من الدواوين الشعرية المجموعة أو المفارقة في تواريخ الأدب وكتب النقد والموازنة والمنوعات، لا نكاد نقلب صفحاتها حتى تقع أعيننا على القصائد ذوات العدد، مما يمكن أن ندرجه تحت مصطلح (الشعر الإسلامي) ذلك الذي يصدر عن رؤية إسلامية أصيلة، ويمتد بعطائه الزاخر، المؤثر، إلى بعض ما تمتد إليه.

(بعض)؟ نعم، ذلك أن كثيراً من الطرق التي شقها الإسلام في قلب العالم، الآفاق الرحبة التي مدَّ إليها الرؤية الإيمانية في مدى الكون، لم يمسهما الشعر العربي عبر عصوره جميعاً، لا من قريب ولا من بعيد، والذي فعله هو أن تناول زوايا محددة فحسب، لا تعدو أصابع اليدين، بينما الرؤية التي صنعها الإسلام يمكن أن يمسهما الشعر من ألف زاوية وزاوية.

ومهما يكن من أمر، فإن (اختيار) الشواهد الشعرية هنا<sup>(١)</sup> مسألة صعبة ومحيرة، لأن الأبواب المشرعة كثيرة، ولا يدري أحد من أي باب يدخل.

وأحرى في حالة كهذه أن يتولى أديب شاعر متفرغ، أو لجنة من الأدباء والنقاد، تنفيذ مهمة نحن بأسس الحاجة إليها، ولا تزال تفتقد لها مكتبة الأدب الإسلامي المعاصر، تلك هي القيام بجرد، وفهرسة أكبر قدر من الأعمال الشعرية عبر تاريخنا الأدبي كله، وعلى ضوء معايير نقدية إسلامية محددة سلفاً، يتم انتقاء القصائد أو المقطوعات التي تصب في مجرى الشعر الإسلامي، وترفد تياره الصافي.

وبعد الانتقاء والتجميع والفهرسة، يمكن أن تبدأ عملية الفرز والتنسيق، ثم الدراسة والنقد والتحليل، لكي ما يلبث (العمل) أن يخرج على الناس،

(١) يمكن للقارئ أن يرجع إليها في كتاب «محاولات جديدة في النقد الإسلامي» ص ٤٥-٩٨، وانظر كذلك موضوع (شيء من الالتزام في شعر جلال الدين الرومي) في الكتاب نفسه ص ١٠١-١٨٠.

مهما طال الوقت، فيملاً في مكتباتهم مكاناً ملحاً.. وأحرى كذلك أن يعنون هذا العمل بـ(ديوان الشعر الإسلامي).

لقد سبق وأن قام آخرون بتجربة كهذه، ولكن باتجاهات أخرى لا صلة لها بالرؤية الإسلامية، فانتقوا قصائد من الشعر، وعرضوها مدروسة محللة في مطبوع أسموه «ديوان الشعر العربي» والجهود قائمة في هذا السبيل ولا تزال.

ونحن لم نبدأ بعد، وقد آن لنا أن نقطع الخطوات الأولى، والجهد مغرٍ، وحشود القصائد الإسلامية مطمورة هناك في خضم تراثنا الأدبي، وليس سهلاً الاطلاع عليها كما لو كانت منتقاة معروضة في مكان واحد<sup>(١)</sup>.

إننا حينما تصفحنا ديواناً من الدواوين، أو كتاباً من كتب تاريخ الأدب أو النقد وجدنا ضالتنا في غير ما عناء: القصيدة أو المقطوعة الإسلامية التي يتجاوز جمعها وفهرستها وتحليلها أهدافه الأكاديمية الصرفة إلى خلق تيار من الوعي الشعري، النقدي، قد يلعب دوراً طيباً في مجرى عطائنا الإبداعي والنقدي المعاصرين، بما يضعه في طريقهما من معالم ومؤشرات، وبما يرفد به الوجدان الإسلامي المعاصر من وقود أصيل خلاق.



(١) لا بد من الإشارة هنا إلى الجهد القيم الذي بذله طلبة كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وبإشراف الأستاذ الدكتور رأفت الباشا، في إصدار عدة مجلدات بعنوان «شعراء الدعوة الإسلامية» تمت فيها فهرسة دقيقة لمساحات واسعة من معطيات الشعر الإسلامي عبر العصور.

## أهم المراجع

- \* آرثر كستلر ورفاقه : الصنم الذي هوى، تحرير رتشارد كروسمان، تعريب فؤاد حمودة، الطبعة الثانية، الدار السعودية، ١٩٧٠.
- \* أوستن وارين ورينيه ويليك : نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق، ١٩٧٢.
- \* جان بول سارتر : الأدب الملتزم، ترجمة جورج طرابيشي، الطبعة الثانية، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧.
- \* جان ماري جويو : مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة د. سامي الدروبي، الطبعة الثانية، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٥.
- \* روجيه جارودي : واقعية بلا ضفاف، ترجمة حليم طوسون، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨.
- \* د. زكريا إبراهيم : برجسون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، مكتبة مصر، القاهرة، مشكلة الفن، مكتبة مصر، القاهرة.
- \* ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة د. إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨.
- \* عدد من الباحثين السوفييت : نظرية الأدب، تحرير يا. أي. إيلسبرغ، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٥٨.

- \* عماد الدين خليل، أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.
- \* جداول الحب واليقين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨.
- \* الطليعة في الفن الغربي والإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧.
- \* فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧.
- \* في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٢.
- \* المأسورون، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠.
- \* محاولات جديدة في النقد الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.
- \* مع القرآن في عالمه الرحيب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨.
- \* كارلوني وفيللو : تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعد يونس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣.
- \* م. أوفسيانيكوف وسميرنوف، موجز تاريخ النظريات الجمالية، تعريب باسم السقا، الطبعة الثانية، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩.
- \* محمد قطب : منهج التربية الإسلامية، دار القلم، القاهرة.
- \* منهج الفن الإسلامي، دار القلم، القاهرة.
- \* د. محمد مندور : الأدب ومذاهبه، دار نهضة مصر، القاهرة.
- \* يوجين يونسكو : ٥ مسرحيات طليعية، ترجمة وتقديم شفيق مقار.
- \* سلسلة مسرحيات عالمية، القاهرة، ١٩٦٦.
- \* جريدة (الثورة العربية) العراقية.
- \* مجلة (المسرح) المصرية.

## فهرس الموضوعات

### الفصل الأول:

٧ ..... الأسس الجمالية

### الفصل الثاني

٦٣ ..... العناصر الأساسية

### الفصل الثالث

١٠٧ ..... الإسلامية والمذاهب الأدبية

### الفصل الرابع

١٨٣ ..... المنظور النقدي

٢٤٠ ..... فهرس الموضوعات